كتاب الهلال
مصر في عيون أبنائها
ثلاثون من الزمان
مذكرات عبد الله عنان

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عباد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٤٥ ـ جمادى الاولى ـ يناير ١٩٨٨

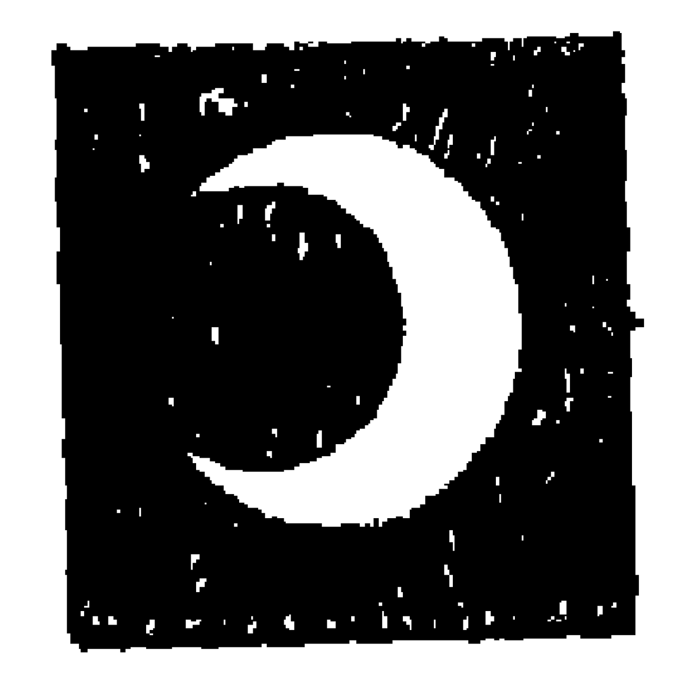
No . 445 JANUARY 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية للنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
حلمـــى التـــونـــى

مصر
في عيون أبنائها

ثلث قرن من الزمان

مذكرات
محمد عبد الله عنان

دار الهلال

مقدمة

لقد دفعتني الى كتابة هذه المذكرات دوافع عديدة ، منهـا ما أتاحه لى المولى القدير ، من طول المدى ، وشهودى خلال ذلك كثيرا من الاحداث التى توالت على وطننا العزيز ، فى مدى أكثر من نصف قرن ، وما أصاب هذا الوطن من محن ، غيرت الكثير من أوضاعه التقليدية، وقضت على كثير من قيمه المعنـوية ، ومثله العالية ، ومظـاهره الشريفة ، التى اقترنت طوال العصور بحياته الاجتماعية ، وازدان به تاريخـه الطـويل . ودفعني الى ذلك من جهـة أخرى ، ما اقترن بحياتي الشخصية من احداث هامة يجدر تسجيلها ، وما توالى على حياتى العـلمية من تطورات ، وزخرت به من دراسات هامة ونشاط متواصل ، وما خلفته من تراث تاريخي وأدبي عريض ، كان مبعث اعتزازى طول حياتي . كل ذلك قد بعث الى شعورا ، بأنه من واجبى ، وأنا أقضى هذه الاويقات الباقية من حياتى ، أن أسـتعرض ، هذه الصفحات التى تلقى كثيرا من الضوء على فترة من تاريخ مصر الحديث ، من خلال حياة رجل شهد ثلاثة أجيال ، وشهد خلالها ما توالى على حياة وطنه ومواطنيه من الاحداث ، والتطورات السياسية والاجتماعيةوالاقتصادية والفكرية .

واود ان انوه قبل كل شيء بأن كل ما يصـدر مني

خلال هـذه المذكرات من آراء وتعليقات ، انما يصـدر مني أولا كمصرى ، لم تكن طوال حياته أى ميول او أهواء سياسية خاصة ، ولم يتصل مطلقا بأى حزب او اية طائفة سياسية ، وقد عاش طول حياته مصريا فقط، ينظر الى سائر الاحداث والتقلبات بنظرته المصرية ليس غير . وثانيا كمؤرخ ، ينظـر الى الحـوادث ، ويحللها بمعياره وقوانينه التاريخية ، وأنه بالرغم من اشتغاله بالصحافة فترة من الزمن لم يشأ أن يغمس قلمه قط في غمر المسائل السياسية الحزبية ، وأنه حرص طول حياته على الابتعاد عن أى مؤثرات أو اتجاهات خاصة ، ولبث يحمل قلمه حرا ، منزها عن مثل هذه المؤثرات والاتجاهات ، وهو ما كان دائما ، وما يزال موضع فخره واعتزازه . وبهـذا القلم الحر النزيه ، يحاول أن يسجل اليوم ، هذه الصـفحات من حياته ، ويستعرض ما شهده خلالها من الاحداث القوية والصور الاجتماعية.

كما انى لن أقف طويلا عند مراحل حياتى العادية ، ولن أسجل منهـا الا ما يستحق التنويه ، أو ما يكون ذا طابع خاص ، أو له تأثير خاص فى مجـرى هـذه الحياة ، ومن حسن الطالع ان ما تنصب عليه هـذه الصفة من أحداث حياتى ، قد قيـد معظمه فى مفكراتى الخاصة ، التى اعتدت طول حياتى ، أن أقيد بها هذه الاحداث فى أيام وقوعهـا ، سنة بعد أخرى ، معززا ذلك بما رسخ فى ذهنى من ذكريات هذه الاحداث ، التى أذكر الكثير منهـا ، وما زالت تتمثل كلمـا تخيلتها أمام عينى بسائر تفاصيلها وآثارها . ولقد كانت « الذاكرة » فى الواقع لى ذخـرا كبيرا فى تذكر

واستقصاء الكثير من الاحداث والوقائع الشخصية ، منذ طفولتي ودراساتي المدرسية ، ثم من بعدها خلال مراحل حياتي الطويلة ، وقد كانت تسعفني بأدق التفاصيل عن وقائع وأشياء لا حصر لها .

وقد مرت مصرنا ، منذ الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التي شهدناها أحداثا ، حتى اليوم بسلسلة طويلة من الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثورات الوطنية الكبرى في سنة ١٩١٩ ، ثم ما ترتب عليها بعد ذلك من استخلاص حريات مصر واستقلالها ، على مراحل متعاقبة . ثم الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) واحداثها وتطوراتها المثيرة ، ونتائجها السلبية بالنسبة لمصر . وأخيرا ما وقع بمصر من انقلابات واحداث عسكرية واجتماعية خطيرة ، القت بها اولا الى المغامرة العسكرية الكبرى ، التي أوقعت بها لأعظم نكبة عرفتها في تاريخها الحديث ، وأضاعت مساحات شاسعة من أراضيها التاريخية ، ثم الى مغامرات عسكرية أخرى ، هلك فيها عشرات الالوف من أبنائها ، كما غيرت هذه الانقلابات أوضاعها التقليدية الراسخة ، وأخلت بموازينها الاجتماعية ، ودفعت بها الى حضيض العوز والفاقه ، وهزت تراثها العلمي والثقافي العريق ، واوقعت بها سلسلة من الازمات الاجتماعية والاقتصادية ، التي حطمت أعصاب شعبها ، وقد كانت هذه الكوارث المتوالية في مجموعها أعظم محنة قومية نزلت بمصر منذ عصور طويلة ، وسوف نتناول ذلك كله بالعرض والتعليق الشافي في مكانه المناسب ، والله ولي التوفيق .

هذا ، وقد رأيت أن أستعير لهذه المذكرات عنوانا على نسق العنـــوان الذى سبقنى اليه صديقى الأجل المرحوم أحمـد شـــفيق باشا ، حيث أسمى مذكراته « مذكراتى فى نصف قرن » وأنا أسمى هـذه المذكرات « مذكراتى فى ثلثى قرن » وهو المدى الزمنى الذى تشغله حوادث هذه المذكرات .

القسم الأول

اني افتتح هذه الصفحات التى اروى فيهـــا قصــة حياتى ، بحمد الله العلي القـدير ، الذى من على بطول حياتى ، وانفساح اجلى ، ومشاهداتى لاحداث أجيال متعاقبة ، وأعانتى على تحصيل العـلم الغزير ، وعلى خدمة الاسلام وتاريخه ، فى مؤلفـــات عديدة تألقت بهـا حياتى العـــلمية ، والقت أضواء عديدة على صفحات خالدة من تاريخ الاسلام وحضارته العظيمة .

وانى أكتب هذه الصفحات من حياتى ، وقد جاوزت الثمانين ، وقد ملأت هذه الحياة ،كما سيرى القارىء بالحركة المستمرة والعمـــل الدائب ، والرحـــلات المتوالية فى مشارق الارض ومغاربها ، آنا للســياحة وغالبا للدراســـة ، ووقفت على الكثير من الخواص الحضارية لمختلف الشعوب الاوربية ، واتصلت بكثير من الدوائر والهيئات العلمية العالية ، وتمتعت بالتجوال فى سائر جنبات أوربا الجميلة ، من السهل والجبل والمصايف الساحرة ، والمنتديات الاجتماعية الانيقة ، والحفـــلات المسرحية والفنائية ، والموسيقية العـالية الشائقة ، فى أشهر أوبرات القـــارة ، وتحدثت الى كثير من أبناء هذه الشعوب بلغاتها القومية ، وأنا أتحدث

بحمد الله خمسا من اللغات الاوربية .

أكتب هذه الصفحات ، وهى خاتمة ما يخطه قلمى ، الذى خط الكثير خلال هذه الحيـــــاة الطويلة الحافلة وأنا على استعداد فى كل لحظـة الى لقاء ربى ، قرير العين ، مغتبط النفس ، بما قدمته فى حياتى ، الى وطنى العـــــزيز مصر ، والى أمتى العربية العظيمة ، من ثمار تفكيرى وبحوثى ، راجيا أن تكون للخلف خير ذخر ، ولكاتبها خير ذكرى .

* * *

وأبدأ فأقول انى أنتمى الى أسرة مصرية قديمة عريقة ، تمثل فى تاريخ مصر الاسلامية ، خلال قرون عديدة ، هى الاسرة العنانية . وقد نبغ منهـــا خلال القرون عدد من العلماء ، يحضر ذاكرتى ، وأنا أكتب هذه السطور منهم ثلاثة علماء ، أولهمـــا سيدى محمد بن عنان ، وثانيهما أخوه عبد القـــادر بن عنان ، وهما من أكابر أقطاب الصوفية ، وقد ذكرهمـــــا الامام عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه : « لواقح الانوار فى طبقات الاخيار »، وكتب لاولهمـــــا ترجمة طويلة يفتتحها بقوله : « كان رضى الله عنه من الزهاد العبـــــاد ، وما رأيت فى عصرنا مثله . وكان مشـــايخ العصر اذا حضروا عنده ، صاروا كالاطفال وكان يضرب به المثل فى قيام الليل ، وفى العفة والصيانة ، وكانت له كرامات عظيمة . توفى عن مائة وعشرين سنة فى ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ودفن بجامع القسم بباب البحر ، وصلى عليه الائمة والسلطان طومان باى ، وكان يوما مشهودا » .

ويقول عن الثانى « انه أخو الشيخ محمد رضى اللهعنه،

صحبته نحو سبع سنين على وجه الخدمة ، وكان يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، وكان رضي الله عنه يغلب عليه الصفاء والاستغراق ، مات سنة ٩٢٠ هـ (١٥٩٤ م) ، ودفن ببرهمتوش ببلاد الشرقية وقبره بها يزار » .

وأما الثالث ، فهو العلامة شمس الدين العنانى . وقد ذكره الجبرتى فى تاريخه ، فى وفيات سنة ١٠٩٨ هـ ، فقال : « الشيخ الامام شمس الدين محمد بن داود بن سليمان العنانى ، نزيل الجنبلاطية ، اخذ عن على الحلبى صاحب السيرة ، والشهاب الفزى ، والشمس البابلى ، والشهاب الخفاجى ، والبرهان اللقانى وغيرهم ، وحدث عنه حسن بن على البرهانى ، والخليفى والبديرى ، وغيرهم ، توفى سنة ثمان وتسعين والف (١٦٨٦ م) .

مولدى ونشأتى الأولى

كان مولدى ببلدة بشلا مركز ميت غمر دقهلية فى السابع من يوليو سنة ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) ، وفقا لما هو مقيد بالدفاتر ، التى كان يحررها يومئذ عامل التليفون . وفى سنة ١٨٩٨ ، وفقا لشرح المرحومة والدتى ، وذلك ان مولدى كان موافقا لحادث مرور أول قطار بقريتنا من قطارات شركة الدلتا ، وقد كان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٨ . هذا ربما كان رقم القيد بدفتر الميلاد ، وهو رقم ٨ ، قد كتب بصورة محرفة ، فقرات ٦ . وقد ولدت فى أسرة متوسطة الحال ، ولكن تمت حسبما تقدم الى أصل عريق . وكان والدى رحمه الله ، رجلا ذكيا ، ومستعلما وفق موازين العصر ،

حيث تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة نظـامية ، خلافا لاخوته الذين ذهبوا كلهم الى الازهر الشريف . وكان يحسن القراءة والكتابة ، ويعرف طرفا بسيطا من اللغة الفرنسية .

وكانت أمى هى ابنة عمة أبى ، وقد ولدا ، حسبما علمت من مؤرخ الاسرة عمى المرحوم الشيخ محمـد عبد المطلب العنانى ، معا فى سنة ١٨٧٤ ، وفقا لتعريفه « السنة التي ولد فيهـا الخديو عباس الثانى » (أقول وكذلك مصطفى كامل) . وكانت والدتى أمية لم تتعلم قراءة ولا كتابة ، حيث عاشت فى عصر لم تجر فيه العادة بتعلم البنات ، الا فى الاسر الارستقراطية العـالية ، ولكنها كانت سيدة وافرة الفهم والذكاء . توفيت أمهـا وهى فى المهد ، فنشأت يتيمة ، وورثت منها ثمانية عشر فدانا ، أضاع معظمها الوصى عليها ، فلم يبق لها منهـا سوى ثلاثة أو أربعة أفدنة ، هى التى كانت فيما بعد ذخرا للانفاق على تعليمى العالى ، حسبما سيأتى .

وحينما بلغت الثالثة من عمرى أدخلت كتاب القرية ، فمكثت به نحو عام . ثم نزح والداى الى القاهرة نحو سنة ١٩٠١ ، ونزلا بمسكن متواضع بحارة قصر الشوق، قرب المشهد الحسينى . ثم انتقلا بعد قليل الى منزل صغير بحى بركة الفيل ، فى مجموعة متماثلة من المنازل تسمى عمارة حسن طاهر باشا ، ومكثنا به نحو عامين . ثم انتقلنـا الى شقة بحارة الجنبكية بحى المغربلين . وكنت فى كل نقلة أدخل كتـابا جديدا ، أحفظ فيه سورا صغيرة من الكتاب العزيز ، وأتعلم الخط وشيئا من الحساب . ثم انتقلنا بعد ذلك الى شقة كبيرة جميلة

بحارة النبقة بدرب الجماميز ، وكان والدى قد التحق بعمل كتابى فى احدى دوائر الباشوات التى كانت يومئذ كثيرة بالقاهرة . وكان يستعين بهذا العمل على الحياة المتواضعة التى كنا نحياها ، الى ما كان يحصل عليه من ايجار اطيـــان والدتى القليلة . وكان مستوى العيش رخيصا جدا ، تكفى فيه بضعة جنيهات قليلة لاسرتنا الصغيرة . وكان والدى قد خلع الملابس البلدية ، التى كان يرتديها فى القرية ، وهى الجبة والطربوش ، وارتدى الملابس الافرنجية ، والتحق بذلك بطبقة الافندية . ثم ثابت له فرصة فى تجارة بعض الاراضى الصحراوية التى كان يشتريها من الدائرة ، وكانت تقع بضـــاحية عين شمس ، وكانت يومئذ رخيصة جدا ، لا يتجاوز ثمن المتر منها قروشا ضئيلة ، فحالفه الحظ ، وبدأ يكتسب منهـــا مبالغ مجزية ، وأخذت حياتنا تميل الى شىء من الترف ، وكنت قد بلغت يومئذ نحو الثامنة من عمرى ، فأدخلت مدرسة أولية من مدارس الاوقاف تسمى مدرسة « أغادار السعادة » تقع بشارع درب الجماميز قريبا من السيدة زينب ، وقد كانت ما تزال قائمة الى عهد قريب بعد انتقالها الى الحارة الموازية الى شارع راتب . وفى هذه المدرسة ، تفتحت مواهبى الدراسية ، وحفظت جانبا من القرآن الكريم ، وتقدمت فى الخط والحساب تقدما كبيرا .

وأود أن أقول هنا ، انى أشـــعر شعورا قويا بأنى اكتسبت بالتعليم فى الـــكتاب وفى المدرسة الاولية ، حصيلة طيبة من الخط واللغة ، وانى اكتسبت من حفظ بعض سور القرآن ، حصيلة طيبـــة من النطق العربى

السليم ، والتمكن من القراءة الجيـــــــدة ، والاملاء الصحيحة ، وذلك على مســـــتوى يندر أن يصل اليه تلاميذ المدارس الابتدائية فى سنى دراستهم الاولى ، وكان ذلك من عوامل تفوقى فى دراستى الابتدائية فى اللغة العربية باستمرار .

وكنت يومئـــــذ أمارس القراءة فى بعض القصص المستخرجة من كتاب ألف ليلة وليلة ، مثل قصة عجيب وغريب ، وقمر الزمان ، والسندباد البحرى وغيرها ، وكانت تطبع على حدة فى كتيبات يبلغ ثمن الواحد منهـا بضعة مليمات أو نصف قرش ، فزادتنى هذه القراءات قوة فى اللغة حتى انى كنت أجرأ أحيانا على القراءة فى مقامات الحريرى ، وأتغنى بما يعجبنى فيها من الاشعار وكانت لدى والدى نسخة منهـا ، مما ورثه من المرحوم والده من الكتب ، كما كنت أحاول أحيانا القراءة فى بعض فصول مقدمة ابن خلدون فى نسخة بولاق الموروثة كذلك من الجد ، وبالرغم من أنى لم أكن أفهم الكثير يومئذ مما أقرأه فى هذين المرجعين العاليين وأمثالهما مما كنت أقع عليه من كتب الوالد ، فاننى كنت أستبقى فى ذهنى كثيرا من الكلمات والعبارات .

الدراسة الابتدائية

وتلقيت دراستى الابتدائية بمدرسة العقادين الاميرية الواقعة على مقربة من باب زويلة فى شارع الغورية على رأس حارة الروم ، وكانت لهـــا واجهة سبيل أثرية ضخمة ، ما يزال يزدان به مبناها حتى اليوم . وقـد علمت فيما بعـد خلال دراستى التاريخية أن حارة الروم هذه كانت احدى أحياء العساكر الفاطمية الذين ينتمون

الى أصل رومى ، وتليها بعد ذلك فى نفس الشارع ، حارة الجودرية ، وهى أيضـــــا حى آخر من الاحيـــاء الفاطمية ، كانت تضم العسكر الذين ينتمون الى جودر ، احد أولياء الدولة الفاطمية . وكانت أسرتي حينما أدخلت الى هذه المدرسة قد انتقلت الى شُقة جميلة كبيرة مستقلة بسراى حافظ باشا بدرب الاغوات . وكانت شقة أثرية بها نافورة رخامية جميلة . وقد خصصنا بها غرفة كبيرة وثيرة للضيوف الذين كانوا يقصدون زيارتنا من الاقارب أو غيرهم من أهل القرية ، اذ لم تكن الفنادق ، قد انتشرت يومئذ ، ولم يجر العرف بأن يقصدها من لهم أقارب فى العاصمة ، ولا سيما السيدات . وكان لنا يومئذ خادم .

ولبثت أربعة أعوام بمدرسة العقادين هيأعوام الدراسة الرسمية ، انتقلنا خلالها الى عدة منازل أخرى ، وكنت أفوز بالنجاح فى كل سنة والانتقال من سنة دراسية الى الى أخرى . وظهر من ذلك الحين عشقى لعلم الجغرافية والبراعة فى رسم الخرائط الجغرافية ، وكذلك عشقى لعلم التاريخ . وأتممت دراستى الابتدائية ، وفزت بنيل الشهادة الابتدائية فى صيف سنة ١٩١٠ .

وكنت خلال دراستى فى مدرسة العقادين ، وخــلال مرورى المستمر فى الطريق الرئيسى لمدينة القــــاهرة المعزية ، أتأمل الاثار الفاطمية والســـلطانية باعجاب ، وأتردد على الجامع الازهر ، حيث كان أصغر أعمامى المرحوم الشيخ على العنانى ، مايزال مجاورا به . وكنت أزوره فى منزله بالباطنية على مقربة من الجامع أو بالجامع نفسه ، كلما تيسر لى ذلك وكنا فى غالب الامر نتناول طعام الغذاء معا فى صحن الجامع خصوصا أيام الشتاء ، حيث

كانت الشمس تغمر صحن الجامع الشهير ، ويستمتع المجاورون (الطلاب) بالجلوس فى الشمس أو الاستلقاء فيها ، أو يحضرون الحلقات المعقودة بها . وكان طعامنا على الاغلب من الطعمية والباذنجان المقلى والسلاطة يبعثنى عمى لشرائها من محل أبي ظريفة الشهير . وقد كان يقع يومئذ فى حارة الباطنية مقابل الجامع من الناحية القبلية ، وكنا نشترى عشر قطع صغيرة من الطعمية بنصف قرش ، والباذنجان بنحو ذلك ، والسلاطة بمليمين . وأما الخبز فكان لدى عمى دائما ، لانه كان يتقاضى من الجامع جراية يومية . وكان رغيف الخبز من الجراية او من غيرها يباع بربع قرش . وكان عمى يتحفنى دائما عقب الطعام بقدر من العجوة الشرقية ، والفول السودانى يستخرجهما من خزانته الخشبية التى كانت مثبتة فى حائط الصحن ضمن مئات الخزائن الخاصة بالمجاورين ، الى يسار المزولة ، وقد نزعت منه اليوم بعد أن اختتم الجامع الشهير حياته العلمية المجيدة وانتهى عهد المجاورين والمشيخة الاجلاء . وكانت هذه الزيارات تزيدنى حبا فى الجامع الشهير واعجابا به وبمناظره التقليدية ، ولا سيما حلقاته العلمية المختلفة التى كانت تعقد بين أعمدته ، وقد أصبحت اليوم أثرا من آثاره .

ـ ١ ـ

جنازة مصطفى كامل

فى ذلك اليوم ـ يوم الثلاثاء ١١ فبراير ١٩٠٨ ـ كنت عائدا كالعادة عصرا من مدرستي ـ مدرسة العقادين الاميرية ـ وكنت سائرا الى منزلى الكائن بآخر شارع السيوفية ، مخترقا باب زويلة (بوابة المتولى) فشارع الخيمية ، فشارع المغربلين ، وعند آخر المغربلين ، وجدت شارع محمد على مسدودا بجموع بشرية هائلة ، ولا سبيل الى اختراقه من أية جهة من جهاته ، والصمت العميق مخيم على الجموع الكثيفة المتراصة على جانبيه . وفى الشارع يسير موكب طويل لا نهاية له ، فى صمت مطبق ، ولاحظت أن الدموع تنهمر من أعين الكثير من الوقوف ، ومن كثير ممن يسيرون فى الموكب ، وعندئذ سألت الناس من حولى ، فأجابونى أن هذه جنازة مصطفى كامل باشا ، أجل كانت هذه جنازة الزعيم الوطنى الشاب ، جنازة جليلة رهيبة . وقد احتشد فى مقدمتها طلبة المدارس الاميرية ، الابتدائية والثانوية والعليا ، ومن ورائهم عساكر البوليس ، وباقى المشيعين وكانت كل مدرسة تحمل علما مجللا بالسواد . وكانت عربات الحنتور التى تسير خلف الجموع السائرة ، تسير

فى تكدس وبطىء ، وقد وضع السائقون عصابات سوداء حول رءوس الخيل ، ووضعوا الخرق السوداء على طرابيشهم ، ومنهم من كان يبكى وترتفع زفراته ، وهو يسوق الخيل هونا ، وكان الموكب من خلف النعش ، ثم العربات من ورائه ، يمتد حسبما يقول الجمهور حتى العتبة الخضراء . واستمر سير الموكب بطيئا قرابة ساعتين ، وأنا واقف فى مكانى ، مشدوه ، حزين مطرق ، كباقى الناس ، حتى انتهى نحو الغروب ، وعندئذ عبرت شارع محمد على الى منزلنا ، وأنا مطرق مفكر ، حتى وصلت الى الدار ، وكانت فى عطفة صغيرة قبل سبيل ام عباس . وعندئذ سألتنى أمى عن سبب تأخرى ، فرويت لها ما رأيت وأنا حزين مدهوش . وكان ذلك أول حادث وطنى عظيم شهدته فى صباى ، وكنت يومئذ فى نحو الحادية عشرة من عمرى . ومازلت الى اليوم اذكر منظر الموكب الهائل الحزين ، كما أذكر ما قرأته بعد ذلك فى شبابى عند قول المرحوم قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » ، ان قلب مصر قد اهتز مرتين الى الاعماق ، الاولى عندما نفذ حكم دنشواى . والثانية عندما شيعت مصر زعيمها مصطفى كامل الى قبره . ثم يقول قاسم أمين : « لقد ظهر هذا الشعور ساطعا فى جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة ، ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر . هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث ، الذى خرج من أحشاء الامة وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل .

— ٢ —

وفاة جدى

المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنانى

وانى لاذكر من حوادث طفولتى حادثا انطبع فى مخيلتى انطباعا عميقا ، ولم أنس تفاصيله حتى اليوم ، وهو وفاة جدى المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنانى . ومازلت أذكر شخص هـذا الجد الوقور ، وقد كان أسمر ممشوق القوام ، ملتحيا ، أنيق الملبس . وكنت اعرفه مذ كنت فى نحو الرابعة من عمرى . وكان يأتى الى القاهرة كل صيف بعد انتهاء موسم الحصاد ، وينزل فى شقة فى شارع خان الخليلى ، ويحضر كل يوم بعض حلقات الجامع الازهر ، وقد زرته مع والدى مرارا فى هذا المقام ، وقد كان يأتى بعد ذلك لزيارتنا كلما حضر الى القاهرة بشقتنا الرخامية الفخمة بسراى حافظ باشا بدرب الاغوات . وكان ذلك حسبما أذكر فى سنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ . وفى صيف سنة ١٩٠٨ مرض مرضا خطيرا ، ولزم مندرة الضيوف الكبيرة ، عند مدخل منزله الكبير بقرية الفؤادية (شقلبان سابقا) بجوار بلدة بردين ، وهى التى هاجر اليها من كفر عرفه العنانى مسقط رأسه بجوار شنبارة الميمونة مركز ميت غمر . وقد التف حوله منذ مرضه ، أولاده وبناته وفى مقدمتهم والدى ووالدتى ، وهو خالها أخو أمها . وهرع الى زيارته رهط كبير من الاقارب والاصهار والمحبين . وكنت كل يوم اذهب الى رؤيته وتقبيل يده . وكان يولينى عطفا خاصا ، لانى كنت الوحيد من أحفاده الذى يتعلم فى مدرسة أميرية .

واذكر انه قال لى ذات يوم حينما قبلت يده : ما معناه : « يامحمد اذا شفانى الله ، فسوف أقوم بتعليمك على نفقتى حتى نهايته » . ولكنه كان مرض الموت . فتوفى بعد أيام قلائل . وقد تبين بعد انه كان مصابا بالتيفود ، وكان يحمل له الثلج يوميا من الزقازيق ليوضع حول رأسه . وعملت له ليالى المأتم الثلاث فى سرادق هائل ، كان ينصب الى جوار حديقته المجاورة لمنزله .

- ٣ -

مقتل ناظر النظار
بطرس باشا غالى

فى يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ ، وقع مقتل ناظر النظار (رئيس الوزراء) بطرس باشا غالى . أطلق عليه الرصاص حين نزوله من وزارة العدل (الحقانية) شاب من شباب الحزب الوطنى يدعى ابراهيم ناصف الوردانى ، وهو من الشباب الذين تعلموا فى الخارج ، وكان يدرس الصيدلة فى سويسرا . وكان للحادث دوى عظيم ، وقد اعترف القاتل بجرمه ، وقرر أن الدافع له على ارتكابه ، هو ماعمد اليه رئيس الوزراء من تصرفات ضد مصالح الوطن ، مثل توقيعه لاتفاقية السودان سنة ١٩٠٩ ، ورياسته للمحكمة المخصوصة فى حادثة دنشواى ، ثم سعيه فى انفاذ مشروع مد امتياز قناة السويس . وشغلت الناس بضعة أشهر بمتابعة التحقيق فى هذه القضية الخطيرة ، وقبض على عدد من شباب الحزب الوطنى باعتبارهم شركاء للوردانى ، وترافع عن المتهمين

اقطاب محامى هذا العصر ، مثل احمد بك لطفى ، وابراهيم بك الهلباوى ، ومحمد على علوبة وغيرهم . واصدر قاضى الاحالة قراره باحالة الوردانى وحده الى محكمة الجنايات والافراج عن باقى المتهمين . وانتهت المحاكمة بأن اصدرت محكمة الجنايات حكمها باعدام الوردانى ، وذلك فى يوم ١٨ مايو سنة ١٩١٠ ، فكان لذلك أثر بالغ فى نفوس الجماهير . وكان مصير هذا الشاب المنكود يثير الاشفاق والاسى فى نفوس الالوف المؤلفة من الناس . وكان العامة يؤلفون فى اقدامه وفى عمله مختلف المواويل الشعبية . ومازلت أذكر منها الى اليوم « ياميت صباح الخير الوردانى ، ... الخ » وكنت يومئذ تلميذا بالسنة الرابعة الابتدائية ، أستعد لامتحان الشهادة الابتدائية . وكان المرحوم والدى يتابع تطورات الحادث فى الصحف ، ويقص علينا خلاصة مايقرأه ، وكانت قلوب الشباب الفتية تذوب عطفا على الوردانى ، وعلى شبابه ، وتبالغ فى تقدير اقدامه وعمله «الوطنى» .

ومع أنه كان واضحا أن الوردانى قد ارتكب جريمة سياسية ، دفعته اليها بواعث وطنية واضحة ، فقد كان من شديد الاسف أن اعتبر فريق من اخواننا الاقباط ، أنها ترجع الى بواعث دينية . وقد كان لهذا الاعتبار أسوأ الاثر فى توتر العلائق بين شطرى الامة ، الاقباط والمسلمين . وكانت مقدمة لتلك الازمة القومية الخطيرة ، التى تفاقمت تباعا بين الطائفتين ، حتى انتهت الى الحقد والعداوة ، واتجاه بعض عناصر الطائفة القبطية الى الاستنصار بالانجليز ، وبعثوا الى انجلترا بمبعوثهم قرياقص ميخائيل لكى يعمل على اثارة

الرأى العام الانجليزى ضد المسلمين المصريين ، واستمرت تلك الازمة القومية الخطيرة فى تبادل الخصـــــومات والحملات بين الطائفتين بضعة أعوام ، حتى أذن الله بانتهائها حينما شبت نار الثورة الوطنية الكبرى فى سنة ١٩١٩ ، فعاد الوئام الى شطرى الامة ، واندمجا معا فى اخاء الاشقاء خلال حوادث الثورة ، ولعب كل منها دوره الوطنى المجيد فى أحداثها وتطوراتها .

الدراسة الثانوية

ووفقت الى الانتظام فى الدراسة الثانوية بالمدرســة الخديوية العريقة ، التى تخرج منها العديد من رجالات مصر الاعلام . فالتحقت بهــا فى أكتوبر سنة ١٩١٠ . وكانت دراسة موفقة مزدهرة . وكان ناظرنا الانجليزى المستر فرنس ، من خيرة رجال التعــليم والتربية ، والاخلاق الرضية العــذبة ، والحلم الوافر فى معــاملة الطلبة . ومازلت أذكر شكله الوسيم ، بقوامه المعتدل المشوق ، وشاربه الطويل الاحمر . وكان يسكن بأسرته فى المنزل الصغير الواقع فى شرق ملعب الكرة المجــاور للمدرسة . وقد توفى ، وهو يقضى بقية حياته ، بعــد احالته الى المعاش ، فى بلده بأنجلترا فى سنة ١٩٤٢ ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وقدمت تعزيتى يومئذ فى وفاته الى أخيه الاستاذ فرنس ، الذى كان يومئذ مديرا للرقابة العسكرية بوزارة الداخلية .

ولم يكن بالقاهرة يومئذ من مدارس البنين الثانوية الرسمية ، سوى ثلاث ، هى الخديوية ، والسعيدية ، والتوفيقية . وكانت الخديوية مجمع الطلاب من أبناء الاسر المتوسطة ، ولاسيما الاسر الريفية . والسعيدية

مجمع الطلاب من أبناء الاعيان والذوات . والتوفيقية بالاخص مجمعا لاغلبية الطلاب من اخواننا الاقباط ، الى جانب زملائهم المسلمين . وكان ذلك يرجع بالاخص الى عوامل جغرافية .

وكان التعليم الثانوى فى مصر يومئذ ، تتولاه الى جانب النظار الانجليز ، طائفة من المعلمين الانجليز ، يتولون تدريس اللغة الانجليزية ، والتاريخ والجغرافيا ، والكيمياء ، والطبيعة ، والرياضة أحيانا باللغة الانجليزية. وكان لذلك الوضع الذى كان ينتقده البعض يومئذ ، ويراه عدوانا على اللغة العربية ، ونوعا من الاحتكار الانجليزى للتراث الثقافى المصرى ، أكبر أثر فى تمكين الطلاب من دراسة اللغة الانجليزية واتقانها ، بما لم يتمتع به بعد ذلك اى جيل من الطلاب المصريين . وأنا أشهد أننا حققنا من الدراسة باللغة الانجليزية ، ثروة لغوية عظيمة ، ولم نشعر مطلقا أن تعليم العربية قد اوذى بأى نوع من انواع الايذاء ، أو ناله ضعف أو تقصير ، بل كنا بالعكس طلابا أقوياء فى اللغة العربية ، كما كنا أقوياء فى اللغة الانجليزية .

وكانت تقوم على راس المدارس العليا ، الى جانب مدارس الحقوق والتجارة والهندسة العليا ، مدرسة المعلمين العليا Training college — التى أنشأها الانجليز ، وتولوا التدريس فيها ، على يد نخبة مختارة من الاساتذة والمربين البارعين الانجليز . وقد تخرج فى هذا المعهد التربوى الزاهر ، جيل من أعظم ماشهدت مصر من اقطاب الاساتذة والمربين ، الذين نهضوا بأعباء التعليم فى مصر ، طوال النصف الاول من القرن العشرين .

ونستطيع ان نذكر عشرات ، بل ومئات من خريجى هذا المعهد الجليل ، الذين شرفوا بنبوغهم وجهودهم التربوية جيلهم ، وحملوا على أكتافهم اعباء التعليم الاصيل عصرا ، وتخرج على أيديهم أجيال ذات مستوى عال من الثقافة والاخلاق ، وهما عنصران يكاد يخلو منهما جيلنا الحالى .
وقد كان من نكد الدنيا أن يلغى هذا المعهد الجليل ، لبواعث تتصل بالميول والاتجاهات السياسية . ولكونه من آثار الانجليز ، وازدهر فى عهد الاساتذة الانجليز ، ثم تعجز الحكومة أن تقيم له مثيلا ، يضارعه أو يقاربه اصالة وكفاية . ومن ثم فاننا لا نجد أمامنا فى العصر الاخير سوى أجيال ضعيفة من المعلمين ، لا تمتاز بأى نبوغ او لمعان ، بل ولا اخلاق متينة . وانه من الاسف أن تتغلب الاهواء السياسية فى مجالات يجب أن تكون بعيدة عنها .

ونعود الى الدراسة الثانوية ، فنقول اننا قد درسنا فى هذا الجو الذى تغلب فيه الانجليزية الادب الانجليزى دراسة حسنة ، وعرفنا شكسبير ، وحفظنا بعض مسرحياته ضمن برنامج الدراسة ، ودرسنا النثر الانجليزى فى بعض الكتب الجليلة ، مثل كتاب «اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » The Decline and Fall of Roman Empire لادوارد جيبون ، حيث حفظنا منه جزءا صغيرا عن عصر الامبراطرة الانطونيين The Age of the Antonines . وكان هذا أول وقوفى على هذا المؤلف العظيم ، ذى الاسلوب الرائع ، الذى غدا فيما بعد مسرح دراساتى الواسعة ، وكان له أكبر الاثر فى صوغ أسلوبى التاريخى . كما درسنا كذلك فى السنة الرابعة الثانوية

فى باب النثر كتابا جذابا ساحرا ، لانتونى فرود هو .
« البحارة الانجليز فى القرن السادس عشر » English Seamer in The 16th Century . وقد فتحت لى هذه الكتب التاريخية الجليلة ، أبواب القراءات التاريخية الواسعة ، فى عدد من المصنفات الانجليزية الجليلة مثل كتابى وليم برسكوت « تاريخ فتح المكسيك » و « تاريخ فتح بيرو » ، هدانى اليهما ماكنا ندرسه فى تاريخ الاستكشافات الجغرافية ، فقرأتهما بشغف عظيم . و « تاريخ الدولة البيزنطية » History of the Byzantine Empire لجورج فنلى ، وغيرها مما كنا نجده فى مكتبة المدرسة ، التى كانت تزخر بمجموعة كبيرة من آثار الادب الانجليزى .

وكانت لنا كذلك حصيلة طيبة من القراءة والدرس فى كتب الادب الانجليزى . وقد عرفنا منذ السنة الاولى بعض الاثار الادبية الجليلة ، مثل كتب تشارلس دكنز ، الذى كنا نطالع فى مجموعة مختارة من كتبه ، ويقرأها لنا أستاذنا فوستر سميث بأسلوب ممتع شائق . ودرسنا فى السنة الثالثة رواية انتونى هوب الشهيرة « سجين زندا » The Prisoner of Zenda ، وان كنت لم اتذوقها ولم أكن متحمسا لها .

وقد انهمكت فى ذلك الوقت فى مطالعات واسعة لاثار الادب الانجليزى ، فطالعت من كتب دكنز ، ولكى كولنس وستانلى ويمان ، ووالترسكوت ، وكونان دويل ، وكبتن ماريات ، ووليم ثاكرى ، وجورج اليوت ، وأوليفر جولد سمت ، وغيرهم . وكان ذلك كله فى طبعة « تاوخنتز » Tauchnitz الالمانية الشهيرة ، ومازلت اذكر حتى اليوم ، وأقتنى ضمن مكتبتى عددا كبيرا من مؤلفات

هؤلاء الكتاب الاعلام ، الذين امتعت آثارهم شبابى ، واغنت معارفى بالادب الانجليزى وتراثه ، واتجاهاته .

وقضيت سنى الدراسة الثانوية الاربع بنجاح مستمر ، ونلت شهادة الكفاءة سنة ١٩١٢ ، ثم شهادة الباكلوريا فى سنة ١٩١٤ ، وكان ترتيبى فيها الرابع عشر ، وحصلت فى الجغرافيا على النمرة الكاملة ، وهى ١٥ ، وفى التاريخ على ٢٤٫٥ درجة من ٢٥ . وكان هذا مؤذنا بما حدث فيما بعد من تطور اتجاهاتى الدراسية العملية .

ومما هو جدير بالذكر أن التعليم كان يومئذ كله بمصاريف يؤديها الطلاب ، وكنا نحن الطلبة الخارجين ندفع مصروفات قدرها خمسة عشر جنيها فى السنة ، وكنا ندفعها بالجنيهات الانجليزية الذهبية ، وسيلة التعامل يومئذ ، وكان الجنيه يحسب بسعره الرسمى وهو سبعة وتسعون قرشا ونصف . وقد استمر التعامل بهذه الجنيهات الانجليزية الى أن خرجت انجلترا عن معيار الذهب فى سنة ١٩٣٠ . وهذا غير أثمان الكتب . وكنا نتناول طعام الغذاء بالمدرسة بانتظام حتى يوم الخميس . ومازلت اذكر أصناف الطعام الجيد الدسم المتعدد الاصناف من اللحوم والخضر والأرز والحلوى والفاكهة ، مما تتحسر عليه اليوم كثير من النفوس .

مدينة القاهرة
فى مطالع القرن العشرين

وانه لمن الشائق ان تعرف كيف كانت عليه مدينة القاهرة المعزية يومئذ ، وكيف كانت ظروف الحياة .

لقد كانت القاهرة يومئذ مدينة هادئة لا يتجاوز سكانها مليونا من الانفس ، وكانت ماتزال فى أكثر أحوالها على ما كانت عليه منذ عصور ، فشوارعها مرصوفة بالخرسانة ، ولم تكن قد عرفت يومئذ رصف الاسفلت. وكانت تضاء ليلاً بمصباح الغاز ، اذ لم تكن الكهرباء قد انتشرت بعد . وكانت معظم الاحياء ، فيما عدا الاحياء الاجنبية لا تعرف الكهرباء . وحتى منازل الاعيان والكبراء كانت ماتزال تضاء بالمصابيح والشمعدانات الكبيرة .
وكانت طوائف الشعب معظمها من لابسى العمائم والجلاليب . ولم يكن بين الحرفيين من يلبس الملابس الافرنجية . وكانت الطبقة الوسطى تتكون معظمها من الافندية الموظفين ومن اليهم من متوسطى الاعيان الذين اختاروا الاقامة بالقاهرة للاشراف على تربية أولادهم .
وكانت شبكة المواصلات الرئيسية ، تقتصر على الترام بخطوطه القديمة المعروفة ، ينطلق اليها من مركزها الرئيسى بالعتبة الخضراء ، حيث كان يقوم الى جوارها من الغرب مبنى المحاكم المختلطة ، الذى أزيل بعد الغاء الامتيازات الاجنبية فى سنة ١٩٤٩ ، وأقيم مكانه اليوم بستان مستدير . ولم يكن يوجد الى جانب الترام من وسائل المواصلات ، سوى خطوط سوارس القصيرة التى كانت تسير بها بضعة من عربات « سوارس » ، وهى عربات مستطيلة يجرها بغلان ، وتتكون من دكتين متقابلتين ، تسع نحو عشرين راكبا ، وثمن التذكرة بها ثلاثة مليمات . والى جانب هاتين الوسيلتين ، كانت توجد عربات الحنتور يركبها الخاصة ، وعربات الكارو يركبها العامة ، وهى فى نفس الوقت وسيلة النقل

الرئيسية . ولم تكن بالقـاهرة يومئذ سيارات مطلقـا ، لان السيارة كوسيلة للركوب لم تعرف بالقاهرة ، الا بعد الحرب العالمية الاولى . وكانت هذه الحالة مدعاة الى الاطمئنان الكبير على حياة صغار الاولاد والتلاميذ ، وعلى حمايتهم من التعرض لحوادث النقل الكثيرة التى تقع فى عصرنا .

ولم يكن هذا بدعا بمدينة القاهرة ، فقد رايت عربية سوارس تجرها البغال ، فى مدينة أزمير التركية خلال زيارتى لتركيا سنة ١٩٢٧ .

وكان الرخاء يعم البلاد ، والحياة ميسورة ورخيصة الى حدود لايمكن تخيلها اليوم . فالمساكن ، وقد كانت متوفرة على سائر المستويات ، يبلغ ايجار الشقة الكبيرة والجميلة منها مابين جنيه واحد واثنين ، والمنزل الكامل من طابقين كان يبلغ ايجاره جنيهين الى أربعة . والشقق التى يسكنها الطلاب نحو خمسين أو ستين قرشا وهكذا. وكانت اقة العيش « وهى خمسة ارغفة » بقرش واحد . واللحم المجـالى الرطل باثنى عشر او خمسة عشر مليما . والضأن بقرشين ونصف . والبيض اربعة او خمسة بقرش واحد . وكنا ونحن تلاميذ بالمدرسـة الابتدائية يكفينا للافطار نصف قرش . وكان هذا ثمن سميطة كبيرة أو ربع رطل من البسبوسة الفخمة بالزبد ، ويكفينا لطعام الغداء قرش واحد للخبز والجبن الرومى والحلاوة الطحينية ، أو للطعميـة والباذنجان المقلى والسلاطة . وكان ثمن الرغيف الفرد ، وهو ضـعف رغيف اليوم مليمين ونصف . وكان هذا ما ننفقه كل يوم فى غدائنا ، لان المدرسة الابتدائية لم يكن بهـا غـذاء

للتلاميذ . وكذلك كانت الخضروات والفواكه كلها رخيصة بصورة مدهشة ، وعلى نفس المستوى . وكذلك كانت الملابس ، فقد كنا نشترى البدلة الصوفية من محلال ماير أو شتاين ، وقد كانا متجرى الملابس الرئيسيين ، بمبلغ لا يتجاوز جنيها ونصف أو جنيهين ، والحذاء من محل جستر الانجليزى اشهر محلات الاحذية يومئذ من خمسين قرشا الى جنيه ، وهلم جرا . وهى أحوال وأرقام لا يكاد يسيغها الخيال ، فى يومنا .

الدراسة العالية

لما اختتمت دراستى الثانوية وحصلت على شهادة البكالوريا فى صيف سنة ١٩١٤ ، كانت توجد ثمة مشكلة وظروف دقيقة حول التحاقى بالدراسة العالية . وكنت خلال دراستى الثانوية ، أتطلع دائما الى دراسة الحقوق، ومزاولة المحاماة ، التى كنت أشعر أنها مهنة نبيلة . ولم أكن ميالا الى الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا ومزاولة مهنة التعليم عدة من السنين . وكان معظم زملائى وفقا لشروطهـا يميلون الى الالتحاق بها . وكانت دراسة الحقوق فى هذا الوقت تكاد بنفقاتها الكثيرة ، تكون وقفا على الاغنياء وأولاد الذوات . وقد كان الأمر كذلك فى الواقع وكانت مدرسة الحقوق هى المعهد الذى يتخرج فيه الوزراء ، وأكابر الموظفين . وكنت لذلك أتوجس من عجز والدى عن امدادى بهذه النفقات . وكان المرحوم والدى فى الواقع غير ملتحق بعمل منظم وكان قد اشتغل حسبما تقدم ، مدة بتجارة الاراضى فى الضواحى ، وكان ذلك يدر عليه مكاسب مجزية . واستمر على ذلك حتى

جاءت الأزمة المالية المرهقـة فى سنى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و ١٩٠٨ . وفى سنة ١٩٠٨ توفى والده جدى المرحوم السيد عبد المطلب عرفه العنـانى ، وورث عنه خمسة افدنة . ولكنه لم يحسن التصرف فى شأنها فلم يحاول زراعتها أو تأجيرها ، بل عمد الى بيعها تباعا حتى ضاعت فى نحو عامين أو ثلاثة . وعنـدئذ عادت الأزمة ، وهو يعالجها من آن الآخر ببيع قطعة من الاراضى التى كان يملكها بصـحراء عين شمس ، وكان يقيم أحيـانا فى القاهرة ، وأحيانا فى قرية بشلا مسقط رأسى ، حيث كان لنا منزل ، وكانت المرحومة أمى تملك بها فدانين ، بقيا من ثروة أمها التى ورثتها ، وكانت تشتمل على نحو ثمانية عشر فدانا ، أضـاع معظمها الوصى عليها بحجة الانفاق على تربيتها . ولم يكن ايجار هذين الفدانين يزيد فى السنة على خمسة وعشرين أو ثلاثين جنيها ، وهو ما لا يمكن أن يفى بالمطلوب .

والخلاصة أننى صممت على دراسـة الحقـوق أو الالتحاق بمدرسة الحقوق السلطانية ، كما كانت تسمى يومئذ ، ووضعت عينى على هذين الفدانين المتبقيين من ملك والدتى . واضمرت أن أقنع والدتى ببيعها تباعا على أجـزاء صغيرة تفى بمصـاريف المدرسة ونفقاتى الخاصة . وكانت مصاريف الدراسة يومئذ نحو خمسين جنيها فى السنة ، منها ثلاثون لمصـاريف الدراسة ، والباقى رسوم المكتبة ، وأثمان الكتب ، ومقابل الغذاء أحيانا ، وهذا غير أجرة السكن والنفقات الشخصية ، ونفقات الانتقال الى الجيزة ، حيث نقلت المدرسة بعد السنة الأولى من التحاقى بها .

وقد نجحت فيما نويت . وكانت بداية بيع الأطيان

منذ السنة الثانية . وقد حزنت والدتى أشد الحزن ، وبكت بكاء شديدا ، حينما أرغمها المرحوم الوالد على بيع الفدان الأول ، ولكنها أدركت فيما بعد أنه لا مفر من الاستمرار فى امدادى بنفقات الدراسة ، واقتنعت بأن تسلمنى ختمها ، لأوقع به على عقود البيع كلما لزم . وكان المتسلط علينا فى الشراء جارنا الشيخ فلان تاجر الأقمشة بالبلدة ، وهو رجل فى منتهى الجشع والاستغلال . وكنت مضطرا الى معاملته ، لأنه هو الجار الملاصق ، وهو الوحيد الذى يقبل الشراء بهذه الصورة . وسارت الخطة فى طريقها ، ومضيت فى بيع الأرض تباعا على مدارستى الدراسة قطعة فأخرى ، وكانت آخر قطعة قدمت للبيع بعد أن انتقلت الى السنة الرابعة ، ولم يكن بينى وبين نوال الليسانس سوى بضعة أشهر .

وكانت مدرسة الحقوق تقع فى بنائها العريق ، بشارع حسن الأكبر ، وظهرها ملاحق لقصر عابدين . ولكنها لم تلبث أن انتقلت بعد دراستى للسنة الأولى الى الجيزة ، وكان لذلك مقدمة يجب تسجيلها .

اشتراكى فى اول حادث سياسى

فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩١٥ ، وكنت يومئذ طالبا حديثا بالسنة الأولى بمدرسة الحقوق ، حضرت الى المدرسة بعابدين مبكرا ، فرأيت فى القاعة الواقعة عند يمين مدخل المدرسة ، التى يوضع فيها البريد الوارد الى الطلبة ، كومة كبيرة متشابهة من الخطابات المجللة بالسواد ، ووجدت من بينها خطابا باسمى ، وداخله رقعة مطبوعة ، خلاصتها أن فلانا المحامى الكبير ، قد توفى الى رحمة الله ، وان الجنازة سوف تشيع من شارع

المناخ رقم ... ، ورأيت سائرا لزملاء يفدون على هذه الغرفة ، فيتناول كل منهم الخطاب الوارد باسمه ، ثم ينصرفون متتابعين فى اتجاه المكان المحدد . فسرت معهم . وكان المعروف أن هذا اليوم ، هو الذى تحدد لزيارة السلطان حسـين كامل لمدرسة الحقـوق فى برنامجه الموضوع لزيارة معاهد العلم . وسرنا زرافات الى شارع المناخ (عبد الخالق ثروت اليوم) وقصدنا الى الرقم المبين بالرقعة ، فاذا به رقم محلات جروبى للحلوى واختلطت بالزملاء ، وفهمت منهم أن هذه العملية قد رتبت كى ينصرف الطلاب جميعا عن المدرسة فى هذا الصباح الذى تحدد للزيارة السلطانية ، فيأتى السلطان ، وقد خلت المدرسة من معظم الطلبة . ونجح هذا الاضراب نجاحا كبيرا ، وخلت معظم الفصـول من الطـلاب . وأدرك السلطان والمسئولون ما حدث ، وقرروا توقيع العقاب على الطلاب الذين دبروا هذا الحادث ، والذين تغيبوا فى هذا اليوم . وفى الايام التالية جرى التحقيق مع سائر الطلاب المتغيبين ، وكنت ممن قدم للتحقيق أمام مدير مدرسة الحقوق يومئذ السير شلدون ايموس . فسألنى عن سبب تغيبى ، فاعتذرت بما اعتقدته واقعة صحيحة للاشتراك فى تشييع جنازة المحامى الكبير المتوفى . وانتهى الأمر بصدور أحكام الفصل ، والحرمان من امتحـان آخر السنة على عدد كبير من الطلاب ، وكنت ممن صدر الحكم عليهم بالحرمان من امتحان آخر السنة مع وقف التنفيذ . وهو أخف الاحكام التى صدرت . ثم صدر فى مارس عفو سلطانى من الطلبة المفصولين والمحرومين من الامتحان ، واستثنى منهم سبعة عشر طالبا ، هم الذين

اثبت التحقيق أنهم هم الذين قاموا بتحريض زملائهم على تدبير هذه المظاهرة ثم صدر القرار بعد ذلك بالعفو منهم ، وعادوا الى المدرسة فى العام التالى .

كان هذا الحادث هو أول عهدى بالمظاهرات السياسية . وقد كان من آثاره أن نقلت مدرسة الحقوق من مقرها القديم بجوار قصر عابدين الى مبنى آخر بالجيزة ، على مقربة من مديرية الجيزة ، وهو المبنى الذى شغله فيما بعد قسم الجغرآفيا بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وقد القى علينا الأستاذ الدكتور والتون مدير المدرسة الجديد ، بعد ان ترك السير ايموس هذا المنصب على اثر حادث المظاهرة ، قبيل الانتقال الى المبنى الجديد ، خطابا ممتعا يعزينا فيه عن ترك هذا المكان القديم للمدرسة . وجاء فى خطاب يومئذ « انه تحيط به الأساطير الغامضة » فأثار منا هذا الوصف تساؤلا وابتساما .

وكانت مدرسة الحقوق يومئذ تحت اشراف الأساتذة الانجليز ، والى جانبهم طائفة من الاساتذة الفرنسيين ، لأنها كانت تشتمل يومئذ على قسمين : قسم انجليزى ، وقسم فرنسى . وكنت بطبيعة الحال من طلبة القسم الانجليزى . وكان بين أساتذتنا الذين يتولون الدراسة لنا ، الدكتور والتون مدير المدرسة ، وكان يتولى دراسة القانون المدنى . وكان عالما ضليعا واسع المعرفة ، ممتع الشرح ، وأذكر أن مذكراته عن « التعهدات » وغيرها من الأقسام التى كنا ندرسها فى السنة الثانية من القانون

المدنى ، كانت تشغل نحو الف صفحة كبيرة . والى جانب الدكتور والتون ، كان الاستاذان جوبى وبنتوتشن، وهما يتوليا تدريس مقدمة القانون . والسير ملفيل ، ويتولى تدريس القانون الرومانى ، والاستاذ كلاى ، ويتولى تدريس القانون التجارى . ومن الاساتذة المصريين ، المرحومين الدكتور عبد الحميد أبو هيف ، والدكتور حسن نشأت ، والدكتور بهى الدين بركات .

وأما الاساتذة الفرنسيون ، فقد كان من بينهم أعلام مثل الاستاذ مونييه ، والاستاذ شقالى ، وكنا نتلقى عليهما القانون الدولى .

* * *

ومنذ بدأت دراسة الحقوق ، كانت الحرب العالمية الاولى ، قد بدأت منذ أوائل أغسطس سنة ١٩١٤ ، وكنا خلال دراستنا نتتبع أحداثها باهتمام شديد . وكنا نحبو ألمانيا بعطفنا منذ البداية . وكنا نثور حماسا كلما وقع تقدم أو انتصار جديد ضد انجلترا وفرنسا . وكنت اتقن بنوع خاص معرفة المواقع الجغرافية التى تجرى فيها المعارك أو يقع التقدم . ولما طال أمد الصراع ، وامتد خلال أعوام دراستى الأربعة ، أصبحت حوادث الحرب أمرا عاديا لا نعلق عليها كبير اهتمام ، حتى دخلت أمريكا الى جانب فرنسا وبريطانيا فى سنة ١٩١٧ ، بعد أن اشتدت خسائر الحلفاء فى السفن من جراء نشاط الغواصات الألمانية ، وأخذ الميزان منذ أوائل سنة ١٩١٨ يميل تباعا ضد ألمانيا . وعندئذ أخذنا نترقب انتهاء الحرب بهزيمة ألمانيا فى ذلك الصراع العالمى الخطير . وقد انتهت الحرب بالفعل فى نوفمبر سنة ١٩١٨ بهزيمة ألمانيا،

وتوقيعها للهدنة ، التى أقرت فيها بقبول سائر شروط الحلفاء القاسية .

ومما يجدر ذكره أنه فى أواخر أيام دراستنا للحقوق ، ونحن فى السنة الرابعة ، قام الملك فؤاد (السلطان فؤاد يومئذ) بزيارة مدرسة الحقوق ، وكانت زيارة هادئة ناجحة لم يشبها اضراب ولا تظاهر . والقيت بين يديه خطب وقصائد مديح . وفى نهاية الزيارة ، ألقى فينا كلمة موجزة بعربية أعجمية ، لا تكاد تفهم ، وعد فيها من حسن سيره من الطلاب ، بتحقيق آمالهم فى الوظائف وغيرها .

فى ميدان الحياة العملية

واتممت دراستى فى الحقوق فى صيف سنة ١٩١٨ بالحصول على شهادة الليسانس فى القوانين، وكان ترتيبى بين الناجحين الرابع عشر من ستة وثلاثين فيما أذكر .

وفى اغسطس سنة ١٩١٨ ، قدمت طلبى بالقيد فى جدول المحاماة . وقيدت محاميا بالمحاكم الجزئية . وكان قانون المحاماة فى ذلك الوقت يقضى بأن يمضى المحامى الناشىء عامين فى التمرين ، ثم يجوز امتحانا خاصا بمحكمة الاستئناف العليا ، للحصول على حق القيد فى جدول المحامين المشتغلين امام المحاكم الابتدائية .

وأمضيت عامى التمرين فى العمل فى المحاماة ، أولا فى ميت غمر وزفتى ، وترافعت فى عدد من القضايا فى طنطا والمنصورة . ثم قضيت العام التالى من التمرين فى أسيوط ، مشتغلا بمكتب الاستاذ محمد حامد جودة . وكان يومئذ من اعلام المحامين بأسيوط . ثم عدت بعد ذلك الى ميت غمر . وكان أول ما علمته أن تقدمت الى

الامتحان المقرر أمام محكمة الاستئناف بعد اتمام التمرين، وجزته بسهولة ، وتم قيدى بعد ذلك للمرافعة أمام المحاكم الابتدائية .

وبدأت عملى فى المحاماة فى مكتب مستقل بميت غمر ، وكانت تجربة لا بأس بها ، وكانت ناجحة بحمد الله . وكنت أتلقى كثيرا من القضايا من مختلف أنحاء ميت غمر، وغيرها من المناطق المجاورة ، وكان لنشاطى فى القضايا المدنية سمعة طيبة ، ورجع اتجاهى فى هذا الميدان ، على ميدان القضايا الجنائية .

وبالرغم من أن عملى كان يدر على ما يكفى للانفاق على نفسى ، وعلى أسرتى ، وكانت تقيم يومئذ فى قرية بشلا ، وكنت أقضى بها دائما آخر الاسبوع بمنزلنا الريفى ، وهى لا تبعد كثيرا عن ميت غمر ، فقد كانت تساورنى منذ البداية رغبة ملحة فى الانتقال الى القاهرة والعمل بها . ولم يكن يسرنى أن ابقى محاميا ريفيا يكتفى بلقمة العيش فى وسط محلى ، ليس به ما يشوق ، ولا يثير الاهتمام ، وكنت فيما بعد أقضى أيام أواخر الاسبوع دائما بالقاهرة ، واتصل فيها بأوساط المحاماة ، سواء بزملائى الذين كان من حظهم أن يبدأوا العمل بالقاهرة ، أو بأصدقائى من مختلف الطبقات ، الذين يعرفون ظروف الحياة بالقاهرة ، لنصائحهم فى هذا الشأن قيمتها .

واود ان أقول هنا أن ما قضيته من أوقاتى فى ميت غمر ، وفى قريتى بشلا ، ومع عائلتى المكونة من والدى وشقيقتى الصغرى ، أيام مزاولة حياتى المهنية الاولى ، لم يكن مملا ولا كدرا ، بل كانت تطبعه بالعكس بساطة ممتعة ، فميت غمر حسبما أشرت فى مكان آخر من أجمل مراكز القطن المصرى ، أن لم تكن أجملها جميعا . وهى

بكورنيشها الطويل على النيل العظيم ، واحيائها الفخمة، ومتاجرها الفنية ، ومقاهيها ومطاعمها وفنادقها الانيقة، وتوفر السلع الغذائية والفواكه الممتازة بها طوال الفصول، تكفل لسكانها الحياة الرغدة . ولقد كنت فى الواقع استمرىء الحياة فى هذا البلد الجميل الساحر . ولم تكن اوقاتى فى القرية بأقل بهجة ومتاعا ، فان بلدى ومسقط راسى بشلا من اجمل القرى النموذجية ، التى يشتهر بها مركز ميت غمر ، مثل صهرجت الكبرى ، وكوم النور ، ودنديط ، ودماص ، واوليلة وغيرها من القرى الكبيرة العامرة . وبشلا قرية كبيرة من حيث الحجم ، متسعة الجوانب ، وتحتوى على كثير من المبـــانى والفيلات الفخمة ، ولم يكن سكانها يقلون يومئذ عن عدة آلاف من الانفس . وقد كنا نملك بها منزلا متواضعا من طابق واحد . وبه مندرة وفناء للاستقبال ، وثلاث غرف اخرى والمرافق . وكانت بشلا كما هى اليوم تتمتع بمركز اجتماعى محترم ، وهى تضم مدارس أولية ومدرسة ابتدائيـة واخرى ثانوية ، انشأها أهلهـا من أموالهم الخاصـة ووضعت تحت اشراف الوزارة . وفيها كثير من المتعلمين وحملة الشهادات العليا . وقد اشتهرت بالأخص بمن يزاولون من اهلها اعمال المقاولات العـامة ، وما تزال بها اليوم طائفـة محترمة منهم . وهى تتمتع بمستوى مشكور من الرخاء واليسر ، وتحتوى على كثير من المتاجر والخيرات والموارد الغـذائية والفـواكه ، ولم اكن أيام اقاماتى بها ، سواء فى أواخر الاسبوع أو الاعياد ، اشعر بأى قصور أو نقص فى اى مطلب أو رغبة منزليـة أو تموينية . هذا فضلا عن انى كنت فى آخر الاسبوع حين مقدمى اليها من ميت غمر احمل معى الكثير من اللحم

والحلوى والفاكهة ، والخلاصة انى كنت سعيدا بهذه الأيام التى كنت أقضيها فى مسقط رأسى ، بين أهلى ومواطنى .

بيد أنه كانت تحدونى الى جانب هذه الرغبة ، فى ترك الوسط الريفى ، آمال غامضة فى مزاولة العمل الصحفى، وأود قبل أن أطرق هذا الموضوع ، أن أقرر أن ميلى الى الكتابة ، كان يساورنى منذ كنت طالبا بالدراسة الثانوية، وكنت من آن لآخر أكتب بعض المقالات ، فى صحيفة « الشعب » ، التى كان يصدرها المرحوم أمين بك الرافعى . ولما التحقت بدراسة الحقوق ، كان هذا الميل يزداد عندى باضطراد ، وقد ظهر يومئذ فى قيامى بترجمة بعض أقاصيص ديماس الصغيرة ، من مجموعة « الجرائم الشهيرة » Crimes Celebres ، فترجمت منها قصة Jeanne de Naples ، ونشرتها بعنوان « جرائم نابولى » . وترجمت عن الانجليزية جزءا صغيرا من كتاب السير ريتشارد لودج History of Modern Europe ونشرته بعنوان « تاريخ أوربا الحديث » (١٩٢٤) .

وترجمت فى بداية مزاولتى للمحاماة بميت غمر قصة فرنسية كبيرة للكاتب الفرنسى زاقييه دى مونتبان بعنوان « قلنسوة الذهب » Casque d'or ، فقام بنشرها المرحوم مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ، وكان من أنشط الناشرين فى هذا الوقت . وترجمت قصة أخرى عن الفرنسية أيضا نشرتها مجلة الروايات الجديدة بعنوان « المجرم البرىء » . وقد كان ذلك كله متنفسا لأمنيتى الدفينة ، وهى الاشتغال بالصحافة ، والأدب . وكنت فى الوقت نفسه أشتغل بتعلم اللغة الألمانية على

طريقة « هوجو » الانجليزية ، وأتقدم فى ذلك بسرعة ، واتلقى بعض الصحف الالمانية من برلين ، وأمارس قراءتها ، ولا سيما جريدتى Berliner Tageblatt وجريدة Deutsche Allgemeine Z ، وكان العدد الواحد من هذه الصحف يحمل يومئذ من أجر البريد طوابع بمئات ألوف المارك ، اذ كانت المانيا يومئذ (فى سنى ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢) فى حالة انهيار اقتصادى مطبق . وقد كان لتعلمى اللغة الالمانية يومئذ ، واتقانى لها فيما بعد ، أثر بعيد فى تعميق صلتي بالثقافة والآداب الالمانية ، وفى صقل مقدرتى فى الترجمة عن كثير من أكابر الكتاب الالمان مثل هنريش هينه ، وهوتمان ، وشيتفان زفايج ، وارنولد زفايج وغيرهم ، وقراءة الكثير من المصادر التاريخية الالمانية ، والوقوف على اتجاهات الصحافة الالمانية ، وعلى تطورات السياسة الالمانية المعاصرة ، ولا سيما منذ ظهرت الحركة الهتلرية فى المانيا، وما ترتب على ذلك ، من زياراتى العديدة لألمانيا سواء قبل الحرب العالمية الثانية أو بعدها . وما زلت اذكر اول مقال قمت بترجمته عن الصحافة الالمانية ، وهو مقال نشر فى جريدة B. Tageblatt عنوانه Eine Hochschule fur Politik أعنى « مدرسة عليا للسياسة » . وخلاصته أن الالمان يجب أن يتعلموا السياسة فى مدرسة عليا ، لأن النقص الذى كان يعانيه الساسة الالمان ، خلال الحرب الكبرى ، كان من أسباب هزيمة المانيا . ولابد أن يتلقوا دروسا فى السياسة العليا . فقمت بترجمة هذا المقال ، وكان اول ما ترجمت من الفصول الالمانية الجادة ، وأرسلته الى المرحوم

الاستاذ محمود عزمى ، وكان يشرف يومئذ على تحرير جريدة « مصر » لكى ينشره بها ، فقام بنشره فى مكان بارز تحت العنوان السابق ، وكان مقالا قويا ممتعا ، واذكر أن ذلك كان فى سنة ١٩٢٠ . وكانت هذه أول محاولة منى للاتصال بالصحافة وبداية ظهور اسمى فى صحف العصر . وقد اتصلت يومئذ بالاستاذ عزمى ، وتعرفت به ، وكنت أعجب بمقالاته أينما نشرت . وبعد ذلك بقليل قام الاستاذ عزمى باصدار جريدة خاصة به تحت عنوان « الاستقلال » ، وطلب منى أن أمده بما استطعت من مقالات . وعرضت عليه يومئذ ان ينشر لى رواية كنت قد شرعت فى ترجمتها وهى من تأليف اسكندر دوماس ، وعنوانها بالفرنسية : Le Chevalier d'Harmental فقبل أن ينشرها بجريدته فصولا يومية تحت عنوان « المتآمرون » . وفى اثناء ذلك تغيب الاستاذ عزمى فى الخارج بعض الوقت ، وقام مكانه فى رياسة تحرير الجريدة صديقه المرحوم الدكتور طه حسين ، وكان يومئذ قد عاد من فرنسا الى مصر بعد اتمام دراسته وحصوله على درجة الدكتوراه من السوربون . وكان هذا أول اتصال بينى وبين الدكتور طه وأول معرفتى به . ولكن الاستقلال لم تمكث طويلا ، لانها لم تكن من الصحف المنتشرة ، وكانت تصدر بمعاونة الحكومة ، وتتجه الى سياسة عدلى يكن باشا وجهوده فى الاتصال بالحكومة البريطانية فى شأن تحقيق الأمانى المصرية فى الاستقلال . ولكنى مع ذلك بقيت على صلتى بالاستاذ عزمى ، لأنى فوق ما كنت أحمله له من التقدير والاعجاب كصحفى نابه ، كنت آنس الكثير من أدبه ووافر مجاملته

وتشجيعه ، كما أني تلقيت الكثير من تجاربه وتوجيهاته الصحفية النافعة .

وقد شجعتني هذه البـــدايات الادبية والصـــحفية على الانتقال مع أسرتي من بشلا حيث كانت اقامتنامنذ تخرجي من مدرسة الحقوق ، الى العاصمة ، حيث استأجرنا شـقة في حي السيدة زينب في أحد الشوارع المتفرعة من شارع زين العابدين ، وكان ذلك حسبما أذكر فى سنة ١٩٢٣ ، ومن ذلك التاريخ كانت القاهرة المعزية مســـتقري ومحل اقامتي • ولكنى احتفظت بمكتبى فى المحـــاماة بميت غمر بضعة أعوام أخرى ، لان المحـــاماة كانت ما تزال في ذلك الوقت هى مصــدر كسبى الرئيسى ، وكان نشـــاطى فى المحاماة يشمل ميت غمر والمنصورة وزفتى • وكان يعمل فى المحاماة بالمنصورة ، التى هى مقر القضاء الابتدائى ، عدة من أعلام المحـــامين ، وكانت تربطنى علائق مهنية بنوع خاص بالأستاذين المرحومين ، عبد الوهاب البرعى ، وعبد الرحمن الرافعى ، وكانت المنصورة مركز نشاطه المهنى مدى أعوام ، وقد توثقت علائقى معه تباعا ، حتى غدا بمثابة أستاذى فى المحاماة ، كما غدا فيما بعـــد ، وهو أبرع مؤرخى العصر ، أستاذى فى التاريخ •

وعقب اختفاء جريدة الاســتقلال ، اتصـــلت بجريدة « الافكار » ، التى كان يشرف عليهـــا يومئذ الوطني الكبير والنائب المرموق المرحوم عبد اللطيف الصوفاني ، وقد كنت أقرأ الكثير عنه ، وعن نشـــاطه البارز في الجمعيــة التشريعية • ولكنى تركت الاتصـــال بالأفـــكار بعد فترة قصيرة لما آنسته من اضطراب أحوالها ، وضـــعف مكانتها الصحفية •

ثورة سنة ١٩١٩

ويجدر بى أن أقف هنا قليلا • وقبـل أن أمضى فى سرد بقية قصتى فى محاولة النزول الى ميدان الصـحافة ، لكى أقدم صورة سريعة من الثورة الوطنية الغـامرة التى نشبت فى سنة ١٩١٩ ، أثناء عملى فى المحاماة بميت غمر ، وشهدت الكثير من حوادثهـا فى القاهرة والاقاليم ، وان كانت قد دونت مقدماتها وأحداثها فى كتب ومصادر عديدة ، أهمها وأغزرها كتاب أستاذى وصديقى العلامة المؤرخ الكبير المرحوم عبد الرحمن بك الرافعى « ثورة سنة ١٩١٩ . تاريخ مصر القـومى من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ » (القاهرة ١٩٤٦) .

وقد بدأت هذه الثورة ، كما هو معروف ، عقب انتهـاء الحرب العالمية الاولى ، فى نوفمبر ١٩١٨ ، وتأليف الوفد المصرى برياسة المرحوم سـعد زغلول باشـا فى نفس هذا الشهر للسعى الى المطالبة بالاستقلال ، والسـفر من أجل ذلك الى أوربا ، وابلاغ صوت مصر الى الحكومة البريطانية • والى الدول والهيئات الدولية الصديقة • وقد نظمت من أجل ذلك حركة واسعة النطاق لتزويد الوفد المصرى بالتفويض القومي اللازم ، وقامت سائر الهيئـات فى طول البـلاد وعرضها ، بتوقيع التوكيلات المقدمة اليهـا لهذا الغرض ، وفى مقدمتها هيئة المحامين ، وقد كانوا طلائع الثورة الاولى ، وكنت ممن وقع عريضة التوكيل المشـار اليه مع زملائى محامي ميت غمر • ولكن السلطات البريطانية ، وقد كانت مصر يومئذ تحت الحكم العسكرى البريطـانى ، لم تستجب

لطلب الوفد بالسفر الى الخارج • ولما ألح الوفد في طلبه ، وتابع تقديم العـــرائض بذلك الى دار الحمـــاية ، وقدم احتجاجاته الى معتمدى الدول ، انتهت دار الحمـــاية بانذار الوفد ، ثم بالقاء القبض على رئيسه ســـعد زغلول باشـــا وثلاثة من أعضائه ، هم محمد محمود باشا ، واســـماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا ، واعتقلتهم بثكنات قصر النيـــل ، ثم بعثت بهم الى جزيرة مالطة ، التى اختـــارتها لنفيهم واعتقالهم وكان ذلك فى يومى ٨، ٩ مارس سنة ١٩١٩

وكان هذا الاجراء التعســـفى البغيض نذيرا باضطرام الثورة ، فثارت روح السخط فى كل مكان ، وبدأت الثورة باضراب طلاب سائر المدارس ، وطلاب الازهر ، وألفوا أول مظاهرة وطنية كبرى ، اخترقت شوارع القاهرة ، وانضمت اليها جموع غفيرة من الجماهير • وعطلت المواصـــلات ، وبدأت الدوريات الانجليزية تعترض المتظـــاهرين وتطلق عليهم الرصاص ، وبدأ الشـــباب يتساقط تحت رصاص الانجليز منذ اليوم الحادى عشر من مارس والايام التـــالية ، حيث استمر تنظيم المظاهرات وسيرها • وفى نفس الوقت أعلن المحامون احتجاجهم واضرابهم منـــذ يوم ١١ مارس ، وسجلوا أمام سائر الدوائر القضائية اضرابهم وامتناعهم عن المرافعة . ونظمت السيدات مظاهرة كبرى (١٦ مارس) اشترك فيها العديد من كرام العقائل • ولما اجتمعن بشـــارع سعد زغلول باشا ، حاصرتهن قوة بريطـــانية ، ومنعتهم من التحرك ، وبقوا زهاء ساعتين تحت الشمس المحرقة •

وكان لهذه الاحداث أعظم صدى فى سائر المدن والاقاليم، فنظمت المظاهرات فى الاسكندرية وســـائر المدن الكبرى •

وقام المتظاهرون بقطع خطوط السكك الحـديدية ، وتدمير المحطات فى كثير من المواضـــع • وانذرت الســـلطات البريطانية بأنها سوف تقوم باحراق القـــرى القريبة من الاماكن المدمرة • ثم أصـــدرت أوامرها بعدم التجـــول من الساعة الرابعة صباحا ، ومنع انتقال سكان القرى من قرية الى أخرى منذ غروب الشمس الى شروقها •

ثم أضرب عمال الترام فى العاصـــمة ، وأضرب ســائقو السيارات والحوذية ، واضطربت المواصـــلات بين القاهرة والاقاليم ، ووقفت معظم الخطوط الحـــديدية عن السير • وكان لحوادث الأقاليم ، وانتشار الثورة والمظـــاهرات فيها من أقصاها الى أقصاها ، صـــدى عميق فى العاصـــمة ، فاشتدت المظاهرات فى كل مـــكان ، بالرغم مما اتخـــذته السلطات من اجراءات لمقاومتها • وكان الجـــامع الازهر من أنشط مراكز الثورة ، وأكثرها التهـــابا • وكانت تبدأ منه المظاهرات بانتظام • وبالرغم مما قامت به سلطات الاحتلال من وضع الدوريات المسلحة حول مخارجه ، فان المظـــاهرات كانت تقتحم كل عائق • بل ان الازهر لم يلبث أن غدا قلب الحركة الثورية فى العاصمة ، وغدا فى نفس الوقت ، ملتقى رجال الدين المسلمين والاقباط ، ومجمعـــــا وثيقا لشطرى الامة الشقيقتين ، يتعانق فيه الشـــيوخ والقســـاوسة ، ويخطبون بالتوالى من منابره ، لبث الثورة الوطنية ، وتدعيم روح الاخاء القومي • ولقد شهدت بنفسى من ذلك منـــاظر رائعة • ولم يك ثمة شك فى أن تدعيم الوحـــدة القومية على هذا النحو ، كان له أعظم الاثر فى اضرام روح العزم والاقدام فى الجماهير الثائرة •

واســـتمرت المظـــاهرات الوطنية بلا توقف ، وكان من

اعظمها انتظاما ووقارا ، مظاهرة ١٧ مارس الكبرى ، التى سمحت بمسيرتها السلطات العسكرية ، وتقدمها حكمدار العاصمة اللواء رسل باشا • وكان ينتظم فيها عشرات الألوف • وقد طافت بسائر شوارع القاهرة الكبرى ، واستمر سيرها عدة ساعات ، وانتهت دون حوادث ذات شأن •

وكثرت المظاهرات فى مختلف المدن والاقاليم ، واشتدت موجتها ، وبعثت السلطات العسكريةودورياتهاالمسلحةالى عدد من المدن ، لكى تحاول وقف هذا التيار الجارف عند حده • وأطلق الجند الانجليز الرصاص على الجماهير فى كثير من الاماكن ، وسقط شهداء عديدون فى أنحاء عديدة ، مثل المنصورة ، وبلدتى ميت القرشى ودنديط مركز ميت غمر ، وفى الفيوم ، وأسيوط ، وديروط ، وغيرها • وكثرت جنائز الشهداء فى القاهرة والاقاليم ، وكانت مسيرتها تزيد الشعور اضطراما والتهابا •

ولقد شهدت بنفسى الكثير من هذه المناظر الوطنية العظيمة المؤسية معا ، واشتركت فى كثير من المظاهرات ، وكنت معظم وقت الثورة مقيما بالقاهرة ، واشتركت بالاخص فى مظاهرة المحامين الكبرى بالقاهرة ، وقد سار فيها المحامون ، وهم يرتدون روبات المهنة ، فكان منظرا جليلا ، وكانت مظاهرة ذات طابع وطنى مؤثر •

ووقعت حوادث عديدة استطاع المتظاهرون فيها أن يقتلوا جماعات مختلطة من الضباط والجنود الانجليز فى القاهرة ، وغيرها من نواحى الاقاليم • وكانت السلطات البريطانية كلما وقع حادث من هذه الحوادث ،تضاعف اجراءات القمع والفتك بالمتظاهرين •

واستمرت حوادث الثورة على هذا النحو فترة أخرى خلال شهر أبريل ، وارتكب الجند الانجليز خلال ذلك الكثير من حوادث القتل والتعذيب ، فى كثير من المدن والقرى ، فى الوجه البحرى والصعيد •

وكان من أحداث الثورة في هذه الفترة اضراب الموظفين • ثم تلا ذلك اضراب التجار وأصحاب الحرف والمهن الحرة • واستمر اضراب الموظفين وقتا بالرغم من مطالبة رشدى باشا رئيس الوزارة الوطنية الجديدة لهم بالعدول عنه تفاديا للاضطراب والبلبلة ، واهدار المصالح العامة ، وهو ما اضطر رشدى باشا الى الاستقالة • وعلى اثر ذلك انهى الموظفون اضرابهم ، ثم تلاه قرار المحامين بالعودة الى أعمالهم • وقرار عمال العنابر والترام وغيرهم بالعودة كذلك الى العمل • وكان ذلك فى أواخر شهر أبريل •

****

ونحن نقف عند هذه الصور السريعة من أحداث ثورة سنة ١٩١٩ ، ونحيل القارىء الى قصتها الكاملة ، مسرودة بمراحلها المتتابعة ، بقلم أستاذنا المؤرخ الجليل عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه الجامع (ثورة سنة ١٩١٩) •

وفى أثناء ذلك اضطرت بريطانيا ، على اثر تفاقم الحوادث ، واستمرارها بمصر ، الى تعيين الجنرال اللنبى مندوبا ساميا لمصر مكان السير ونجت ، ليعالج الحالة ، ويعمل على تهدئة البلاد • وكان أول ما عمله ، أن أصدر قرارا بالافراج عن سعد باشا ، وزملائه فى السابع من أبريل ، وأصدر بلاغا قال فيه : ان جميع المصريين أحرار فى مغادرة البلاد الى حيث شاءوا •

ثم كان سفر سعد باشا وعدد من أعضاء الوفد المصرى الى أوربا . وكان من أولى الصدمات التى تلقاها الوفد ، وتلقتها مصر ، ما انتهى اليه مؤتمر الصلح الذى كان ينعقد عندئذ فى فرساى ، من النص ضمن شروط الصلح على اعتراف المانيا بالحماية التى أعلنتها بريطانيا على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وهو ما قام الوفد بالاحتجاج عليه ، وتقييده فى مذكرة بعث بها الى رئيس مؤتمر الصلح المسيو جورج كليمنصو ، رئيس الوزارة الفرنسية .

وتلا ذلك ندب الحكومة البريطانية للجنة يرأسها اللورد ملنر وزير المستعمرات ، لكى تقوم بتحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت بمصر ، وتقدم تقريرها عن الحالة ، وما يجب وضعه من النظم التى تصلح ، فى ظل الحماية لتحقيق أسباب السلام والرخاء واليسر (سبتمبر سنة ١٩١٩) وقد أثار ندب هذه اللجنة الاستعمارية بمصر سخطا عاما ، ونظمت للاحتجاج على قدومها مظاهرات عديدة ، وتكررت الحوادث المؤسفة من اطلاق النار على المتظاهرين ، ووقوع الضحايا فى القاهرة والاسكندرية ، واضطرت وزارة سعيد باشا ، التى كانت فى الحكم يومئذ ، أن تقدم استقالتها .

ووصلت لجنة ملنر الى القاهرة فى أوائل ديسمبر ، فقابلتها الهيئات المختلفة بالاحتجاج والانكار لمهمتها الاستعمارية ، وقاطعتها سائر الهيئات ، وأعلنت اللجنة فى بيان أصدرته انها قدمت لاجل التوفيق بين أمانى الامة المصرية والمصالح الخاصة البريطانية ، ودعت اللجنة سائر الهيئات والاشخاص أن يمدوها بآرائهم .

ولكن لجنة ملنر لقيت فى مصر سخطا عاما ، وانكارا تاما

لمهمتها ، فعادت الى انجلترا ، وبعثت الى الوفد المصرى ، وهو في باريس ، تطلب اليه ، أن يقدم الى لنـدن لمفاوضـتها ، وأكدت له ، أنها سوف تكون مفاوضـة حرة ، دون قيد ولا شرط • فاستقر رأى الوفد يومئذ على قبول الدعوة • والتقى باللجنة فى لندن • واسفرت المفاوضـات بين الفريقين عن وضع مشروع معاهدة بين مصر وانجلترا ، قدمه اللورد ملنر الى الوفد ، فرفضه وقدم سعد باشا الى اللورد ملنر مشروعا آخر بانهاء الحماية ، وجلاء القوات البريطـانية عن مصر • فرفضت اللجنة قبوله • ووضعت اللجنة مشروعا أخيرا من عندها ، ينص على أن تعقد معـاهدة بين مصر وبريطـانيا العظمى ، تعترف فيها بريطانيا باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ، وتمنح بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصون مصالحها الخاصة ، وتعقد بمقتضى تلك المعاهدة محالفة بين مصر وبريطانيا ، تتعهد بريطانيا بمقتضاها ان تعـاون مصر على الدفاع عن سلامة أرضها ، وتمنح بريطـانيا الحق فى ابقاء قوة عسكرية بمصر لحماية مواصلاتها ، وتنقل بمقتضى هذه المعاهدة حقـوق الدول الاجنبية بمصر الى الحـكومة البريطانية •• الخ • وعرض الوفد المشروع على الامة لابداء رأيها فيه ، واتفقت آراء معظم الزعماء والهيئات على اعتباره حماية مقنعة ، ورفض قبوله أساسا للاتفـاق بين بريطانيا ومصر •

وانتهى ذلك كله بالتقرير الذى وضـعه اللورد ملنر عن مهمته، وهو يلخص حل المسألة المصرية على النحو الآتى(١) التوفيق بين أمانى مصر فى الاستقلال ومصـالح انجلترا الجوهرية فى مصر ، ومصالح الاجانب فيها (٢) تسترشد مصر ببريطانيا فى علاقاتها الخارجية ، (٣) يكون لبريطانيا

الحق فى ابقاء قوة عسكرية بمصر لحماية سلامة مواصلاتها الامبراطورية (٤) يكون لبريطانيا مراقبـــة على التشريع المصرى والادارة المصرية فيمـا يختص بمصـــالح الاجانب المشروعة . (٥) تترك انجلترا لمصر شئونها الداخلية ، فيما عدا ذلك ، تتولاها بنفسها (٦) يستبعد السودان اطلاقا من هذه التسوية .

ثم تلا ذلك تبليغ اللورد اللنبى الى السلطان فؤاد (الملك فيما بعد) ابان تعيين مصر وفدا رسميا للشروع فى تبـادل الآراء مع الحكومة البريطانية فيما يختص بالاتفاق السنوى عقده ، وان الحكومة البريطانية قد قبلت التساهل فى أمر الغاء الحماية قبل المفاوضات الرسمية .

واعقب ذلك تأليف وزارة عدلى باشا التى سميت « وزارة الثقة » فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ ، وقامت هذه الوزارة بالمفاوضات مع الحكومة البريطـــانية . ولم تحقـــق هذه المفاوضات بالطبع مطالب مصر وأمانيهـا ، وانتهى الامر بأن أصدرت الحكومة البريطانية من جانبهـــا ، فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، تصريحها المشهور ، وهو الذى أقره البرلمان الانجليزى ، وفيه تعلن الحكومة البريطـانية ، انتهـاء الحماية البريطـانية على مصر ، وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتسجل احتفاظها المطلق بتولى الأمور الآتية :

(١) تأمين المواصلات الامبراطورية فى مصر .

(٢) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل اجنبى بالذات أو بالواسطة .

(٣) حماية المصالح الاجنبية فى مصر وحماية الاقليات.

(٤) السودان .

وبالرغم من أن تصريح فبراير لم يحقق امانى الامة كاملة ، فقد كان مع ذلك أول خطوة عملية فى وضع اسس الاستقلال المصرى ، وكان فيما بعد منطلق المعاهدة البريطانية المصرية ، التى عقدت بين البلدين فى سنة ١٩٣٦ ، والتى كفلت لمصر استقلالها التام ، وسيادتها الفعلية ، التى استكملت فيما بعد بالغاء الامتيازات الاجنبية فى سنة ١٩٤٩ ، ثم جلاء القوات البريطانية ، بعد ذلك ببضعة أعوام .

* * *

ونود ، بعد أن قدمنا هذه الصورة السريعة من ثورة ١٩١٩ ، حسبما عاصرناها وشهدناها ، أن نقول أن هذه الثورة ، كانت أعظم ثورة قامت بها مصر الحديثة ، وانها لم تكن ثورة طبقية ، أو مقتصرة على طوائف معينة من الأمة ، بل كانت ثورة وطنية عامة شملت طبقات الشعب المصرى بأسرها من الفلاح ورجل الشارع الى أعلى الطبقات الراقية والميسورة ، والطبقات المثقفة والمفكرة على اختلاف أصنافها ، وجمعت هذه الطبقات كلها فى صعيد واحد حول المطالب الوطنية . وكانت غايتها الاساسية والكبرى تحرير البلاد من ربقة الحكم الأجنبى، وتحقيق استقلالها ، وسيادتها القومية ، وجلاء القوات الاجنبية عن أراضيها ، وما من شك فى أن ثورة سنة ١٩١٩ كانت هى أول خطوة حقيقية وعملية فى تحقيق هذا الهدف . وكل ما وقع بعد ذلك من مراحل الاستقلال ، كان من نتائجها الايجابية .

وما يجب التنويه به فى صدد المقارنة بين هذه الثورة الوطنية الكبرى ، وبين ما وقع فى سنة ١٩٥٢ ، هو أن

الانقلاب الذى وقع سنة ١٩٥٢ ، كان انقلابا عسكريا فقط ، ولم يكن ثورة شعبية ، ترتب عليه قيام الدكتاتورية العسكرية بمصر ، وابعاد العناصر المدنية ، التى تتولى حكم الشعوب عادة عن الحكم . وافنائها بالتدريج حتى يبقى للعسكرية سلطانها المستمر الذى لا ينازع فيه . وفى ظل هذه الدكتاتورية العسكرية ، وقع ما يسمى بالثورة الاشتراكية ، التى تقوم على نهب أموال طبقات، واعطائها لطبقات أخرى ، وتقرير سيادة الكتلة العاملة بطريقة دستورية ، واثارة بغض الطوائف بذلك بعضها لبعض بصورة حادة ، لم تعرفها مصر من قبل قط ، حيث كانت سائر طبقات الأمة وطوائفها تعيش فى مودة وتحاب ، وتحفظ كل منها للأخرى مكانتها وحقوقها وامتيازاتها . وهذا ما سوف نعرض اليه فيما بعد بتفصيل وافاضة .

الحركة الكمالية

وثمة حركة أخرى كان لها صداها القوى فى مصر ، وقد وقعت أيضا ، وقت أن كنت أزاول مهنتى بميت غمر . وذلك أن الحرب قد نشبت فى سنة ١٩٢٥ بين تركيا واليونان . وكانت اليونان ، قد بدأت عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بغزو الاناضول ، وكانت تركيا يومئذ محطمة مهيضة الجناح ، لا تستطيع مقاومة فعالة . ولكن شاءت الظروف أن يتقدم يومئذ لقيادتها مصطفى كمال ، الذى بزغ نجمه فيما بعد . وأضحى زعيم تركيا الحديثة ومصلحها . فالتفت حوله قوى المقاومة ،

واستطاع أن يحصل على معاونات كثيرة من روسيا ، سواء فى السلاح والعدة ، أو الأقوات . ولم يلبث ان انقلب الميزان ، ورجحت مقاومة تركيا ، وأخذت اليونان بضغط المقاومة التركية من جهة ، وضغط السياسة الدولية من جهة أخرى ، تنسحب من الأراضى التركية شيئا فشيئا . وقد كنا يومئذ فى مصر ، وفى مجتمعنا بميت غمر ، نعطف أشد العطف على تركيا ، وعلى المقاومة الكمالية ، وكنا نبذل جهودا متواصلة ، شملت سائر طوائف الشعب لمعاونة تركيا بالأموال والأدوية وغيرها ، فرحين بتقدمها فى تحرير أرضها ، والانتصار على عدوها التاريخى . وكنا سواء فى المجتمع أو فى الصحافة ، نبدى أشد الاعجاب بمصطفى كمال قائد تركيا الحديثة ومنقذها، ولم نكن ندرى يومئذ أن هذا الزعيم ، سوف يتنكر بعد ذلك ، وبعد أن اشتد ساعده ، للاسلام والعالم الاسلامى ، واللغة العربية ، لغة القرآن ، ويعمل جاهدا لمقاومة تراث الاسلام والعربية فى تركيا ، ويصدر مختلف القوانين للحد من آثاره ، ويأمر بالغاء معظم الكلمات والأصول العربية التى أستعارتها اللغة التركية ، واستبدالها بكلمات أوربية حيثما اتفق ، والغاء الكتابة العربية للغة التركية ، واستبدالها بحروف لاتينية ، والغاء الأذان بالعربية ، ثم الغاء الشريعة الاسلامية ، التى كانت تقوم فى تركيا مدى عصور على أساس الفقه الحنفى ، واستبدالها بتشريعات أوربية حديثة ، الغيت فيها سائر الاعتبارات الدينية ، وسمح بمقتضاها للمرأة التركية المسلمة أن تتزوج بنصرانى ، بل لقد ذهبت العصبية الكمالية فيما بعد الى محاولة الغاء الصلاة

الاسلامية كلية ، واستبدالها بصلاة الوقوف بالاحذية في المسجد ، ومتابعة الموسيقى على نحو ما يتبع في الكنيسة النصرانية ، لولا ما أثارته هذه المحاولة الجريئة من السخط في سائر أنحاء العالم الاسلامي . والخلاصة ان الحركة الكمالية التي حيوناها في البداية بفيض حبنا واعجابنا ، انتهت بمختلف المحاولات الى فصل تركيا عن العالم الاسلامي ، ومخاصمة سائر الأمم الاسلامية ، ومحاولة الاندماج في العالم الاوربي النصراني ، وهو ما لمعنا الى كثير من تفاصيله فيما بعد ، فيما كتبنا ، عما شاهدناه ودرسناه بأنفسنا خلال زيارتنا لتركيا الكمالية في سنة ١٩٢٧ . ولم تحاول تركيا تغيير هذا الجنوح الصارخ الى مخاصمة العالم العربي والاسلامي ، الا في الأعوام الاخيرة ، تحت ضغط الظروف والعوامل المختلفة، وتحت ضغط مصالحها المتدهورة . ونحن نعلم من تاريخ تركيا الحديثة ، أنها تسير مع سياسة الأخذ والعطاء من مختلف الدول ، ومبدؤها سياسة الانتفاع والكسب ، بقطع النظر عن اية اعتبارات أدبية أو اخلاقية ، ووفقا لهذا المبدأ ، فقد كانت منذ البداية من الدول ذات العلائق الودية والتجارية الوثيقة مع اسرائيل .

قصة الحزب الاشتراكي

ولابد لي أن أعقب هنا على ذكر حادث سياسي اشتركت فيه ، وكاد يحملني الى التيار الحزبي والسياسة المحلية، وهو ما اجتنبته دائما ، وأحذر ما استطعت من التورط فيه .

ففي سنة ١٩٢٠ ، اجتمعت مع صديقي الدكتـــــور علي العنـــــاني الاستاذ بمدرسة دار العـــلوم ، وكنا نشعر بالتعاطف المشترك لانتسابنا معا الي الأسرة العنانية الكبرى ، وكان قد عاد حديثا من بعثة علمية طويلة ، قضاها في المانيا خلال الحرب العالمية الاولي وبعدها ، والاستاذ سلامة موسي وقد كان يومئذ كاتبا معروفا ، تقرأ مقالاته في مجلة الهلال وغيرها من المجلات والصحف، وتحدثنا في وجوب القيام بعمل ايجابي في أعقاب الثورة الكبرى ــ ثورة سنة ١٩١٩ ــ الي جانب الجهـود التي تبذل في سبيل تحقيق أماني مصر في استرداد حريتهـا وتحقيق استقلالها . واقترح الاستاذ سلامة موسي حسبما اذكر أن نؤسس حزبا اشتراكيا ، لأن هـذا النوع من الاحزاب لم يكن قد عرف بعد في مصر ،و أيدناه في ذلك انا والدكتور العناني وكان ذا نزعة اشتراكية حملها معه من المانيا . واتفقنا على أن نصدر في ذلك بيانا يعلن فيه هذه الفكرة ، وما ترمي اليه من العمل على تأييد قضية الحرية والاستقلال . وقد صدر هذا البيان بعد أن قمت انا بتحريره واشترك معي زميلاى في تنسيقه وتعديله الى الصيغة المرغوبة ، ونشر في الصحف الكبرى مذيلا بتوقيعنا ، واتفق على أن أتولى سكرتارية الحزب المذكور حتى يتم انشاؤه .

واليك نص البيان المذكور :

« ويحمل البيان حملة شديدة على الاستعمارالبريطاني، واعتدائه على استقلال مصر ، واخضاعها لسيادته،وكذلك على اعتدائه على السودان ، تبعا لهذا الاعتداء ، ويطالب بريطانيا برفع سيادتها عن مصر ، ورد استقلالها اليها ،

ويطالب فوق ذلك بأن ترفع بريطانيا يدها عن وادى النيل كله بمصره وسودانه ، وينذر السياسة البريطانية ، بأن مصر لن تتوانى عن الصراع المستمر ضد الاستعمار البريطانى ، ومقاومته بكافة الوسائل ، حتى تتحقق لمصر سيادتها واستقلالها الكامل » .

واود أن أبادر بالقول بأن فهمى لمهمة الحزب المذكور يومئذ ، لم يكن منصبا على أغراض اقتصادية أو طبقية مما تدعو اليه النظرية الاشتراكية . وقد درست الاشتراكية مع بقية المذاهب الاجتماعية الحديثة بكلية الحقوق فيما كان يسمي يومئذ « بالعلوم السياسية » « Political science » ولكنه كان منصبا على المعنى السياسى ، وعلى ما ترمى اليه الأمانى المصرية من تحقيق الحرية والاستقلال . وقد أوضحنا فى بياننا أننا نرمى الى العمل على تحرير مصر ، بل وعلى تحرير وادى النيل كله من قبضة الاستعمار . ولما كان هذا الحزب جديدا فى اسمه ونوعه ، فقد أقبل كثير من الشباب على الاشتراك فيه ، واتخذنا شقة فى العمارة المواجهة لحديقة الازبكية على مقربة من ميدان الخازندار لتكون مكتبا للحزب واجتماعاته . وكنت يومئذ ما زلت أمارس مهنتى فى المحاماة بميت غمر وأقضى أواخر الاسبوع بالقاهرة ، وأهتم بتنظيم شئون الحزب الجديد بقدر الامكان . وكان من أهم ما قام به الحزب عقب تكوينه أمران ، الاول ، هو لقاء المرحوم سعد زغلول باشا زعيم الامة ، ورئيس حزب الوفد يومئذ ، فذهبنا الى لقائه بموعد فى بيت الامة ، واستقبلنا مع عدد من أعضاء الوفد ، وألقيت بين يديه خطابا قصيرا نوهت فيه بانشاء

الحزب الاشتراكى . واشرت فيه الى ما اتسم به سعد باشا من الشجاعة والبسالة ، وكونه لم يخش سطوة الانجليز ولا حرابهم المشهرة . فلاحظ سعد باشا على ذلك مبتسما بقوله : « بل كنا خايفين شوية » . والامر الثاني هو أننا اقمنا حفلة شاى احتفالا بلقاء نواب حزب العمال البريطانى ، وكانوا ثلاثة ، وفدوا الى القاهرة لدراسة المسألة المصرية ، وذلك بنادى حديقة «السيروس» الواقع يومئذٍ فى منتصف سليمان باشا ، وألقيت أنا فيها كلمة بالانجليزية نوهت فيها بأهمية القضية المصرية وعدالتها ، ورجوت تعضيد حزب العمال البريطانى لها ، وسعيهم الى حلها بطريقة عادلة محققة للأمانى المصرية .

واستمر الحزب الجديد فى طريقه بعض الوقت على وضعه الذى أشرت اليه . ولم تشمل حفلات أو تلقى محاضرات ، اذ كنا نجوز مرحلة التأسيس والتجمع ، ولم يوضع برنامج معين للحزب ، اكتفاء بالبيان التأسيسى الذى نشر فى ذلك . وبينما نحن فى هذا الوضع التمهيدى اذ طرأ على الحزب عنصر جديد ، يتمثل فى انضمام اثنين من دعاة الاشتراكية القدامى اليه ، هما الاستاذ حسنى العربى ، وهو من أعيان المحلة الكبرى ، وكانت له سوابق فى الدعوة الى اعتناق الاشتراكية ، والمسيو روزنتال الجوهرى بالاسكندرية ، وكان له فى هذا الميدان نشاط معروف وذائع . وقد تبين منذ البداية أن هذين العضوين الجديدين كانا مدربين على أعمال الدعاية ، كما تبين ان مسيو روزنتال كانت له صلات بالحزب الشيوعى الروسى وغيره من الهيئات الاشتراكية الاوربية ، وأنه كان ينفق بعض المال فى سبيل الدعاية الاشتراكية وغير ذلك وكذا

كان يعمل زميله الاستاذ العـرابى . كذلك تبين انهمـا يسعيان الى أن تكون لهما مساهمة فعالة ، بل مساهمة قيادية فى تسيير الحزب والسيطرة على توجيهه . وفى هذه الفترة بالذات كان يأتى بعض الرسـل من وافدى اوربا يدعى بعضهم الانتماء الى بعض الاحزاب الاشتراكية والشيوعية الاوربية ، ويدعوننا الى الاتصال بأحزابهم .

وهكذا بدأت تتضح المسـاعى التى نظمت لتحـويل الحزب الاشتراكي فى هيئة عاملة لبث المبادىء الاشتراكية والشيوعية ، ومحـاولة الاتصال بالاحزاب الاوربية ، وتنظيم علاقات معها ، وتحوله بذلك عن غايته الاصلية التى أنشأناه من أجلها ، وهى تدعيم الجهود التى تبذل لحل القضية المصرية ، وحصول مصر على استقلالهـا وحرياتها ، وهنا أخذت السلطات تراقب الحزب ونشاطه ومن يتردد عليـه . وكان من المبعوثين الذين حاولوا الاتصال بالحزب وتوجيه نشاطه ، شاب أوربى يدعى افجدور ، والغالب فى الدعوة الى العمـل ، والاتصـال بالأحزاب الخارجية ، والنضال ضد الاستعمار والنظم المستعبدة ، وغير ذلك . وكان عنيفا فى خطبه ودعوته ، فلفت اليه نظر السـلطات وقبض عليـه . ودعيت أنا والدكتور على العنانى وسلامة موسى الى الشهادة بما نعلم عنه وعن أعمال الحزب واتجاهاته . وكان التحقيق امام رئيس نيابة مصر بمبنى محكمة الاستئناف ببـاب الخلق . فأدلينا بأقوالنا ، وسرد كل منا قصة انشـاء الحزب وأغراضه كما وقعت ، وقدمنا الى النيابة بيانه التأسيسى الذى سبق نشره فى الصحف .

وهنا شعرنا نحن الثلاثة بأن الأمور قد خرجت من

أيدينا ، وأن الاستمرار فى وجودنا على راس الحزب او حتى بين أعضائه مما يثير الشبهات حولنا دون مبرر ، خصوصا وأن هذا الاتجـاه الذى يأخذه الحـزب تحت توجيه العرابى وروزنتال ، كان توجيها شيوعيا صريحا. ومن ثم فقد استقلنا من عضوية الحزب وتركناه وشأنه ، ونشرنا بذلك بيانا موجزا فى جـريدة الاهرام ، ذكرنا فيه أننا قد اعتزلنا العضوية وتركنا الحزب لمارضتنا فى قيام الدعوة الى الشيوعية التى غلبت عليه فى الفترة الأخيرة. وكان ذلك ختام هذه الحركة الصـغيرة البريئة التى كنا نؤمل أن تكون مفيدة ومؤيدة لحركة الاستقلال السياسية، وهى التى بدأت تحتل فى ذلك الوقت مكانها فى عرين الصراع الحزبى المعروف .

ولم يخالجنى منذ ذلك الحين اى شعور أو أية رغبة بالانضمام الى أية هيئة سياسية أو أى حزب سياسى، أو اعتناق اية آراء حزبية معينة ، ولبثت طوال حيـاتى بعد ذلك بعيدا كل البعد عن هذا المعترك ، لا يحركنى سوى شعورى المصرى الصميم ، واتجـاهاتى المصرية الخالصة ، وذلك حسبما نوهت فى مقدمة هذه المذكرات.

النزول الى ميدان الصحافة

وفى سنة ١٩٢٤ كان اتصالى بجريدة « السياسة » ، وكانت تصدر يومئذ باعتبارها لسان حال حزب الأحرار الدستوريين . وكان صدورها قبل ذلك بعامين حادثا مدويا فى عالم الصحافة المصرية ، وذلك لما احتشد فى تحريرها من أكابر كتاب العصر ، ولما كانت تبتكره من

ابواب جديدة فى الفن الصحفى . وكان رئيس تحريرها يومئذ المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، وقد لبث فى هذه الرياسة أعواما طويلة ، حتى تطورت الأحوال السياسية واحتجبت السياسة . وكان يعاونه فى تحريرها يومئذ رهط من أعلام الكتاب والصحفيين ، أمثال الدكتور طه حسين ، والاستاذ توفيق دياب ، والاستاذ محمود عزمى بعد ذلك بقليل ، والاستاذ عبد الحميد حمدى ، وغيرهم . ويشترك فى تحريرها من الخارج أصدقاء اعلام مثل المرحومين الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، واخيه على عبد الرزاق ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، والدكتور محمد ولى ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، والاستاذ المازنى ، وغيرهم . وقد كان من حظى أن التحق بهذا الحشد اللامع من رجال الفكر والقلم ، وذلك فى ظروف لم تكن تخطر ببالى . وكان الفضل فى ذلك يرجع الى صديقى وبلديى ، المرحوم الدكتور سيد بك شكرى ، وكان يومئذ مديرا لمستشفى زفتى الاميرى ، وكان يسكن فى الضفة الاخرى بميت غمر ، وموظفين فى مقهى ميت غمر الكبير الفاخر المسمى بمقهى « بابا » ، وأحب بهذه المناسبة أن انوه بما كانت عليه مدينة ميت غمر من الجمال ، وروعة موقعها وكورنيشها على النيل ، مقابل قرينتها مدينة زفتى ، وبفخامة صروحها ومبانيها ومنتدياتها ، وجمال تخطيطها ونظافتها. وقد كان ذلك يرجع أولا الى غنى ميت غمر ورخائها ، وكثرة رجال المال والأعمال من أعيانها ، وثانيا الى أنه كانت بها جالية يونانية كبيرة نشيطة ، انشأت بها كثيرا من المحال والمنتديات الجميلة من مقاه ومطاعم وفنادق ،

ومنها مقهى بابا الفخم الكبير . وكنت أقول دائما أن بلدتي ميت غمر هي أجمل مراكز القطر المصري ، وأن مدينة المنصورة بندر مديرتي الدقهلية ، هي أجمل بنادر القطر المصري . وقد كان جمال المنصورة في ذلك العهد يرجع الى وجود المحاكم المختلطة بها ، وهي تضم جالية أجنبية مختارة من القضاة والمحامين والموظفين القضائيين ، هذا الى جالية أخرى يونانية كبيرة نشطة على منوال جالية ميت غمر ، ثم الى وجود عدد كبير من البيوتات العريقة والارستقراطية ، ولكن من شديد الأسف أن تغيرت الظروف ، وتطورت الأحوال في معظم المدن المصرية في العهد الأخير ، وفقدت كثيرا من جمالها السابق وفخامتها القديمة . وذلك لاختلاف موازينها الاجتماعية ، نتيجة ما وقع من تغييرات طبقية مفتعلة بقوة التشريع . وكانت خسارة المنصورة وميت غمر في ذلك كبيرة ، أولا ، لانتهاء عهد المحاكم المختلطة ، ونزوح الجاليات الأجنبية عنها نظرا لما وقع من مطاردتها دون تفريق بين العناصر النشطة الشريفة ، والعناصر السيئة ، وثالثا لسوء الأحوال الاقتصادية ، وزحف الفقر الى معظم الطبقات ، وانخفاض المعايير ، والتدهور الأدبي والمعنوي الذي أصاب المجتمع المصري في العهد الأخير .

صداقة العمر

وأعود بعد ذلك الى موضوعي الأصلي ، وهو اتصالي بجريدة السياسة ، وفضل صديقي المرحوم الدكتور سيد بك شكري في عقد هذا الاتصال . وكانت تربط الدكتور صداقة متينة العرى بالمرحوم الدكتور حافظ

عفيفي (باشا) زميله في الدراسة بمصر واوربا ، وكان يومئذ من أقطاب الأحرار الدستوريين ، ويتولى ادارة جريدة السياسة العليا . وكانت السياسة تصدر يومئذ عن دارها الأولى في شارع المبتديان ، فقدمني اليه الدكتور شكرى ، وأطنب فيما كنت أتمتع به من معارف ومزايا لغوية وتحريرية . ووافق الدكتور عفيفي في الحال على أن يضمني الى تحرير السياسة . وكان ذلك في أواسط سنة ١٩٢٤ . وكانت هذه الصلة الأولى بيني وبين الدكتور عفيفي ، بداية لما أصبح فيما بعد صداقة العمر بيني وبينه . وسرعان ما شعرت بما تنطوى عليه هذه الشخصية المصرية الفذة ــ شخصية حافظ عفيفي ــ من صفات ممتازة ، وأخلاق رفيعة ، ومواهب أدبية وفنية لامعة . وكان الدكتور هيكل قد عهد الى بأن أقوم بتحرير عمود الصفحة الأولى من السياسة الذى يحمل عنوان « أخبار خارجية » . وكانت تربطني به الصفة المهنية ، صفة المحامي ، وكان قد اشتغل بالمحاماة وقتا ثم اعتزلها ، ثم ظهر بمقالاته التي كانت تنشرها جريدة الأهرام حول الأحداث المصرية ، والتطورات السياسية التي كانت تتوالى في ذلك الوقت . وكنت اشعر أن هذه الرابطة الأدبية مما يقوى صلاتنا الصحفية . هذا الى ما كان يمتاز به الدكتور هيكل من رقة وأدب جم ، وحديث ممتع ومعارف واسعة . وكان صدور جريدة « السياسة » في نوفمبر سنة ١٩٢٢ ، حادثا صحفيا عظيما ، لا لأنها كانت فقط لسانا لحزب قوى يضم طائفة من أقطاب السياسة المصرية ، ولكن لأنها كانت بالأخص منذ صدورها ، حسبما أسلفنا مسرحا لأقلام جمهرة من

اعلام الكتاب والصحفيين ، الذين كان لهم أثر كبير فى سير النهضة الأدبية والصحفية .. وكانت نقد عن كونها صحيفة راى ، وصحيفة كفاح حزبى ، فتحا جديدا فى الفن الصحفى ذاته . وقد اشتهرت بصحفها الأدبية والعلمية والفنية والاقتصادية والزراعية التى كان يحررها اكابر الاخصائيين ، كما اشتهرت بمقالاتها السياسية ، وأسلوبها الأدبى الرفيع . وكان لمقالها السياسى الرئيسى « حديث اليوم » ، وهو الذى كان يحرره على الاغلب الدكتور هيكل دائما وقع ملحوظ فى الدوائر السياسية ، نظرا لصفته الحزبية ، ولما كان يمتاز به من قوة الحجة وبلاغة الأسلوب وكان من وراء السياسة بعض أقطاب الحزب الممتازين يوجهونها ويغذونها بآرائهم ومعلوماتهم. وكان فى مقدمة هؤلاء الدكتور حافظ عفيفى بك ، فقد كان له أعظم أثر فى توجيه جريدة السياسة وتنسيقها واختيار موضوعاتها ، وتزويدها بكثير من الآراء والمعلومات القيمة . واشتهرت السياسة أيضا بمحاضرها البرلمانية الشهيرة التى كان يحررهما الأستاذ محمود عزمى أيام وزارة سعد باشا ، والتى كان من أثر تصويرها اللاذع أن منعت السياسة من شهود جلسات البرلمان . وفى وزارة سعد باشا أيضا صودرت السياسة وأغلقت بطبعتها أياما وقدم رئيس تحريرها وصاحب امتيازها الى محكمة الجنايات فى يونيه سنة ١٩٢٤ لحملتها على البرلمان الوفدى فى مقالات رنانة عنوانها «حزب الستمائة». ولكن حكم القضاء بالافراج عن مطبعتها ، قضى على رئيس تحريرها بالغرامة . واستأنفت السياسة صدورها أشد ما تكون عزما على النضال . وبلغت يومئذ ذروة الانتشار،

اذ كانت تطبع نحو اربعين الف نسخة ، وهو رقم لم تبلغه اية جريدة مصرية أخرى من قبل .

التزام وحياد

وهكذا بدأت عملي في السياسة بتحرير باب « الاخبار الخارجية » ، وكنت أستعين على تحريره بقراءة الصحف الانجليزية والفرنسية ، واختيار ما أستطيع منها من النبذ الاخبارية الطريفة . وكان الدكتور عفيفي من جانبه يقدم الى من آن لآخر بعض اعداد من الصحف الفرنسية التي قرأها ، ووقع فيهما على بعض الاخبار والنبذ الشائقة ولا سيما جريدتي « الجورنال » و « الكوتيديان » . وكان هذا التعاون بيننا يقوى ويتوثق مع الزمن ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت انشر في صحف السياسة الخاصة (الثانية أو الثالثة) بعض البحوث التاريخية مما كنت قد أعددته من قبل ، أو وقع اختياري عليه ، وأذكر من ذلك فصلا عن « العقاب والتعذيب في العصور الوسطى » وبحثا عن ابن خلدون عنوانه « ابن خلدون مؤرخ الحضارة في القرن الرابع عشر » بقلم المستشرق « فون فيسندنك » ترجمته عن مجلة « دويتشه روتشسارد » الالمانية ، وغيرهما . وهكذا الفيت الميدان امامي فسيحا للتحرير والنشر ، في جريدة محترمة ، وفي وسط رفيع من أكابر كتاب العصر ، والى جانب نخبة من رجالات مصر ، الذين كانت تحفل بهم دار السياسة باستمرار . وأود أن أنوه هنا بحقيقة بارزة ، هو أنني بالرغم من مساهمتي

فى تحرير جريدة السياسة ، لسان حزب الاحرار الدستوريين واتصالى بكثير من أقطاب هذا الحزب ، فانه لم يخطر ببالي مطلقا ، أن أتجه الى هذه الناحية الحزبية ، أو اتسنم بها بأية حال . بل ولقد حرصت أشد الحرص على أن لا أغمس قلمى فى أية موضوع سياسى محلى أو حزبى ، لاننى كنت التزم أشد الالتزام بصفتى المصرية ، ولا أبغى نزوعا عنها لاية ناحية حزبية . ولقد كان المشرفون على تحرير السياسة ، وفى مقدمتهم الدكتور هيكل ، والدكتور حافظ عفيفى ، يشعرون منى بهذا الالتزام ، وهذا العزوف المطلق عن الاتجاهات الحزبية ، ويحترمون عزلتى وشعورى ، ويوقنون انى أدين بمبدأ مخلص لا تشوبه أية شائبة ، ولقد كنت حينما توالت بى الاعوام فى تحرير السياسة ، وأضحى من واجبى أن أساهم فى تحرير افتتاحيات الجريدة ، ألتزم الكتابة فى السياسة الدولية ، أو الشئون الدستورية ، وشئون الامتيازات الاجنبية ، والقضاء المختلط وكان لى بالاخص فى شئون الامتيازات الاجنبية والقضاء المختلط حملات شدائد ، كان لها تأثيرها العملى . وأذكر من ذلك اننى عقب وفاة المسيو ستولوف القاضى الروسى بالمحكمة المختلطة (سنة ١٩٢٧) ، ومحاولة اختيار قاض اجنبى مكانه ، اننى نشرت فى السياسة مقالا شديد اللهجة ، بينت فيه أن روسيا السوفييتية . لم تعد لها أية امتيازات أجنبية ، وأن مصر لم تعترف بها ، وأن مكان القاضى المتوفى يجب أن يخرج عن سلطان القضاء المختلط ، الى نطاق السيادة المصرية ، وانه من حق مصر

ان تعين قاضيا مصريا فى هذا المنصب القضائى الذل آل اليهـــا بفقدان روسيا البلشفية لامتيازاتها القـديمة ، وقد كان لهذا المقال أثر عميق فى الاوساط القضائية ، وكان من أثره أن تراجعت محكمة الاستئناف المختلطة عن محاولتها ، وعينت الحكومة المصرية قاضيا مصريا مكان القاضى المتوفى ، هو المرحوم عبد السلام ذهنى .

وكان من آثار وجودى فى تحرير السـيـاسة ، أن اتصلت فيمن اتصلت بهم ، بآل عبد الرازق : مصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق ، ومحمود عبد الرازق ، وكان مصطفى وعلى يكتبان فى السياسة من آن لآخر . وكان أخوهمـــا محمود باشا من قـادة حزب الاحرار الدستوريين ، بل قائده الاول ، وكنت أتردد من آن لاخر مع الدكتور هيكل على منزل آل عبد الرازق الواقع خلف سراى عابدين ، وسرعان ما أدركت ما كانت عليه هـذه الاسرة من العراقة والنبل ، وما كان عليه أولئك الاخوة الثلاثة من رفيع الخلال ، بل أستطيع أن أقول انى لم اشهد بين الاسر المصرية العـريقة أسرة تضـارع آل عبد الرازق فى رقة الخلال ، وفى الـكرم ، والادب ، والتواضع ورحابة الصدر . أذكر انى كنت مع الدكتور هيكل ذات يوم فى حديقة منزل آل عبد الرازق ، وجاء السفرجى يقول « تفضـلوا ، الاكل جاهز » ، فقمت استأذن الدكتور هيكل فى الانصراف ، فقال لى : « الى اين » ، فقلت : « انى لم أدع آلى الفـداء » فقال : « وأنا كذلك لم أدع ، ولكن تقليد آل عبـد الرازق أن يشترك دائما فى السفرة من وجد من الاصدقاء والزوار ، أكانوا من المدعوين أم لا . ولقـد توثقت علاقتى على مر

الايام بالاستاذين الـــكبيرين مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق . وكان الاستاذ علي في أواسط العشرينيات يشرف علي اصدار مجلة شهرية ، تسمى مجلة الرابطة الشرقية تعنى بشئون الامم الاسلامية الشرقية ، فدعانى الي المساهمــة في تحريرها ، فأستجبت مغتبطا وكانت تطبع في مطبعة أحمد باشا شفيق الخاصة التى يقــوم بطبع « حولياته السياسية » فيهـــا فتعرفت به ، وأردت هذه الصلة فيمـا بعد الى أن طلب منى شفيق باشا مساعدته على تنظيم مذكراته . وكان يقيم في شبرا في فيلته المطلة على النيل . وكنت فيما بعد أسكن في شبرا قريبا منه ، فكان هذا القـــرب مما سهل على تحقيق رغبته في تنظيم هذه المذكرات الهـامة ، التى نشرت فيما بعد تحت عنوان « مذكراتي في نصف قرن » ، وكان لمـا ورد فيها دوى شديد في قصر عابدين ، ودعى شفيق باشا للتحقيق معه في بعض ما ورد فيهـــا ، وسحبت نسخها من المكتبات . وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت لدى شفيق باشا لاول مرة بالآنســـة مى زيادة ، ابنة الصحفى المعروف الاستاذ الياس زيادة ، صاحب جريدة « المحروسة » وكانت يومئذ قد ذاعت شهرتها الادبية . وكانت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها فتاة متوسطة القوام تميل الى السمرة ، ولكن السحر كان ينفث من عينيها ومن حركاتها وألفاظها وقد التقيت بها فيما بعد في احدى حفلات نادى القـلم ، ثم توطدت بيننا أواصر مودة أشير اليها فيما بعد .

وهنا أقف قليلا ، لاعطف على ذكر حادثين وقعا وقت اوائل عملى في السياسة ، وكان لهمـــا أثر عظيم في

حياتي الادبية . أولهما صدور كتابى « تاريخ العرب فى اسبانيا » (سنة ١٩٢٤) وقد كان مجهودا متواضعا ، ولكن حسن التنسيق ، غنى المادة ، ويشتمل على موجز فى تاريخ الاندلس منذ الفتح ، حتى عصر الناصر لدين الله (فى نحو مائة صفحة) ، وكنت قد بدأت فى كتابته منذ أيام دراستى فى الحقوق ، وقرأت من أجله عددا من المصادر العربية الجامعة ، وبعض المصادر الأوربية مثل دوزى ولاين بول ، وقد كانت هذه الفاتحة الاولى فى البحوث الاندلسية رغم ضآلتها اساس مجهوداتى الكثيفة الواسعة النطاق فيما بعد ، فى ميدان الدراسات الاندلسية ، ودليلا اتبعته فى تنظيم مراحل التاريخ الاندلسى فى موسوعتى الاندلسية ، التى اشتغلت من اجلها فيما بعد زهاء عشرين عاما فى مدريد والاسكوريال وغرناطة والمغرب وغيرها ، والتى تبلغ سبعة مجلدات كبيرة ، تشغل نحو خمسة آلاف صفحة .

والحادث الثانى هو انضمامى الى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التى اسست فى سنة ١٩١٤ ، وكنت قد سمعت عن تنظيمها ونشاطها الادبى من زميلى المرحوم الاستاذ يوسف الجندى المحامى ، وقت عملى بميت غمر ، وكان عضوا بها ، فسعيت الى الالتحاق بها ، وقابلت من اجل ذلك رئيسها صديقى المرحوم العلامة الكبير الاستاذ احمد امين ، وكان يومئذ قاضيا شرعيا بمحكمة السبتية ، وعرضت عليه رغبتى ، فرحب بها ، والتحقت عضوا باللجنة ، وقمت بشراء الاسهم المقررة لعضويتها ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٣ ، وما زلت عضوا بها حتى كتابة هذه السطور ، وذلك بالرغم مما آلت اليه

جهودها من الضعف والاضمحلال ، وما رزئت به من وفاة معظم أعضائها العاملين على التوالى . وقد كانت هذه اللجنة الادبية الجليلة ، أيام ازدهارها تضم رهطا كبيرا من أعلام رجال التربية والعلماء والكتاب والأدباء والشعراء المعاصرين ، اذكر منهم على سبيل المثال ، عدا رئيسها الاستاذ أحمد امين ، احمد لطفى السيد ، أحمد نجيب هاشم ، الدكتور طه حسين ، الدكتـــور عبد الرازق السنهورى ، الاستاذ أحمد حسن الزيات ، الاستاذمحمد فريد أبو حديد ، الاستاذ اسماعيل القبانى ، الدكتور حسين حسنى ، الاستاذ محمد بدران ، الدكتور أحمد زكى ، الدكتور محمد عوض محمد ، الدكتور عبد السلام الكردانى ، الاستاذ الدمرداش محمد ، الدكتـور سيد باشه ، الاستاذ مختـــار رسمة ، الاستاذ حسن جلال ، الاستاذ عبد الحميد العبادى ، الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، الاستاذ يوسف الجنـــــدى ، الاستاذ صبرى أبو علم ، الاستاذ مرسى قنديل ، الاستاذ راشد رسم ، الاستاذ عوض لطفى ، الدكتور محمود القوصى ، وغيرهم وغيرهم . وقد لقى معظم هؤلاء الاعضاء الاجلاء ، ربهم تباعا ، ولم يبق من الاعضاء الاحياء العاملين سوى قلة ، فرحم الله من توفى منهم ، ومد الله فى عمر من بقى منهم ، وقد لبث أعضاء لجنة التأليف والترجمــة ومعظمهم من أكابر رجال التربية دهرا يسهرون على تربية الاجيـــال المتعــاقبة من الشباب ، وكان جلهم من خريجى مدرسة المعلمين العليا ، وقد تولى وزارة التربية والتعليم منهم عدة ، وتولى البعض وزارة الشئون الاجتماعية ، والله يجزيهم خير الجـــزاء على ما قدموا لوطنهم من جليل الخدمات .

وقد تولت اللجنة نشر بعض كتبى : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين . المترجم عن الالمانية ، ولكنى لم أتابع نشر كتبى بها ، لما آنسته من ضعف جهودها فى الطبع والتوزيع .

وقد قامت اللجنة ، خلال حياتها الطويلة ، بنشر عشرات من الكتب العلمية والادبية ، وكتب التراث . وقامت بالاخص بنشر كثير من الكتب الدراسية التى تتعلق بالتعليمين الابتدائى والثانوى من تاليف أعضائها ، وجلهم كما أسلفنا من أعلام رجال التربية . وكان معظمها تقرره وزارة التربية ولتلاميذ المدارس ، وكانت أثمان هذه الكتب الدراسية ، تكون موردا من أهم موارد اللجنة المالية .

وكان للجنة أثرها البارز فى سير الحركة العلمية والادبية فى نصف القرن الماضى ، بما كان تنشره من الكتب والمجموعات الادبية والفنية ، وبما كانت تعقده من ندواتها الادبية ، وكانت هذه الندوات تعقد بانتظام فى مساء كل خميس ، ويجتمع فيها رهط من العلماء والادباء من اعضاء اللجنة وغيرهم من الزملاء والاصدقاء ، وضيوف مصر من أدباء البلاد العربية ، ويجرى تبادل الافكار والاحاديث الادبية من كل لون . واذا كان من حظ الندوة، أن يحضرها المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، وقد كان صديقا حميما لنا جميعا ، فقد كانت نكاته النادرة الاخاذة ، تبعث فينا جميعا من الضحك والبشر ما ترتاح اليه النفوس ، وتنتعش القلوب .

تفاؤل وتشاؤم !

وكانت ندوات اللجنة تشغل فى البداية بالاخبار

والمناقشات ، الادبية . وكان المرحوم الاستاذ كامل كيلانى يحاول دائما أن يجعل من ابن الرومي وأخباره وأشعاره موضع النقاش ، ويحاول أن يستغرق فى ذلك الوقت لولا أن كنا نوقفه عند حده . ويتحفنا المرحوم الاستاذ احمد الزين بانشاد ما لم ينشر من أشعاره وفيها الكثير من الجيد والطريف ، ويشير كل منا ما يرد على خاطره من الاخبار والطرائف الادبية والتاريخية . فلما وقعت « ثورة ٢٢ يوليه ، وقام النظام العسكرى الجديد ، كانت الاوضاع والاحوال الجديدة ، تشغل حيزا كبيرا من مناقشات الندوة . وكان التفاؤل بالعهد الجديد وأحواله ، يغلب على معظم الاخوان من أعضاء اللجنة ، ولا سيما فى الاعوام الاولى . وكنت وحدى أخالف هذه النزعة ، وأبدى تشاؤمي وتخوفي من تطور الاحوال الجديدة ، والاخوان جميعا يقابلون تشاؤمى بالاعتراض واللوم . فلما مضت الاعوام ، اخذ معظم الاخوان يغير رايه ، ويبدون موافقتهم لموقفى وآرائى ، ويقولون « عنان كان عنده حق فى تشاؤمه » « عنان كان أبعد منا نظرا الخ » . ثم اخذت هذه المناقشات السياسية بطبيعتها تتضاءل ، ويعدل عنها لما كانت تثيره عندئذ من حدة المناقشات وعنفها ، واخذت مناقشات الندوة طابعها الادبى المعتاد .

وكان للجنة دار خاصة ، وبها مطبعة كبيرة تقوم على طبع كتبها وغيرها من الكتب العلمية ، وكانت تسير بخطوات ناجحة ، لولا ما توالى فى أواخر عهدها من مشاكل العمال التى اثارها التشريعات العمالية المفرقة ، والتى ذهبت فى التحيز للعمال والاغداق عليهم الى حدود غير معقولة ، والتى كادت اخيرا أن تشل كل شىء فى

نشاط اللجنة ، وتستنزف كل مواردها . ومن ثم فقد اضطرت اللجنة الى أن تتصرف فى دارها وفى مطبعتها بالبيع البخس ، تخلصا من هذه المشاكل . وهى مازالت تعمل حتى اليوم ، بالرغم من ضعف مواردها على نشر كتبها القديمة ، ونشر القليل من الكتب الجديدة . ويجرى اتجاه البقية الباقية من أعضـــــائها الى تصفيتها تصفة نهائية ، والله يعمل ما فيه الخير .

* * *

هذا ، وقد كانت الخلافات الحزبية ، قد أخذت تشتد يومئذ بين مختلف الاحزاب والهيئات السياسية . وفى غمرة هذا الخلاف ، وقع حادثان يتعلقان بحرية الفكر والقلم . هما قضية كتاب « الادب الجاهلى » ، وكتاب « الاسلام وأصول الحكم » .

فأما القضية الاولى ، وهى قضـــية كتاب « الادب الجاهلى » ، الذى وضعه الدكتور طه حسين ، فقد اثيرت فى الدوائر الازهرية عقب صدور هذا الكتاب. ضجة مفتعلة ، وطالب لفيف من أكابر علمـــــاء الازهر بالتحقيق مع مؤلف الكتاب لبعض ما ورد فيه مما يعتبر مساسا بالدين الاسلامى ، فنزلت النيابة العمومية عند رغبتهم ، ودعى الدكتور طه حسين أمام النيابة للتحقيق معه فى هذه التهمة . وكان الشعور واضحا بأن هذه الحركة انمــا دبرت ضد حزب الاحرار الدستوريين ، الذى ينتمى اليه مؤلف الـكتاب . ونصح الدكتور طه حسين من محامى الحزب ، وفى مقدمتهم رئيسه يومئـذ المرحوم عبد العزيز باشا فهمى ، بألا يجيب عن اى سؤال للنيابة ، وأن يكون رده دائما بقوله « لا أجيب » . وعمل الدكتور طه حسين بهذه النصيحة ، ورفض الاجابة ، على

اى سؤال وجهتــه النيابة اليه . ولم تستطع النيابة أن تجد مجالات تقوم ضده بأى اجراء جنائى .

وبعد ذلك بقليل ، ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لمؤلفه الاستاذ على عبد الرازق ، فى ابريل سنة ١٩٢٥ ، فأثار ظهوره ضجة جديدة اتسمت بشيء من الخطورة ، لمـا كان له من صلة وثيقة بمسألة الخلافة الاســلامية ، التى كانت تتبعه اليها يومئذ بعض الاطماع الملوكية ، وكان لمؤلف الكتاب ، رأى جديد فى الخلافة الاســلامية . وهى « انها كانت حكومة لادينية ، وان الله لم يكلف المسلمين بأن يكون لهم خليفة ، وان الاسلام لم يقرر نوعا معينا من الحـكومة ، وان الخلافة ليست نظاما دينيا ، والقــرآن الكريم لم يأمر بها ، ولم يشر اليها ، وان الدين الاسلامى برىء من نظــام الخلافة ، وبرىء من الأدواء التى عصفت بها ، وعملت كثيرا على تأخير المسلمين » . وقد صـــدرت هذه الآراء العلمية الجريئة المبتكرة فى ظرف كانت الخلافة الاسلامية فيه ، بعد أن ألغيت فى تركيا الكمالية ، موضع أحاديث وتعليقات كثيرة فى مختلف أنحاء العالم الاســلامى ، وكانت مصر مسرحا خصبا لهذه الاحاديث ، اذ كان عاهلهـا الملك فؤاد ، ممن يطمحون الى احراز هذا اللقب القـديم التالد ، وكانت الاقلام الاجيرة ، وفى مقدمتها أقلام الدعاة الدينيين ، أمثـال صاحب المنار وزملائه ، ترسل صيحاتها فى هذا الاتجــاه ، فكان صدور كتاب « الاسلام وأصول الحكم » وما تضـمنه من الآراء الجديدة فى تقييم مركز الخــلافة الاســلامية ، كانت تتجه اليها يومئذ بعض الاطماع الملوكية . وكان لمؤلف وتجريدها من كل أصل وصفة دنية ، ضربة شديدة لهــذه الاطماع ، ومن ثم فقد تحرك علماء الازهر ، وهم دائما أولياء القصر ، وبادرت هيئة كبار العلماء برياسة شـــيخ الجامع

الازهر ، الشيخ محمد أبى الفضل باستدعاء الشيخ على عبد الرازق ، وهو من أعضائها ، لمحاكمته ، لماورد فى كتابه من آراء وأقوال تعتبر مروقا عن أصـــول الدين ، واســـتجاب الشيخ على عبد الرازق لهذا الاستدعاء ، وعقـــدت الهيئة جلستها لاستجوابه ، وتوجيه الاتهام اليه ، واحتج الشـــيخ على بعدم اختصاص الهيئة ، فرفض احتجـــاجه ، وانتهت الهيئة بالحكم بادانته ، وقضت « باخراج الشـــيخ على عبد الرازق ، أحد علماء الجامع الازهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الشرعية ، ومؤلف كتاب (الاسلام وأصول الحكم) من زمرة العلماء » . وكان ذلك فى ١٢ أسسطس سنة١٩٢٥ ثم عزل الشيخ على عبد الرازق بعد ذلك من منصبه القضائى على يد مجلس تأديب قضاة المحاكم الشرعية بوزارة الحقانية، واختتمت المسألة باقالة وزير الحقانية عبد العزيز باشـــا فهمى رئيس حزب الاحرار الدســـتوريين ، لما أثاره من ريب حول قرار هيئة كبار العلماء ، وسؤاله لجنة قسم القضـــايا بوزارة الحقانية عن اختصاصها ومدى حقهـــا فى محاكمة الشيخ على عبد الرازق .

وكان لهذه الحوادث المثيرة المتوالية أصـــداء بعيدة المدى فى سائر الاوساط والاحزاب ، وسائرالصحفعلىاختلاف نزعاتها واضطلعت جريدة السياسة فى هذهالمعركةالفكرية السياسية ، بأعظم قسط ، وشغل الرأى العام بأصـــدائها وأبعادها مدى حين . وكان للانجليز دورهم ، واتجاهاتهم ، ونفثاتهم فى هذا الميـــدان ، لانهم كانوا يرون فى الخلافة سلاحا سياسيا ، يمكن أن يؤدى دوره فى تحقيق أغراضهم ، وتمكين سلطانهم .

وقد انتهى هذا الجدل كله حول الخـــلافة بعد حين ، وتضاءلت الاطماع من حولها ، والغى الحكم الصـــادر ضد

الشيخ على عبد الرازق من هيئة كبار العلماء ، واسترد مكانته بين أعضائها ، واشتغل مدى حين بالمحاماة الشرعية .

* * *

وفى اوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٢٥ توفي والدى المرحوم عبد الله عنان عن احدى وخمسين سنة بمنزلنا ببركة الفيل . أصابه التهاب رئوى صاعق فلم يبق عليه سوى بضعة أيام رغم العناية بمعالجته ، وكانت وسائل العلاج يومئذ ما تزال قاصرة عما هى عليه فى يومنا . وكانت آخر كلماته لى « اذا كان الأمر فيه قضاء ، فانى داع لك » ، وقد دفن أولا بقرافة السيدة نفيسة . ثم نقل رفاته بعد الى مدفن الاسرة بالامام الشافعى ، رحمه الله ، وجزاه خير الجزاء عما بذل فى تربيتى من عناية وجهود .

* * *

وأعود الى حديث حياتي الصحفية ، فأذكر ما حدث بعد التحاقى بتحرير السياسة بنحو عامين ، من وقوع حدث صحفى جديد ، هو تأسيس « السياسة الاسبوعية » وكان وراء هذا الحدث المبتكر فى الصحافة المصرية ، الدكتور حافظ عفيفى . وكان رأيه يقوم على أن تصدر السياسة ملحقا أسبوعيا ، سياسيا علميا أدبيا فنيا ، على نحو ما تفعله جريدة « التيمس » الانجليزية باصدار ملحقها الاسبوعى « The Weekly » وتمت الاستعدادات لاصدار السياسة الاسبوعية بسرعة ، وصدر عددها الاول فى ١٩ مارس سنة ١٩٢٦ ، وتولى رآسة تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل ، وعينت سكرتيرا لتحرير الجريدة الجديدة ،

يعرض على سائر ما يرد اليها من البحوث والمقالات، فاختار ما يصلح منها للنشر وأقوم بتنسيقه • وانحصر العمل فى ذلك بيني وبين الدكتور هيكل • وكنا نحضر الى دار السياسة في عصر يوم الجمعة ، فنضع اللمسات الاخيرة للعدد ، الذى يصدر في الغد (السبت) • وكان الدكتور هيكل يقوم على الاغلب بكتابة افتتاحية العدد ، وأنشر من جانبي فيه بحثا تاريخيا ، وأقدم اليه فوق ذلك قصة قصيرة ، مترجمة عن الادب (الفرنسى أو الالمانى على الاغلب) ، تنشر كل أسبوع ، وتذيل بعبارة « ترجمها ع » وكان البعض يظن أن « ع » هذه تعنى (عزمى) ، وينسبون ترجمة هذهالقصص الى زميلنا الاستاذ محمود عزمى، الى ان نشرت أول ترجمة لى فى ملحق مجلة الالمانية التى يصدرها معهد اللغات الشرقية في برلين المعنون « زعماء الادب العربى المعاصر « Leaders of Modern Arabic وأعده المرحوم الاستاذ طاهر الخميرى ، والقى فيه الضوء على حقيقة مترجم هذه القصص التى ذاع أمرها • وكانت من أبرز خواص السياسة الاسبوعية ، وكان اختيار هذه القصص ، وترجمتها من أمتع أعمالى الادبية الصحفية • ولم أترك كاتبا فرنسيا لامعا من كتاب القصة القصيرة ، الا نقلت بعض قصصه ، وأخصهم فرانسو كوبيه ، بول بورجيه ، بيير لويس • مارسل بريفو • جى دى موبسان • جان رشبان • بول هرفيو • تيودور دى بانفيل • اندريه تيربيه • الفونس دوديه • جان لوران • أناتول فرانس • ترستان برنار • بول وفكتور مرجريت • كلود فارير •• الخ » ••

وأحيانا كانت الترجمة عن بعض الكتاب الالمان مثل

هنيرش هينه ، وهوفمان ، وارنولد زفايج وغيرهم ٠

وقد نشرت فيما بعد طائفة كبيرة من هذه القصص المختارة ، صدرت فى مجموعتين تحت عنوان « قصص اجتماعية ونماذج من أدب الغرب » الاولى فى سنة ١٩٣٢، والثانية فى سنة ١٩٤٧ ٠

وحققت السياسة الاسبوعية نجاحا عظيما واشتد ذيوعها فى مصر وسائر البلاد العربية وساهم فى تحريرها ومراسلاتها معظم كتاب العصر من الشيوخ والشباب ، وكانت تصدر فى أول أمرها فى ثمان صفحات كبيرة من قطع السياسة اليومية ، ولكن رؤى فيما بعد أن هذا القطع ليس مريحا من الناحية التحريرية ، والناحية العملية ، وعدل عنه الى القطع النصفى ، وصدرت عندئذ فى ٢٤ صفحة من هذا القطع ، وأحيانا فى أكثر من ذلك ٠ وكانت فى البداية لا تعنى الا بقدر يسير من المقالات السياسية ، ولكن هذه العناية بالشئون السياسية زادت مع الزمن ، وتنوعت موضوعاتها ما بين أدبية وعلمية وفنية ، وبين المنشىء والمترجم ، ومنذ سنة ١٩٣٠ ، قوى لونها السياسى وأصبحت تصدر بصورة كاريكاتورية سياسية ، يرسمها مصور العصر البارع خوان سنتس ٠ وكان أبرع المصورين الكاريكتوريين يومئذ ، وأصله اسبانى مورقى ، ولكنه اندمج فى الحياة المصرية اندماجاشديدا ، وكان يميل فى العمل الى جانب خصوم الوفد ، والى الدستوريين بصفة خاصة ، ومن ثم فقد كان عمله على الاغلب فى هذا الجانب من السياسة المصرية ٠ وكان ذا شخصية رقيقة ممتازة ، وله أصدقاء ومعجبون كثيرون ٠ وقد توفى فى سنة ١٩٤٧ ٠

وقد نشرت الكثير من بحوثى التاريخية الهامة تباعا فى

السياسة الاسبوعية ، وجمعت الكثير منها فيما بعد لتنشر في بعض مؤلفاتي التى صدرت بعد ذلك • ومازال الكثير منها باقيا قيد النشر ضمن مشروع مجموعة الاجزاء ، التى أرجو أن يتاح لى نشرها متضمنة لطائفة كبيرة من بحوثى ومقالاتى التى نشرت في مختلف الصحف والمجلات مدى خمسين عاما •

وأود أن أنوه بهذه المناسبة بما توثق بينى وبين أستاذى المرحوم الدكتور هيكل من صلات الود والمحبة خلال هذا العمل الصحفى المشترك فى السياستين اليومية والاسبوعية ، وقد كنا فى أحيان كثيرة ، ننصرف معا من دار السياسة فى وقت متأخر من المساء ، ثم نقصد الى مقهى صولت بشارع فؤاد ، وكان منتدى الصفوة المختارة يومئذ ، حيث نلتقى هنالك بالمرحوم أمير الشعراء أحمد شوقى بك ، وكان فى معظم الليالى ينتظر الدكتور هيكل ، بعد أن يكون قد قضى سهرته فى احدى دور السينما ، ليصحبه معه فى سيارته ، وقد كانا يسكنان يومئذ فى منزلين متجاورين بالعباسية ، وقد كانت عندئذ من الاحياء الارستقراطية •

وقد تعرفت يومئذ بأمير الشعراء ، وكنت أعجبت برقته وهدوئه ووفرة أدبه ، وأسعد كثيرا بهذه الامسية التى التقى به فيها ، ونتجاذب أطراف الحديث الممتع •

وأود بهذه المناسبة ، أن أشير أيضاً الى لقاءاتى ومشاهداتى لشاعر النيل ، المرحوم حافظ ابراهيم ، وقد كان فى أواخر حياته يشغل منصبا اسميا هو « وكيل دار الكتب » • وكنت لكثرة ترددى على هذه الدار ، أرى حافظ ابراهيم فى فرص كثيرة • وكنت أراه بالاخص ، واقفا الى

يسار باب دار الكتب بباب الخلق عند البسطة الى جانب يسار الباب ، مع لفيف من موظفى الدار وغيرهم ، كالمرحومين الاستاذ أحمد الزين ، والاستاذ محمد الهرادى ، والاستاذ أحمد رامي وغيرهم • وكنت أراه واقفا معهم يدخن سيجاره الكبير ، لأن التدخين كان ممنوعا داخل الدار ، وهو يتناول الاحاديث مع زملائه وأصدقائه ، ويتحفهم من آن لآخر ، وبصوته الأجش ، بنكاته الظريفة فتعلو ضحكات الحضور • ولقد سمعت حافظ ذات مرة (سنة ١٩٣١) يتلو بنفسه قصيدة الرثاء التي نظمها لمناسبة وفاة المرحوم عبد الحليم الغلايلى بك عضو مجلس ادارة حزب الاحرار الدستوريين ، وكان القاؤها في حفل تأبينه عند عتبة مدخل دار جريدة السياسة بشارع المغربى (عبد الخالق ثروت الآن)وكان القاؤه واضحا قويا أخاذا . وقد عرفت حافظ ابراهيم لاول مرة كشاعر ، وأنا تلميذ من تلاوة قصيدته المبكية فى رثاء مصطفى كامل رحمه الله ، والتى مطلعها :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبر وهلل وألق ضيفك جاثيا

وأذكر الى جانب ذلك انه لما توفى حافظ فى سنة ١٩٣٢ ، وجاءت العربة التى تحمل جثمانه من الزيتون حيث كان يقيم ، الى جوار محطة كوبرى الليمون ، حيث أقيم سرادق الجنازة وكنت فى لفيف المنتظرين لقدوم النعش ، تقدم المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى من العربة حاملة النعش ولمسه بيده ، وهو يقول بصوت مبك ، « حانروح بعدك فين يا حافظ » •

وكذلك عرفت شاعر القطرين المرحوم خليل مطران ،

وقد كان شاعرا ممتازا ، وسمعته في أكثر من مناسبة يلقي قصائده ، واجتمعت به أكثر من مرة في حفلات عشاء نادي القلم ، وكان رجلا دمث الخلق جم الأدب والمجاملة .

واستمرت السياسة على الصدور حتى بلغ النضال الحزبي أشده أيام وزارة اسماعيل صدقي باشا ، فعطلت في أواخر سنة ١٩٣٠ فصدرت مكانها مدى حين جريدة « الاحرار الدستوريون » ، ولكنها عطلت أيضا بعد قليل ، واستأنفت السياسة صدورها في سنة ١٩٣١ .

عقب صدور قانون المطبوعات الجديد . ولكن شئونها مازالت في اضطراب حتى احتجبت في سنة ١٩٣٤ ، واستأنف حزب الاحرار اصدارها حيثما تولى الحكم في سنة ١٩٣٨ ، فصدرت لبضع أسابيع ثم أغلقت نهائيا .

أما السياسة الاسبوعية ، فقد عطلت في أوائل سنة ١٩٣١ ، ثم استأنفت الصدور فيما بعد بصورة غير منتظمة ، وكان انزلاقها الى ميدان الكفاح الحزبي قد أضر بسمعتها الادبية . واستمرت بعد ذلك في الضعف ، وتطورت بها الحوادث حتى انقطعت نهائيا عن الصدور ، بعد أن لبثت مدى حين أقوى وازهر الصحف الادبية المصرية .

وهكذا نزلت الى ميدان الصحافة الصاخب ، ووفقت الى أن أحتل فيه مكانا ثابتا مرموقا ، وانتظم اسمي الى جانب أعلام الكتاب والباحثين . وكانت بحوثي التاريخية بالاخص تلفت الانظار بجدتها ودقتها ، وقد اسبغت على منذ وقت مبكر صفة الباحث « المحقق » . وترامت هذه السمعة الى دوائر المستشرقين ، فوصفني العلامة المستشرق الكبير

الدكتور كارل بروكلمـــان فى الطبعة الثانية من كتـــابة الجامع « تاريخ الأدب العربى » Geschichte der ١٩٤٣ Arabischen Litteratur بأننى من صحفى الطليعة فى هذا العصر
ونشرت ترجمتى ، حسبما تقدم ضمن أعلام الأدب العربى المعاصر ، فى ملحق مجلة Der islam الذى أصدره بالانجليزية ، المرحوم الدكتور طاهر الخميرى ، تحت اشراف الدكتور كامبفماير مدير معهـــد اللغـــات الشرقية ببرلين ، والذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك الى جانب أسماء طه حسين ، ومنصور فهمى ومى زيادة ، وغيرهم •

***

وانه لمن الشائق أن نعرف شيئا عن حالة الصـــحافة المصرية يومئذ ، وقد كانت فى الواقع تجوز مرحلة مختلطة النزعات كثيرة الانفعالات . وكان هذا هو الوقت الذى اشتد فيه الخلاف بين زعماء الامة ، الوفديين من جهـة ، والاحرار الدستوريين من جهة أخـرى (١٩٢٣ ـ ١٩٣٠) • ولم يك ثمة خلاف فى الغاية النهائية ، وهى تحقيق استقلال البلاد ، وجلاء المحتل عن أرضها ، ولكن الخلاف كان يشـــتد حول الوسائل ، وبالأخص حول طرق الاتصـــال بالحـــكومة البريطانية ، وطرق المفاوضات المنشودة حول تحقيق أمانى الامة ، ومن ثم فقد كان الجدل يشتد بين الفريقين ، وكانت الصحافة متنفس هذا الجدل المضـــطرم • وكانت جريدة السياسة ، هى بالطبع لسان الاحرار الدستوريين وأنصارهم فى هذه المعركة • وكانت جريدتا البـلاغ وكوكب الشرق ، هما لسان الوفد ، وكانت الاهرام تلتزم الحيدة بين الطرفين ، وتنشر مقالات فى تأييد أو نقد هذا الفـريق أو ذاك ، دون أن تتورط كعادتها فى تأييد رأى بذاته • وكانت ثمة جريدة

أخرى هى الاتحاد ، وهى تعبر عن وجهـــات نظر السراى ، ولكنها كانت ضئيلة الانتشار ، لا يحفل بأمرها ســـوى الدوائر المختصة • وكانت تشترك فى هذه المعركة المضطرمة أقلام عدة من الطراز الاول ، فكان ثمة من الجانب الوفدى ، عبد القادر حمزة ، وعباس محمود العقاد ، وحافظ عوض ، وزملاؤهم ، وكان ثمة من جانب الاحرار الدستوريين محمـد حسين هيكل ، ومحمود عزمى ، وطه حسين (فى البداية) وقد انتقل بعــد ذلك الى جانب الوفد وابراهيم عبد القادر المازنى (بعد ذلك) • وغير هؤلاء وهؤلاء وكان من أثر هذا الجدل المستمر ، وهذه المعـــارك الحزبية الملتهبة ، التى تغمرها أقلام هذا الرهط من أكابر الكتــاب ، وتتنافس فى ابراز وجهات نظرها بالاساليب العالية ، والبلاغة الفياضة ، ان ارتفع مستوى الكتابة الصحفية ونمت ثروتها البيانية ، وأصبحت الى جانب منافستها فى الجـــدل والنقـــاش ، تتنافس فى صوغ العبارات المختارة ، والتعـــابير البليغة • واستمرت هذه النزعة الى الاجادة فى الاسلوب والعبارة ، تسيطر على الصـــحافة المصرية فترة طويلة ، وكان يغذى هذه الاجادة سيطرة أكابر الكتـــاب يومئذ على المقـــالات الأفتتاحية والرئيسية • وكانت المقالة الصـــحفية يومئذ ظاهرة بارزة فى صـــحافتنا • وكان يغذيها كذلك خطب النواب البارزين فى البرلمان ، وكانوا يومئذ كثرة مشرقة • وكانت الحياة النيابية على وجه العموم مليئة بالمناقشـــات والجدل الجاد • واذا شئنا المقارنة ، فانه يسوغ لنا أن نقول ان صحافتنا المعاصرة (صحافة عهد الثورة) قد فقدت كثيرا من ثروتها البيانية القـــديمة ، وذلك أولا لاختفاء المقـــال الصحفى الرصين ، وقد كان مسرحا لابراز المقدرة البيانية ،

واختفاء جيل المصبحفيين العلمـــاء والمثقفين ذوى المعــــارف الواسعة والاقلام البليغـة ، فى ظل الحـكم المطلق ، وتحت وطأة النظم والتشريعات المقيدة الجـديدة ، وانهيـار الحيـــاة العلمية والادبية الرفيعة ، حيث لا يزدهر التفكير والآداب الا في ظل الآفاق الحرة ، وتأميم الصحافة وجعلها تابعة لما يسمي « بالاتيحاد الاشتراكى » ونزولها على سـياسة التوجيه المرسومة ، وسيطرة الاقلام المفرضة على المهنة الصحفية • وعلى الجملة فان أســـاليب الصحافة المصرية قد انحدرت الى مســـتوى مؤلم من الضـــعف والركاكة والاسفاف ، وانعدام النزعة المستقلة النزيهة المخلصة •

اول رحلة لى الى الخارج

فى أواخر أبريل سنة ١٩٢٦ ، دعتنى « السياسة » الى القيام برحلة صحفية الى فلسطين وسوريا والعراق وتركيا ، فلبيت مغتبطا ، وغادرت القاهرة ، وسافرت الى غزة بطريق خط سيناء الحديدى ، فى اليوم الثامن من مايو ، فوصلتها مبكرا فى صبـاح اليوم التاسع ، وركبت فى احدى السيارات الذاهبة الى بيت المقدس ، فوصلتها ضحى ، ونزلت فى الفندق الالمـانى ، وكانت فلسطين يومئذ تحت الانتداب البريطانى • وخرجت مبكرا فى صباح اليوم التالى فزرت المسجد الاقصى المبارك ، ووقفت طويلا تحت قبة الصخرة ، أتأمل ما كان محفورا على جدرانها من مختلف العبارات والاشارات الاسلامية والنصرانية • ثم زرت كنيسة القيـــامة الكبرى ، أو كنيسة القبر المقدس ، أعظم واشهر الاثار النصرانية ، ووقفت طويلا أتأمل واجهتها ومدخلها ، ومازلت أذكر أنه مكتوب على عتبتها اسم فيليب دوبيني فوق قبره ، وهو المؤرخ .•

وعلى يمينهـــا قبر جوفروا دى بويون قائد الحملة الصليبية الاول وأول ملك نصرانى لبيت المقـدس ، وعلى يســارها قبر آخر لا اذكر صاحبه ، وقضيت في التجـوال فيهـــا أكثر من ســـاعتين ، والى جانبى دليل من أدلائها ، يحدثنى بما نسج حول صليب السيد المسيح وحول دفنه من الخرافات ، وما يزعمون من جلده فى مكان معين من الكنيسة مع العلم بأن أول بناء فى موقع هذه الكنيسة المتعددة المبانى ، لم ينشأ الا بعد وفاة السيد المسيح بثلاثة قرون ، وأنشأته القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين الاكبر ، فوق البقعة التى تقول الاسطورة ان السيد المسيح قد صلب فوقها ثم دفن ، ويصفها بأنها بجوار « الجلجوتا » وقد كانت بقعة معروفة من بقاع سور بيت المقدس القديم ، وقد تواردت على خاطرى ، أثناء التجوال فى هـذا الصرح النصرانى العظيم ، كل ماقيل عن أسباب الحروب الصليبية ، وفى مقدمتها العمل على « انقاذ » قبر المســيح . ثم زرت بعد ذلك حائط المبكى ، واقبية فرسان المعبد .

ووفقا لبرنامج مهمتى الصحفية ، فقد بادرت فى اليوم التالى ، الى مقر اللجنة التنفيذية الوطنية ، ولم أوفق الى مقابلة سكرتيرها السيد جمال الحسينى لغيابه عن القدس . ولكنى ظفرت فيما بعد بلقاء السيد كاظم باشا الحسينى ، وتحادثت معـــه طويلا . ثم زرت رئيس البلدية ، ثم مقر اللجنة التنفيذية اليهودية . والتقيت فى المساء بالسيد عيسى البندك الصحفى صاحب جريدة.

ثم التقيت بعد ذلك بعـدد من الزعماء والعلمـــاء الفلسطينيين ، وفى مقدمتهم كاظم باشا الحســينى :

والاستاذين اسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني .
وكنت شديد الاهتمـــام بدراســـة وضع اليهود وأحوالهم ، فى ظل تصريح اللورد بلفور ، الذى توافق فيه الحكومة البريطانية على قيـــام وطن قومي لليهود بفلسطين فى ظل الانتداب البريطانى . ومن ثم فقد قمت بزيارة المستعمرات والمدارس اليهودية فى بيت المقدس . ثم زرت الجامعة العبرية ، وعلمت من عميد كلية الاداب، أن الجامعة بصدد الاستعداد لنشر كتاب تاريخ البلاذرى « فتوح البلدان » . وقد تبين فيما بعد أن كتاب البلاذرى المشار اليه ليس هو تاريخ « فتوح البلدان » ، وانمـا هو كتاب « أنســاب الاشراف وأخبراهم » وهو الذى يعرف أحيانا « بالتاريخ » وهو يقــع فى عشرين مجلدا كبيرا . وقد عنيت الجامعة العبرية بالفعل بعـد ذلك باصدار مجلدين من الكتاب على يد أســـــتاذين من أساتذتها ، هما المجلدان الرابع والخامس . وتولى تحقيق المجلد الرابع الاستاذ شلسنجر « سنة ١٩٣٨ » . وتولى تحقيق المجلد الخامس الاستاذ جواتين « سنة ١٩٣٦ » . ووقف مجهود الجامعة العبرية عند هذا الحد . ولم ينشر من الكتاب بعد ذلك سوى مجلد واحد اخر بالقـاهرة . وهو المجلد الاول « سنة ١٩٥٩ » . وكنت أتوق للاستماع الى وجهة النظر اليهودية . وكانت تمثـل اليهود عندئذ « الوكالة اليهودية » التى أقيمت بصفة رسمية لتعمل فى ظل الانتداب البريطانى . وكان من حسن الطالع أن كان من بين أعضائها الاستاذ نورمان بنتوتشين ، أســتاذى السابق بمدرسة الحقوق ، فسهل لى الاتصـــال بها . وتحدثت مع عدة من أعضائها ، وفى مقدمتهم الاستاذ بيك

الفيلسوف الالمانى الشهير ، والاستاذ ماير ، وسمعت منهم ، أنهم يلتزمون العمل بتصريح بلفور ، وليست لديهم اية نية للاعتداء ، بأية صورة على وضع الوطنيين أو حقوقهم .

وكان ممن زرتهم من ممثلى السلطة البريطانية ، المندوب السامى السير سايمس والسكرتير العام ، وأستاذى السابقين فى الحقوق نرمان بنتوتشن ، وكان يشغل منصب النائب العام والاستاذ جودى ، وكان يشغل منصبا قضائيا آخر ، وحاكم القدس ، ومستر بومان مدير المعارف .

ثم زرت ضاحية بيت لحم ، بدعوة من صديقى الاستاذ عيسى البندك ، وكان يسكن بها ، وكان ذلك يوم الاحد ١٥ مايو ، وتناولت لديه طعام الغداء . وطاف معى الاستاذ البندك بعد ذلك فى كنيسة المهد ، وغيرها من الاثار النصرانية القديمة . وتحاط بيت لحم وآثارها المقدسة بشعور عميق من الاحترام والاجلال .

وقد خرجت من زيارة أحياء بيت المقدس القديمة ، وآثارها المقدسة الاسلامية ، والنصرانية بشعور عميق من الاجلال ، لتاريخ هذه المدينة العظيمة العريقة التالدة .

وقد قرأت فيما بعد الكثير عن تاريخها ، وتاريخ صلاح الدين ، منقذها من أيدى الصليبيين ومازلت اليوم بعد خمسين عاما من زيارتها ، وقد كانت مع الاسف أول وآخر زيارة لى ، أتصور فى ذهنى ذلك الجلال المهيب الذى يحيط بأحيائها وآثارها المقدسة .

وأما عن الشعب الفلسطينى ذاته ، وعن أحواله الاجتماعية يومئذ ، فانه لم تتح لى فرص كثيرة للامتزاج به ، ولم أخرج عنه بانطباعات خاصة . وكل ما لفت نظرى هو اتصال الفلسطينيين فى بيت المقدس باليهود اتصالا عاديا

فى الحياة العامة والخاصة ، ومعرفة الكثير من شـبابهم للغة العبرية ، وتحدثهم بها مع اليهود ، وتزوج الكثير منهم بزوجات يهوديات فى غاية الحسن والجمال .

مقابلة الامير عبد الله بن الحسين

وقد كانت امارة شرق الاردن ، قد أخرجت من سلطة الانتداب البريطاني ، ووضعت تحت امارة الامير عبد الله بن الحسين ، وقد رأيت أن اسعى الى زيارة الامير وأحصل منه على حديث صحفى . فسافرت بالسيارة الى عمـان مبكرا فى يوم الاثنين السادس عشر من مايو ، ومررت فى طريقى بمدينة السلط ، وهى مدينة صـغيرة تقع فوق ربوة صخرية عالية . ثم تابعت سفرى حتى وصلت الى عمان بعد الظهر بقليل . وقمت فى الحال بمقـابلة رئيس الديوان حسن بك العارف ، فاتصـل بسـمو الامير فى « المقر » ، وتفضل سموه بأن حدد لى الساعة الرابعة من نفس اليوم موعدا لزيارته .

وكنت قد سمعت الكثير عن ذكاء الامير عبد الله وفطنته وحزمه . وقد سمعت حين زيارتى للمندوب السـامى السير سايمس ، وعلمه بنيتى فى زيارة الامير ، سـمعت منه هذه العبارة وصفا للامير « The Emir is a shrewd man » ولم أعرف ان كان يقصد أن الامير رجل فطن أم رجل ماكر .

واستقبلنى سمو الامير فى تمام الساعة الرابعة ، فى قصره المسمى « بالمقر » وكان يقع فوق ربوة عالية ، اجمـل استقبال ، وكان الامير رجلا متوسط القامة ، اسـمر اللون ، بادنا بعض الشىء ، يرتدى الثياب العربية . وعلى رأسه عقال مذهب . فلبث فى حضرته اربعين دقيقة ،

وحادثته فيما شئت من الشئون السياسية والاجتماعية والادبية . وأذكر حينما تحـــدثنا عن الحركة الادبية فى مصر ، أن وصفها الامير « بأنها تغلى كالمرجل » وكان الامير يتحدث بعربية جميلة فصحى ، ويبدو واســع الاطلاع والمعرفة فى سائر ما تحدثنا فيه .

وودعت الامير ، مرتاحا الى جميل ترحيبه ، ووافر رقته وأدبه ، بعد أن امر باتحافى بصــورة فاخرة له ، مذهبة الاطار ، وقد احتفظت بها لدى زمنا طويلا ، ولكنى لا ادرى اليوم أين ذهبت . وعدت الى القدس فى مساء نفس اليوم .

واذكر أنى بعد ذلك بأعوام طويلة ، قرات نبأ مقتل الامير فى سنة ١٩٥٤ ، فى احدى الصحف الاســـبانية ، حين خروجى فى الصباح من فندقى بمدينة قرطبة .

***

وفى اليوم التالى ، الثلاثاء ، السابع عشر من مايو ، سافرت عصرا الى تل أبيب ، فوصلت اليها عند الغروب ، ونزلت فى فندق هرتسليا . وكانت تل أبيب يومئذ ، فى أطوار نشأتها الاولى ، ولكنها كانت تنمو بسرعة ، واضحت تضم كثيرا من الاحياء والصروح الانيقة . واذكر ان معظم المقاهى ، كانت تقع فوق أسطح العمارات . وقد زرت فيما زرت ، من دور الاعمـــــال بهـــا ، مركز مشروع « روتنبرج » ، وقــد كان يومئــذ من أكبر المشـــاريع الكهربائية ، التى يقوم اليهود بانشائها ، وكان لاقامتــه صدى عظيم . وقابلت من رجاله المستمر فاينهال ، فشرح لى أغراضه ومراحل عمله . ثم زرت بعد ذلك دار جريدة « الهاآرتز » ، وقد كانت يومئذ ، ومازال الى اليوم فى طليعة الصحف اليهودية .

السفر الى بيروت

وفى يوم الخميس التاســــع عشر من مايو سافرت بالسيارة الى بيروت ، فوصلت اليها عصرا . وكانت لبنان يومئذ تقع تحت الانتداب الفرنسى ، ويعيش أهلها على الاسلوب الفرنسي فى كل شيء . وقد أنفقت بها أربعــة أيام ، وقابلت بها رئيس الوزارة ، ورئيس مجلس الشيوخ والنواب . وزرت جريدة الاحرار ، وكلية بيروت ، ولم أجد بها ما يستحق بحثا ولا درسا .

السفر الى دمشق

وفى يوم الاربعاء ٢٥ مايو ، سافرت صباحا بالسيارة الى دمشق ، وذلك بعد أن اشتريت من احدى شركات السيارات من بيروت ، تذكرة السفر الى بغداد بالطريق الصحراوى ، وكان أكثر الطرق المسلوكة يومئذ . فوصلت الى دمشق بعد الظهر بقليل .

وكان لدى برنامج حافل من زيارة المعاهد ، وأكابر العلماء والساسة . ولم يخطر ببالى يومئذ انى سوف أحرم فجأة من تنفيذ برنامجى فى التجول فى المدينة التاريخية العظيمة ، ومشاهدة آثارها العريقة التالدة . وكل ما استطعت أن أزوره من آثارها ، هو الجامع الاموى العظيم ، وبه قبر بطل الاسلام الاكبر ، الملك الناصر صلاح الدين . وقــد استطعت فى اليوم التالى من اقامتى ، أن أقابل الامير طاهر الجزائرى ، ورئيس الوزارة الشيخ تاج الــدين الحسنى ، وكنت قد تعرفت به قبل ذلك بالقــاهرة ، والاستاذ احمد كرد على عضو المجمع العلمى ، وشــقيق

صديقنا العلامة الجليل الاستاذ محمد كرد على ، وكان يومئذ غائبا عن دمشق . وفى صباح اليوم التالى زرت دار الامارة ، وكانت سوريا يومئذ تحت الانتداب الفرنسى، وكان يشغل منصب الامير ، أو رئيس الدولة الداماد احمد فامى . وقابلت الداماد ، بموعد سابق ، فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، ومكثت معه قليلا ، وتبادلت معه بعض أحاديث سطحية ، لانه كان مقلا من الكلام . ولم استمع منه الى اى راى سياسى أو موضوع ذى أهمية وغادرت دار الامارة الى فندقى . وما كدت أدخل غرفتى ، حتى طرق الباب ، ففتحت لارى من الطارق ، فوجدت اثنين من رجال الشرطة ، وقد أنذرانى ، بأنه وفقا للأوامر الصادرة ، يجب أن لا أغادر غرفتى ، ولا اتصل بأحد حتى اليوم التالى ، حيث يجب أن أستقل السيارة الى بغداد ، وهى سيارة الشركة التى اشتريت منها تذكرة سفرى . وقد حاولت عبثا أن يسمح لى بأن اتصل بالسفارة المصرية ، سواء ، زيارة أو تلفونيا ، وهكذا امتنعت من كل اتصال . ولزم الشرطيان مكانهما أمام غرفتى ، حتى المساء ، ثم طول الليل ، حتى صباح اليوم التالى . ولم أجد مفرا من النزول عند تلك الاوامر، وحزمت حقائبى . وفى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ، غادرت الفندق فى حراسة الشرطيين ، وسرت الى موقف السيارات المسافرة الى بغداد ، وأخذت مكانى الى جانب السائق فى السيارة الاولى ، التى تتقدم القافلة ، وكان يومئذ يختبر أفضل أماكن السفر ، ووضعت بها حقائبى ، وركب الشرطيان معى فى نفس السيارة . وعند الحدود السورية غادرا السيارة وتركانى وشأنى . فتنفست الصعداء ، وسارت القافلة تخترق متاهة

الصـــحراء العربية ، وليس أمامنـــا سوى الافق البعيد .
وبعد نحو ثلاث ساعات ، وصلنا الى قاعـدة الرطبـة العسكرية العراقية ، واستراحت القافلة قليلا . وانتهزت هذه الفرصة فأرسلت من الرطبة الى الدكتور حافـظ عفيفي بالقاهرة برقية ، ذكرت له فيها ما تم من ابعـادى عن سوريا لاسباب اجهلها ، وتوجهى الى بغـداد . ثم سارت القافلة من الرطبة مسرعة الى بغداد ، فوصـلنا اليها فى الساعة الحادية عشرة ، بعد أربع ساعات قضيناها فى اختراق الصحراء العربية الكبرى من غربها الى شرقها . وكان ذلك يوم السبت الثاني والعشرين من شهر مايو .

فى بغداد

ودخلت بغداد ، وفى ذهنى ذكريات كثيرة عن مدينـة المنصور وهارون الرشيد ، فتبدد الخيال من ذهنى فورا ، ولم أجد حين اختراق المدينة التالدة ، سوى صـــور باهتة ، وشوارع شرقية قفرة ، وصروح وأبنية متواضعة ، ولم يقع بصرى الا على القليل من المســاجد والصروح الاثرية . وكان الحر بالمدينة خانقا ، حتى انى رأيت معظم نزلاء الفندق الذى فيه ، يصعدون مساء للنوم فى العراء فوق سطح الفندق ، وهو ما لم أكن أســتطيع فعـله .
وكان أول من سعيت الى لقائهم الملك فيصل بن الحسين ، ملك العراق يومئذ وكانت العراق ، مثل فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وتمت مقابلتى لجلالته فى الســاعة الخامسة من مساء يوم الاربعاء أول يونيــه . ودامت المقابلة ساعة ونصف تحدثنا فيها عن الكثير من الشئون العراقية ، والعربية . وكان الملك فيصل ، رجلا ممشوق

القامة ، هادىء الطبع ، جب الادب والتواضع ، جـذاب الشخصية ، فأنست بلقائه وجميل ترحيبه .

وكان ممن قابلتهم وتحادثت معهم من رجالات العراق يومئذ ، نورى السعيد باشا رئيس الوزارة ، وكان شخصية جذابة ، ومتحدثا بارعا ، وقد أقام لى مأدبة عشـاء بالمدرسة الحربية ، على ضفة نهر دجلة ، وعقدت بينى وبينه مودة استمرت أعواما . وقد قابلته بعد ذلك غير مرة بالقاهرة . ويسن باشا الهاشمى ، وجعفر باشـا العسكرى ، وبعض شخصيات أخرى أدبية وصحفية لا أذكرها .

ولم تجذبنى مدينة بغداد ، ولا مناظرها ، ولا خططها ، ولا آثارها الضئيلة ، ولا مجتمعها الجـاف البـاهت ، خصوصا وقد كانت تشغلنى طول الوقت مسألة ابعـادى عن سوريا ، والبحث عن طريق آخر ، اجوز منـه الى تركيا . ولما اعيانى التفكير فى ذلك ، قررت أخيرا أن أعود الى بيروت عن طريق سوريا ، وأسافر منها الى تركيـا بطريق السكة الحديدية « سكة حديد الشرق » .

وغادرت بغداد يوم الخميس ، الثانى من يونيه ، وسافرت بالسيارة عائدا من نفس الطريق الصحراوى الى بيروت ، وكنت طول الوقت ، اخشى أن يقع لى ما يكدر حين المرور بدمشق . ولكن وقعت المفاجأة حينما وصلت السـيارة الى قلب دمشق ، واشتريت احدى صحفها ، واذا بى اقع على بلاغ رسمى خاص بحادث ابعادى ، وفيه تنكر السلطات السورية حادث الابعـاد ، وتذكر أنى تركت سوريا بمحض ارادتى ، وانى حر فى العودة اليها ، أو الخروج منها حسبما اشاء !

وقد علمت فيما بعد أن برقيتى التى أرسـلتها الى

الدكتور حافظ عفيفى من الرطبة ، كان لها وقع عميق ، وأن حادث ابعادي قد أنهى الى وزارة الخارجية ، فقامت بالاحتجاج بشدة لدى السفارة الفرنسية بالقاهرة . ومن ثم فقد عمدت السلطات السورية أو بعبارة اخرى السلطات الفرنسية فى سوريا الى انكار الحادث ، واصدار بلاغها الذى سبقت الاشارة اليه .

***

واني لانتهز هذه الفرصة لكي أوضح سبب موقف السلطات الفرنسية بالقاهرة منى ، وهى العامل الحقيقى وراء حادث ابعادي عن سوريا . وقد سجل اسمى لديها من ذلك الوقت ، فى قائمة الممنوعين من دخول أراضى الانتداب والمستعمرات الفرنسية . وذلك انني قمت قبل سفرى بعامين ، خلال عملى بجريدة السياسة ، بترجمة وتلخيص عدة مقالات ظهرت فى صحيفة Berliner Tageblatt الالمانية ، وقد كانت يومئذ كبرى صحف برلين الديمقراطية ، بقلم الدكتور هانز دلبرك ، وفيها يتحدث عن مسئولية الحرب العالمية الاولى ، وعلى من تقع هذه المسئولية فى الحقيقة ، ويقدم عدة وثائق سياسية ، كتبها قبل الحرب المسيو ازفولسكى ، سفير بولونيا فى فرنسا ، وفيها ينوه برحلة مسيو بوانكاريه رئيس جمهورية فرنسا يومئذ ، الى بتروجراد «سنت بترسبرج» ، واتفاقه سرا مع القيصر الروسي على القيام باعلان الحرب على المانيا ، ويقدم عديد الادلة على أن مسئولية هذه الحرب ، تقع أولا على فرنسا وروسيا ، وليس على الامبراطورية الالمانية . ونحن نعرف أن معاهدة الصلح

التى امليت فى فرساى على المانيا المهزومة ، تقرر فى موادها ان مسئولية الحرب تقع على المانيا ، وان المانيا اضطرت قسرا الى قبول المعاهدة بسائر نصوصها ــ ولكن مندوبها، دحض فى خطابه فى مؤتمر الصلح هذه المسئولية وقال بالنص « ان القول بمسئولية المانيا يعتبر من فمى كذبا » .
والخلاصة أن ما حدث من ظهور خلاصة مقالات الصحيفة الالمانية الكبرى بتوقيعى ، كان له أسوأ الاثر فى السفارة الفرنسية بالقاهرة . وكان أول رد فعل لهذا الحادث الصحفى ، ما أوعزت به السفارة الفرنسية بالقاهرة الى سلطات الانتداب الفرنسي فى سوريا ، بابعادى حين وصلت اليها . وامتد هذا الاثر فيما بعد أعواما طويلة ، وعبثا حاولت غير مرة ، ان أطلب من القنصلية الفرنسية بالقاهرة التصريح لى بزيارة المغرب أو تونس للقيام بدراسات علمية فى مكتباتها، فكان الرد دائمايأتى بالرفض، وذلك رغما عما لجأت اليه غير مرة من توسيط صديقى المغفور له العلامة الاستاذ ليفى بروفنسال فى ذلك ، وكان يومئذ يشغل مناصب علمية رفيعة فى المغرب والجزائر ، ولكن شيئا واحدا لم تحاول أن تعمد اليه السلطات الفرنسية بالقاهرة ، وهو منعى من دخول فرنسا ذاتها . فكانت تعطينى دائما تصريح الدخول اليها ، وقد سافرت اليها فيما بعد مرارا وتكرارا ، واكثرت من التجوال فى باريس العظيمة ، وقمت بدراساتى غير مرة فى مكتبة باريس الوطنية . وكتبت عن رحلاتى عدة فصول نشرت فيما بعد فى مجلة الرسالة .
هذا ، وقد انقشع بحمد الله كابوس الاستعمار الفرنسي عن تونس والجزائر والمغرب ، وأصبحنا جميعا

احرارا في دخول هذه البلاد الشقيقة العزيزة المستقلة ، الحرة ، كلما شئنا .

السفر الى تركيا

وصلت الى بيروت للمرة الثانية ، يوم الجمعة الثالث من يونيه . وسافرت منها في الساعة الحادية عشر ليلا الى حلب بطريق قطار الشرق ، فوصلت اليها عصر يوم الاحد الخامس من يونيه . وفي حلب قابلت الاستاذ سامي الكيالي ، وعقدت بيننا من ذلك الوقت صـلات ودية مستمرة . وفي مساء اليوم التالي ، السادس من يونيه ، ركبت القطار من حلب الى استانبول . وسار بنا القطار خلال الليل حثيثا يخترق وهاد الاناضول . وكنت أركب بالدرجة الاولى في أحد الصالونات مع طالب فارسي يدرس في المانيا ، وفي أحد المحطات صعد الى صالوننا ثلاثة من الضباط الترك . وما كادوا يجلسون حتى اخرجوا من حقائبهم زجاجات « الزبيب » وبضعة كؤوس ودعونا لنشاركهم في الشراب ، فاعتذرنا . وعكفوا على الشراب بلهفة وشره حتى سكروا ، ووقع احدهم على الارض ، فنظر الى الشاب الفارسي ، وقال لي بالالمانية ـ وكنا نتحدث بها ـ « هل لديكم مثل هذه الاشياء ؟ » ، فقلت : لا . وكان هذا أول منظر تقع عليه عيني من أوضـاع تركيا الكمالية ، وجيشها التحريري .

ووصلنا الى استانبول الثامنة من مساء اليوم التالي ـ الاربعاء السابع من يونيه ـ وكان عبوري البوسـفور من محطة حيدر باشا ، تحت الاضواء الساطعة وكان منظرا رائعا . وقد تمثلت في ذهني ، في صور متعاقبة :

بيزنطية القديمة ، ثم قسطنطينية العظمى بلد القياصرة ، ثم استانبول بلد السلاطين ، وسارت بنا العربة فى طريق صاعد صوب حى « بيوغلى » ، حيث كان فندقنا قريبا فى هذا الحى ، وكنت بالرغم من طول الرحلة الليلية ، نشطا مرحا . فلما كدت أصل الى الفندق ، حتى لاحظت أنه يوجد بجواره أو فى بنائه منتدى ليلى « ميوزيك هول » فصعدت الى غرفتى ، واصلحت شأنى من وعثاء السفر ، ثم نزلت الى مطعم الفندق فتناولت عشاء خفيفا . ثم ازدلفت الى المنتهى الليلى ، وكان ساطع الانوار ، وبه موسيقى راقصة جميلة ، تضرب عندئذ أنغام « الشارلستون » وكانت يومئذ آخر صيحة ، فى عالم الرقص ، فأخذت مكانى فى هذه الحفل المرح ، ورقصت بضعة مرات .

وهنا أستميح القارىء أن أذكر له انى كنت من عشاق الرقص وموسيقاه . وكنت قد تعلمت هذه الرياضة فى القاهرة منذ نحو عامين ، وكنت أجيد رقصة الشارلستون وغيرها من رقصات العصر ، ولا سيما « التانجو » . واود أن أقول انه كان لتعلمى هذه الرياضة ، وممارستها فى كثير من الاحيان اثر كبير فى تحسن صحتى ، واحتفاظى برشاقة قوامى ، التى مازلت احتفظ بها حتى اليوم فى عمرى المتقدم ، وأنا أكتب هذه السطور وكنت خلال رحلاتى الاوربية العديدة ، لا أترك فرصة متاحة لمزاولة هذه الرياضة ، فكنت امارسها كثيراً فى فينا ، فى الكورصالون ، والباكوس ، وفى باريس فى الكولوزيوم وغيرها من الابهاء الاوربية . وكان اختيارى لمصاحباتى من الفتيات ينصب دائما ، لا على الفتاة الجميلة ، ولكن على الفتاة الرشيقة التى تجيد الرقص . وكانت هذه الرياضة ، تكلفنى غالبا ، ولاسيما خلال رحلاتى الاوربية ، ولكنى

كنت أجود دائما بنفقاتها مرتاحا ، كما كنت أجود مرتاحا بنفقات حفلات الاوبرا والموسيقى النمسوية ، وكنت من عشاقها ، أشهدها بانتظام ، طوال آقاماتى العديدة فى فينا .

***

وكان أمامى فى تركيا برنامج حافـل ، ومقـابلات ودراسات كثيرة تتعلق بما وقع فى تركيا فى الاعـوام الثلاثة أو الاربعة الاخيرة ،من تطورات وتغييرات جوهرية كأثر للحركة الكمالية التى كانت تعمل يومئذ بحماسة مضاعفة لتغيير سائر معالم الحياة القديمة فى تركيا ، وقد بدأت منذ اليوم التالى لوصـولى الى اسـتانبول ، بزيارة الاثار الشهيرة ، البيزنطية والتركية • فبـدأت بزيارة جامع أيا صوفيا (أو كنيسة أيا صوفيا) جوهرة الآثار البيزنطية • وكانت يومئذ جامعا تقام فيه الصلوات وكانت نقوشها البيزنطيـة ، قد حجبت بالطـلاء منذ افتتاح الترك العثمانيين لقسطنطينيـة فى مايو سـنة ١٤٥٣ ، وتحويلها الى جامع للصلاة ، وقد نقشـت فى أركان صحنها العظيم المستطيل أسماء الله ومحمـد فى الواجهة ، والخلفاء فى الجوانب الاربعة • وقد أمر كمال أتاتورك فيما بعد بالغاء صبغتها الدينية كجـامع تؤدى فيه الصلاة ، وأزيلت منها النقوش الاسلامية ، وأعيدت نقوشها البيزنطية ، وحـولت الى متحف تاريخى • ثم زرت من بعدها جوامع السـلطان أحمد ، والسـلطان سليمان ، وجامع الفـاتح ، وبنى جـامع ، وغيرها •

وأستطيع أن أقول انه لا يوجد بين جوامع اســـتانبول العديدة ، وهي كلها آيات في الجمال والرشاقة ، جامع يدلى بطراز اسلامى خاص ، انها جميعا أو معظمها تكاد تكون نسخة من طراز أيا صوفيا ، ففي أعلاها مجمـوعة القباب الصغيرة ، والمنارتان الرفيعتان الرشـــيقتان ، تميزان هذا الطراز البيزنطى الاياصوفى من الجوامع • ولدينا فى القاهرة من هذا الطراز جامع محمد على بالقلعة وجامع الست صفية الواقع فوق ربوة خلفية فى شــارع محمد على ، على مقربة من باب الخلق •

ثم زرت الاثار القيصرية القديمة ، عمود اركاديوس ، والهيبدروم (آت ميدانى) ومغاور البازيلكا ، والمتاحف البيزنطية • وبعد أن أقمت فى استانبول خمســة أيام سافرت بالقطار الى أنقرة ، عاصمة تركيا الجديدة ، فى يوم الاثنين الثالث عشر من يونية ، فوصـــلتها فى ظهر اليوم التالى •

وكان لدى فى أنقــرة برنامج حافل ، وكانت أنقــرة ما تزال يومئذ بلدا صغيرا يقع فى عمق الوادى ، وتحف به الجبال ، وأنقرة هذه هى التى سحقت فيها جيــوش التتار بقيـــادة عاهلهم الاعظم تيمور لنك ، الجيـــوش العثمانية بقيادة السلطان بايزيد الاول سنة ١٤٠٢ م ، وأسر فيها بايزيد ، ووضعه خصمه الظافر ، حســـبما تقول الاسطورة ، فى قفص من الحديد ، ولم يكن بأنقرة سوى بضعة شوارع صغيرة ، وقليل من المبانى • وكانت مع ذلك مراكز السفارات الاجنبية • وكان سفيرنا بهـا يومئذ ، صديقى المرحوم عبد العظيم راشد باشا • وكان من معاونيه كسكرتير أول ، صديقى وزميلى فى الدراسة

المرحوم ابو العينين سالم ، وقـد انسـت يومئذ كثيـراً بوجـوده الى جانبى . وكنت بالطبع اتصـل بممثلينا الدبلوماسيين حيث كنت . وكان أول من اتصلت به منهم فى استانبول قنصلنا العام المرحوم الاستاذ الجزايرلى بك (وقد نسيت اسمه الاول) . وقد أطلعنى على تقـرير واف كتبه عن أحوال تركيا ، وتفاصيل الحركة الكمالية فاستفدت كثيرا من قراءته ، كمـا استفدت كثيرا من نصائحه وتوجيهاته .

وكان أول من اتصلت به من رجال الحركة الكمـالية فى انقرة ، وزير الخارجية توفيق رشدى بك ، الذى تسمى فيما بعد « برشدى اراس » ، وذلك وفقا لبرنامج تغيير الاسماء القديمة « والمعربة منها خصوصـا » الى اسماء تركية محضة . قابلته فى الساعة السادسة من مساء يوم وصولى ، فاستقبلنى بترحاب ومودة . وكان حديثنا بالفرنسية ، وهى التى كان يتحدث بها معظم من قابلتهم . وحدثنى عن كثير مما طلبته منه من التعرف على برامج الحركة الكمالية واتجاهاتها . وحدثنى عن زعيمه مصطفى كمال وقال لى أنه لا يكاد يقابله حتى يشعر بالرجفة تسرى اليه ، وأنه لا يقابل رجال الدولة الا بعد منتصف الليل . وقد سمعت بعد ذلك من بعـض العارفين ، أن مصطفى كمال أو أتاتورك كما تسمى فيما بعد ، كان ينفق السهرة دائما فى الشراب ، ولا يكاد يفيق الا فى منتصف الليل فيقابل الوزراء ، ويباشر الاعمال .
وفى يوم الثلاثاء ١٦ يونيه ، استقبلنى كاظم باشا رئيس الجمعية الوطنية بعد الظهر بقليل فى مركز الجمعية . ثم [illegible] وزير الداخلية . ثم وزير الحقانية ، ثم

زرت البرلمان « الجمعية الوطنية » فى الساعة الرابعة من ذلك اليوم .
وفى المساء تناولت العشاء فى السفارة المصرية مع سفيرنا عبد العظيم راشد باشا ، وبعض الاخوان المصريين .
وكانت أهم زيارة قمت بها فى أنقرة ، هى زيارة مكتب الاركوس أو المكتب التجارى الروسى الملحق بالسفارة السوفييتية . وقد كان هذا المكتب يتولى عندئذ تنظيم العلاقات التجارية لروسيا السوفييتية فى البلاد التى يقوم فيها ، ويتولى أحيانا تنظيم بعض العلائق الدبلوماسية غير الرسمية ، مع البلاد التى لم تعترف بروسيا ، ولا ترتبط معها بأى تمثيل دبلوماسى ؛ وقد كانت هذه حالة روسيا فى اتصالاتها بمصر ، التى لم تكن قد اعترفت بها بعد . وكان التبادل التجارى مع مصر ، ولا سيما الحصول على القطن المصرى ، من أهم المسائل التى تشغل بال روسيا يومئذ ، وكانت مصر أيضا يهمها فى ذلك الوقت أن توسع نطاق تصريف قطنها فى الخارج بأحسن الظروف والشروط . وقد زرت مكتب الاركوس خصيصا لدراسة هذا الموضوع وتحادثت فى شأنه مع مدير الاركوس ، وفهمت منه أن روسيا يهمها أن تحصل على القطن المصرى ، وفق ما تحبه مصر ، وبالاسعار والشروط التى تضعها ، ورجانى أن أبرز ذلك بصورة واضحة ، فيما انشره فى الصحف المصرية عن هذا الموضوع . وكان الحديث يدور بيننا على مائدة عشاء ، ودعيت اليها فى مكتب « الاركوس » ، وفيها تناولت شراب الفونكا الروسى لاول مرة فى حياتى ، وكان شديد الوطأة ، فأمسكت بعد تناول القليل منه ، ولم أتناوله فى حياتى بعد ذلك قط .

وقد نجحت مساعي « الاركوس » فيما بعد فى الاتصال بالحكومة المصرية ، فى شأن الحصول على القطن المصرى، واستجابت مصر لهذا المسعى ، وعقدت الصفقات الاولى بين الفريقين ، وكان ذلك بداية انتهت فيما بعد ، باعتراف مصر بروسيا السوفييتية ، وتبادل التمثيل السياسى بين البلدين .

وفى اليوم التالى ، ١٨ يونيه ، قابلت صفوت بك سكرتير حزب الشعب ، وهو حزب الاغلبية فى الجمعية الوطنية، وذلك فى دار المجلس النيابى القديم .

ولبثت فى انقرة يوما آخر ، قابلت فيه ضيا بك ، وكمال بك ، وهما أيضا من زعماء الحركة الكمالية .

ثم غادرت أنقرة فى الساعة الخامسة مساء يوم الاثنين ٢٠ يونيه بالقطار الى استانبول ، فوصلتها ظهر اليوم التالى .

وكان القطار بطيئا ، فاستطعت أن القى فى الذهاب ، وفى الاياب ، نظرات خاطفة على وديان الاناضول وجبالها ، وعلى معظم المدن التركية : بورصة ، عاصمة آل عثمان القديمة ، واسكي شهبر ، وأفيون قره حصار ، وازميت، وغيرها .

وكان أمامى فى استانبول برنامج جديد من المقابلات والدراسات . وكان ممن قابلتهم هذه المرة ، بعض السيدات البارزات من أنصار الحركة الكمالية ، مثل نزيهة هانم محيى الدين ، ونقية هانم ، وقد تحدثت معهما فى شئون المرأة التركية فىعهدها الجديد ، وما طرأ على وضعها من التغييرات والاتجاهات الجديدة ، ثم زرت مكتب الزواج المدنى الجديد ، وأطلعت على بعض نماذج من وثائقه .

وعاودني الحنين عندئذ الى زيارة الآثار البيزنطية مرة اخرى ، فقصدت الى الهيبدروم . « آت ميدانى » أو ميدان سباق الخيل الروماني ، وتفقدت الآثار الرومانية مرة اخرى ، والتقيت عندئذ بالعلامة الاثرى الانجليز الاستاذ كاسون Casson وكان يرأس بعثة تقوم بحفريات فى هذه المنطقة البيزنطية القديمة .

ثم زرت القنصلية المصرية فى استانبول مرة اخرى ، وقابلت قنصلنا الجزايرلى بك لاحييه تحية الوداع ، ولارد اليه تقريره القيم الذى اعارنى اياه ، ووقفت منه على الكثير من شئون تركيا الجديدة .

وقد تعذر على أن أحصل على صور أكابر زعماء الحركة الكمالية ، وفى مقدمتهم الزعيم كمال اتاتورك ، وعصمت باشا ساعده الاول .

هذا ، ولم تكن قد وقعت بعد فى تركيا تلك الانقلابات والتغييرات المثيرة التى أحدثها اتاتورك فى الشئون الاسلامية مثل الغاء الأذان الاسلامى والصلاة بالعربية ، وما أحدث فى اللغة التركية من حذف أصولها العربية المستعارة والغاء الكتابة بالحروف العربية القديمة ، واستبدالها بالحروف اللاتينية ، وغير ذلك مما أثار سخط العالم الاسلامى ، وانتهى بسلخ تركيا من جماعة الامم الاسلامية ، التى كانت تتولى زعامتها فى ظل الخلافة ، مدى قرون ، وتوجيهها الى الاندماج فى حظيرة اوربا النصرانية . وقد كان ذلك كله ينم عن حقد دفين للاسلام والعروبة فى صدر هذا الزعيم اللا دينى ، الذى يقال انه يرجع الى أصل يهودى من طائفة « الدونمة » البلقانية .

وكانت الكتب والصحف حتى وقت زيارتى ، تطبع كلها

بالحروف العربية ، وكانت من اجمل نمـــاذج الطباعة العربية .

ولم استطع خلال اقامتي القصيرة بتركيا ، ان اتبين سمات الشعب التركي الجديدة ، بيد أنني شعرت انني أمام شعب حائر لم يستقر بعد على أوضاعه الجديدة ، وقد استطعنا فيما بعد ، أن نتبين هذه السمات في الجيل التركي الجـــديد ، الذي نشأ على تراث الثورة الكمالية ، في الاربعينات والخمسينات ، وذلك بالاتصال بكثير من المواطنين الترك من مختلف البيئـــات ، في مختلف البلاد الاوربية . ثم بالاتصال بمن كنا نراهم من الزملاء الترك معنا في مختلف المؤتمرات ، ولا سيما في مؤتمرات الملتقي الاسـلامي العـديدة بالجزائر : شعب أعجمي باهت متوسط الثقـــافة والعلم ، ضعيف كل الضعف ، في ميدان العلوم والمعارف العربية والاسلامية، لا يتسم بأية مميزات لامعة ، ولا بأية حماية للعروبة والاسلام .

***

وكنت عندئذ قد أعددت العـدة للعودة الى مصر ، ووقع اختياري على ركوب الباخرة « عباسية » التابعة لشركة الخطوط الخديوية ، فاستقلتها ، واقلعت بنا من مياه البوسفور في صباح يوم الاحد السادس والعشرين من يونيه . ولما وصلت الى أزمير توقفت بضع ساعات ، سعدت خلالها بلقاء صديقي العزيز الدكتور حسين حسني (باشا) يومئذ قنصلنا في أزمير ، واستطعت أن القى

نظرة خاطفة على أزمير ، وكان مما لفت نظرى وأثار دهشتى ما رأيته فى شوارعها من سير عربات «سوارس» التى تجرها الخيل كوسيلة من وسائل المواصلات فى المدينة . ثم تابعت السفينة سيرها فوصلت الى الاسكندرية يوم الخميس آخر يونية سنة ١٩٢٧ .

وهكذا انتهت بحمد الله هذه الرحلة الاولى من رحلاتى الخارجية ، التى تعددت فيما بعد ، بعد أن استغرقت ثمانية وثلاثين يوما ، وحفلت بكثير من المشاهدات والدراسات .

وقد كتبت عن دراساتى فى هذه الرحلة ، وعن أحاديثى الصحفية الهامة بها ، عدة مقالات نشرت تباعا فى « السياسة الاسبوعية » ، وقد كان أبرز ما فيها ، الفصول التى كتبت عن الحركة الصهيونية والاحياء اليهودى ، ثم عن تركيا والحركة الكمالية .

قصة زواجى

فى صيف سنة ١٩٣٠ ، سافرت الى فينا ، وفى نيتى ان أسعى الى التعرف بآنسة نمسوية أقترن بها . وكنت قد حاولت ، قبل ذلك بأعوام ، أن أحقق هذا العزم بمصاهرة أحد الاسر المصرية المحترمة ، فسعيت الى الاتصال بأكثر من أسرة بالقاهرة ، ولكنى شعرت انه توجد ثمة أفكار وتقاليد رجعية لدى معظم هذه الاسر ، وفى مقدمتها ان طالب الزواج يحسن أن يكون موظفا فى الحكومة ، وان الوظيفة تعتبر عنوان الكفاءة والقبول . وقد ذكرت فيما تقدم ، أننى لم أفكر فى بداية حياتى

العامة فى التوظف فى الحكومة ، واننى آثرت للعمل الحر فى المحاماة والصحافة . ومن ثم فقد رأيت ان أترك الاسر المصرية وشأنهـا فيمـا تحب ، واتجهت الى الزواج من فتاة أوربية . وآثرت أن تكون هذه الفتاة نمسوية أو المانية . ومن ثم فقد سافرت الى فيينا ، ولم يطل بحثى ، حتى تعرفت بأسرة نمسوية متوسطة ، عميدها مهندس زراعى ، وله ابنة شـابة فى الثانية والعشرين من عمرها تدعى يوهنا . وقد زرت الاسرة بمنزلها بحى براتر ، وكانت تتألف من الاب وزوجته ، وهى سيدة جميلة وقورة ، وهى ليست أم الفتاة ، اذ كانت الابنة يتيمة الام . فراقنى ما شهدته لدى الاسرة من البساطة والتواضع والادب الجم ، وراقنى ما أنسته فى العروس من الحسن الهادىء ، والقـوام المعتدل ، والسحر المقرون بالحياء ، ومخائل الذكاء . وأبديت فى الحال رغبتى فى الاقتران بها . وفى اليوم التالى زارنى الاب وابنته فى الفندق الذى أنزل فيه ، واتفقنا على موعد عقد القران . وتم عقـد الزواج بالفعل فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ ، بمقر البلدية « الرات هاوس » ثم تم توثيقه بعد ذلك بأيام قلائل فى القنصلة المصرية بفيينا أمام قنصلنـا المرحوم محمد سرور بك ، وعدت بعد ذلك برفقة زوجتى الشابة الى القاهرة . وأحمد الله العلى القدير ، أن كان زواجا موفقا لم تحدث به خـلافات ، أو أزمات خطيرة . وهى ما زالت الى اليوم ، بعد ثمانية وأربعين عاما ، زوجتى الوحيدة . وقد رزقت منها بأولادى الثلاثة ، محمود وقد درس الطب ، وهو يعمل منذ مدة طبيبا فى انجلترا

وحسين وهو يعمل موظفا فى شركة التليفزيون ، وله مواهب فنية بارزة ، يمارسها فى الأنتاج السينمائى ، وتدر عليه أرباحا مجزية ، وابنتى سعاد ، خريجة قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وهى أبرع أولادى الثلاثة فى اللغات اذ تجيد الانجليزية والفرنسية والالمانية والبرتغالية . هذا فضلا عن أسلوبها العربى الجزل فى الكتابة والوصف .

واود ان اذكر هنا ان زوجتى السيدة يوهنا ، وقد عرب اسمها الى هناء عنان ، هى سيدة واسعة الثقافة ، وتجيد فوق لغتها الالمانية ، اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية ، ثم أود بهذه المناسبة أن اشير الى بعض جوانب من نشاط السيدة زوجتى العلمى والمهنى ، فقد قامت أولا بالاشراف على تربية حفيداتها الاربعة منذ ادخلتهن مدرسة سان فنسان دى بول الفرنسية فى سن مبكرة ، واشرفت بعد ذلك عن تربيتهن فى التعليم العالى وذلك لتغيب والدهن الدكتور محمود فى الخارج منذ بداية حياته المهنية ، وتخرج تحت كنفها ورعايتها اثنتان منهن من جامعة القاهرة . وأما الاخريان فانهما تكملان دراستهما بانجلترا . وقد تولت ترجمة عدة من الكتب والرسائل العلمية الالمانية الى الانجليزية لمنشأة فرانكلين الامريكية . وهو نوع من الترجمة تخصصت فيه . والى جانب ذلك بذلت نشاطا كبيرا فى انشاء قرية الاطفال الدولية بمدينة القاهرة ، وما زالت تمدها بنشاطها ، ولما كانت هذه المنشآت تنتمى أصلا الى المشروع النمسوى، فقد وصلها كتاب شكر رقيق من رئيس الوزراء النمسوية المستشار برونوكرايسكي يثنى عليها ، وينوه بأن ما تبذله

فى هذا المجال دليل على انها لم تنس وطنهـا الاصلى ، وقد كان ذلك من دواعى تأثرها وسرورها .

واذا كنت آسف على شىء فى حياتى العائلية ، فهو اننى لم ارزق من يمكن من أولادى أن يخلفنى فى حياتى الادبية ، ويرعى تراثى التاريخى العريض ، ويقوم على الاستمرار فى نشر كتبى التاريخية والادبية المختلفة ، لكى تنتفع بها الاجيال اللاحقة ، وانى لاترك هذا التراث وديعة بين يدى الله سبحانه ، يرعاها ويحفظها وهو خير الحافظين .

ترك العمل فى الصحافة

وامضيت فى العمل الصحفى بضعة اعـوام اخرى ، وكنت فى نفس الوقت ما زلت أمارس مهنة المحاماة ، ولكن بصورة محدودة . وكنت قد أغلقت مكتبى بميت غمر لبعدها عن القاهرة ، واتخذت مكتبا بمدينة طوخ القريبة من القاهرة ، ولكنى ما لبثت أن أغلقته بعد نحو عام ، اذ لم اجد فى العمل فى هذه المنطقة ما يستحق اضاعة الوقت ، والتنقل من القاهرة الى الريف .

وفى خلال ذلك تطورت الاحداث السياسية ، وانتقلت جريدة السياسة من مكانها القديم فى شارع المبتديان الى مكانها الجديد فى شارع عبد الخالق ثروت (المغربى سابقا) ، وغلب اللون السياسى الحزبى على السياسة الاسبوعية ، وتضاءلت سمعتها الادبية .

ثم دخلت الاحداث السياسية فى طور جديد ، وتمكن

حزب الاحرار الدستوريين من تولى الحكم ، وقام بتاليف الوزارة زعيم الحزب المرحوم محمــد محمــود باشا ، وسافر الى انجلترا على راس وفد لاستئناف المفاوضات مع بريطانيا ، واســفرت هــذه المفاوضات عن مشروع معاهدة لتنظيم العلائق بين مصر وانجلترا ، ولكنه لم يكن صريحا ولا واضحا فى تحقيق استقلال مصر ، ولم يحظ من الراى العام ، بتأييد يذكر ، واشتدت عليه حملات الوفد والمعارضين .

واخذت احوال الاحرار الدستوريين فى الاضطراب ، واشتد عليهم ضغط اسماعيل صدقى باشا رئيس الوزارة يومئذ ، وقــد استطاع أن يجمع برلمانا جــديدا على طريقته ، ووقع غلق « الســياسة » غير مرة بالطرق الادارية . ثم وقع غلق السياسة الاسبوعية وانتهى الامر بأن كانت السياسة الاسبوعية ، تصدر فى صورة ملحق أسبوعى للسياسة اليومية ، وذلك على نفس نمطها الادبى القديم .

وكانت « السياسة » كلما اغلقت ، لجأ الدستوريون الى اتخاذ لسانهم فى بعض الصحف الثانوية ، فاذا أعيدت عادوا الى اصدارها ، مشددين الحملة على صدقى باشا ووزارته وســياسته .وكان صدقى باشا يحارب السياسة بمختلف الوسائل ، ويرتب شراءها جملة من المتعهدين ، حتى لا تصل الى أيدى القراء ، وكان لهذه الوسائل اثرها فى اضعاف السياسة فتضاءلت مواردها المالية ، وعجزت عن دفع مرتبات المحررين والموظفين . وقد صابرت انا هذه الحالة بعض الوقت ، ولكنى رأيت فى النهاية ، أن الاستمرار على هذه الحالة أمر متعذر ،

فقررت الاستقالة من عملى بها ، بالرغم مما كان يربطنى من روابط المودة والمحبة بكثير من رجالات الدستوريين ، لا من الناحية الحزبية ، ولكن من ناحية الصـــداقة الشخصية والتقدير المتبادل ، وفى مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل رئيس تحريرها ، واستاذى القديم ، والاستاذ على عبد الرازق ، وغيرهما من الاصدقاء الاعزاء .

وكان انفصالى عن أسرة السياسة فى أوائل سنة ١٩٣٢، ولم يخطر ببالى يومئذ أن أشتغل بالصحافة فى جريدة اخرى غير « السياسة » ، او أن اتصل بأناس آخرين ينتمون الى الاحزاب الاخرى لاعمل فى جريدتهم . ولو قبلت نفسي يومئذ مثل هذا الخاطر لـكان فيه الكسب الوفير الهين . ولكنى حسبما سبق أن نوهت ، لم أكن اتسم بأية صفة حزبية ، اعتزازا بصفتى المصرية المحضة، ولا أميل قط ، حسبما سبق أن ذكرت الى الـكتابة فى شئون السياسة المحلية ، وقد عملت فى جريدة السياسة واصحابها يحترمون طول الوقت منى هذا الشعور . وقد كنت أعمل فى « السياسة » الى جانب الصـفوة من المفكرين والكتاب المصريين . فهذه الاعتبارات كلهـــا جعلتنى أصرف النظر نهائيا عن العمل الصحفى فى أية جهة أخرى .

وكنت فى تلك الآونة ، قد بدأت أنشر بعض بحوثى فى مجلة « الرسالة » التى صرح باصـــدارها لصديقى المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات ، فكنت أقدم لهـا مقالا أسبوعيا ، ثم كنت أقدم بحثا شهريا لمجلة الهلال . وكان المفروض أن الاستاذ الزيات قد استصدر تصريح الرسالة ، على أن تكون لسانا علميا وأدبيا للجنة التأليف

والترجمة والنشر ، التى كنا ننتمى اليها جميعا . وكان يحرر معظم فصولهـــا فى الواقع ، أعضـــاء لجنة التأليف والترجمة . وكان مقرها فى جزء من مقر اللجنة القديم بعمارة راتب باشا فى أول شارع الساحة ، بعد محلات عمر أفندى . ولكن الاســـتاذ الزيات ، ما لبث حينما آنس نجاح الرسالة وتقدمها السريع ، ان دبر الاستقلال بهـــا ، فكان له ما أراد ، وان كان زملائى اعضاء اللجنة استمروا فى الـكتابة فيها بصفة مستقلة وخاصة . واستمر هذا الوضع الى أن قيض الله للجنة أن تصدر مجلتها الخاصة « الثقافة » بعد ذلك ببضعة اعوام ...

وكنت فى نفس الوقت ، اقدم للاذاعة بعض الاحاديث التاريخية ضمن برنامجها الثقافى وذلك بصورة اسبوعية منتظمة .

على أن هذه الاعمال الادبية المختلفة لم تكن كافية لان تشغل كل وقتى ، ولا أن تسد كل حاجتى العائلية . ولم ار ، حسبما أن ذكرت ، سوى أن أحاول العـــودة الى ممارسة مهنتى القديمة ، المحـــاماة ، وكانت فى الواقع محاولة صعبة ، وغير مؤكدة النجاح . ولكنى مع ذلك قررت أن أقوم بها . وسهل على ذلك أن اللجنة تركت مقرها القديم ، واتفقت مع صديقى الاستاذ الزيات على ان أحل مكانها معه فى شقتها ، وشغلت بذلك غرفتين من غرفهـــا الاربعة وجهزتها بما يلزم للعمل . وبدأت ملازمة مكتبى بانتظام كل يوم . ومضت الايام متوالية دون أن تقع زيارات مبشرة . وكنت أشغل وقتى عندئذ ، باعداد بعض الفصول والمقالات اللازمة للهلال والرسالة ،والبرنامج

الاذاعي الثقافي . وفي خلال ذلك لم تقع لي سوى زيارات واتصالات قليلة في شأن القضايا والاستشارات القضائية، ومعظمها من أصدقاء ، لا أفكر في الكسب منهم . وكان يبدو على مر الوقت ان محاولة العمل في ميدان المحاماة بصورة ناجحة ، ليست من الامور الميسورة .

في الوظيفة الحكومية

عندئذ فكرت في أن التحق بوظيفة حكومية ، وهو ما رفضت التفكير فيه والاستجابة اليه عقب تخرجي من دراسة الحقوق . وكانت فكرة مؤسفة . ولكنى كنت اراها السبيل الوحيد في هذه الظروف . ولم أكن أتصور يومئذ أننى سوف ألقي بنفسي في وسط موبوء منحل ، وانني سوف أعاني بمخالطته الكثير من الآلام النفسية . وانتهي الامر بأن التحقت بوظيفة من الدرجة الخامسة بادارة المطبوعات بوزارة الداخلية . وسهل على الالتحاق بها أحد أقاربي ، وهو المرحوم حسن رفعت باشا ، كان يشغل يومئذ منصب وكيل الداخلية ، وتقع ادارة المطبوعات تحت اشرافه . وما لبثت أن لاحظت أن هذه الادارة ، التي كان عملها يختص بالاشراف على الصحافة، وتنفيذ قانون المطبوعات ، كانت تقع يومئذ تحت سيطرة الشوام ، من سوريين ولبنانيين ، أنها كانت تعاني كثيرا من ضروب الفساد على يد هذه العصابة ، من اقتضاء الرشاوى ، للسعي في تعيين الموظفين على اعتماد المصاريف السرية ، ومن مختلف الصحف لمدها بمختلف الامتيازات، ولا سيما الاعلانات الحكومية . وكان رئيسها الاعلى ، أو

وكيلها ، وهو يومئذ سورى درزى يسهل لمرؤوسيه كل شيء ، ويؤمهم فى تلك الاعمال ، وكانت الصحف الاجنبية هى اكثر الصحف انتفاعا فى ظل هذا الفساد . وكان من نصيبى بعد فترة من الوقت أن أتولى شئون هذه الصحف الاجنبية ، من فرنسية وانجليزية ، ورومية ، تصـــدر بالقاهرة والاسكندرية ، وكان من بينها صحف مرموقة ، كالبورص اجبسيين ، والجورنال دى كير ، والجــازيت بالقاهرة ، والزنيفورم وغيرها بالاسكندرية . وكانت هذه الصحف الاجنبية كلهــــا ، تخاطب المطبوعات باللغــــة الفرنسية أو الانجليزية فراعتنى هذه الحال ، وبدات اطلب من هذه الصحف ، وانصحها ، أن تكتب طلباتها بالعربية الى جانب اللغة الاجنبية ، وبعد معارك ومشادات مستمرة، انتهى الامر بأن بدأت تكتب العربية الى جانب الفرنسية او الانجليزية . ولمــا رقيت بعد ذلك الى منصب وكيل ادارة المطبوعات ، كنت ارفض كل طلب يكتب باللغــــة الاجنبية . وانتهى الامر بعد صراع طويل الى تحقيق هــذا الاصلاح ، وأدرك كثير من أصــــحاب هذه الصحف ، والمسئولين فيها ، اننى محق فى طلبه ، وانه مطلب عادل يجب النزول عنده . وكان يسهل على العمل فى هــذه الادارة ـ ادارة المطبوعات ـ انها مستقرة بالقــاهرة . وليست لهــا فروع فى أية مدن أخرى ، وبذلك استمر عملى بها أعواما طويلة ، دون ازعاج ، الا ما كان فى أوائل الحرب الثانية ، حينما نظمت الرقــابة على الصحف ، وطلب الى فى وقت ما ، أن اتولى أعمــــال الرقــابة بالاسكندرية ، فاعتذرت ورفضت رفضا باتا تولية هذا

العمل ، وانذرت بتقديم استقالتى ، وعندئذ عدل عن هذا الطلب .

وكانت ادارة المطبوعات ، طوال الوقت ، هدفا للتغييرات الحزبية من وفدية ودستورية وسعدية ، يؤتى اليها فى كل حكومة جديدة ، بطائفة من الموظفين الذين لا عال لهم ، على اعتماد المصاريف السرية . وكنت بالرغم من عدم تعاطفى مع حزب الوفد ، اتصرف دائما فى حدود ما اعتقد انه الحق والصواب ، ولم تكن تحدونى اية اغراض حزبية او شخصية . وكنت اذا ما وجهت بأى طلب او مأزق حزبى لا ارتأى صوابه ، أرفع أمره الى وكيل الوزارة ، حسن رفعت باشا ، فكان يقوم بتصريفه بمنتهى اللباقة ، وينتهى الامر بسلام .

وكنت خلال عملى بادارة المطبـــوعات ، امثل وزارة الداخلية فى لجنة قبول الصحفيين بمحكمة الاســـتئناف العليـــا ، وكانت هذه اللجنـــة ، تنعقد وفقا لقانون المطبوعات الجديدة، تحت رئاسة رئيس محكمة الاستئناف العليا ، وكان رئيسها يومئذ المرحوم محمد محمود باشا، وكان مستشارا بارعا ، جم الذكاء والادب ، وكنت سعيدا بالعمل معه . وقد ساعدت بمعلوماتى وتوصياتى الشخصية فى اللجنـــة فى قبول عــدد كبير من الصحفيين والصحفيات .

وفى خـــلال هذه الفترة ، من عملى الحكومى ، الذى استمر بادارة المطبوعات نحو اثنتى عشر عاما قمت خلال اجازاتى الصيفية بعدة رحلات الى المانيا وفرنسا ، وايطاليا والنمسا ، سوف أتحدث عنها فى مواضع أخرى .

نادى القلم الدولى

كان اول من دعى الى تأليف فرع لهذه الهيئة الادبية الدولية بمصر ، المرحوم الدكتور طه حسين . وكان ذلك ذات مساء كنا فيه بمنزل آل عبد الرازق . وكان موجودا الى جانبه المرحومين على عبد الرازق ، والدكتور محمد كامل حسين وانا ، وقد اقترح الدكتور طه ، فيما يبدو بناء على رسالة تلقاها من مركز نادى القلم الدولي بلندن ، الـ P . E . N ، أن تنشيء شعبة لهذه الهيئة الادبية بالقاهرة . فتم الاتفاق بيننا على ذلك ، وتكونت منا هيئة للدعوة والتنظيم ، وندبني الزملاء ، لاقوم بأعمـــال السكرتارية ، واتولى أرســـال الدعوات لمن يقترحهم طه ، وكان ذلك حسبما أذكر فى أوائل ســنة ١٩٣٦ . وتولى الدكتور طه الاتصال بمن يدعون من الاجانب المقيمين بمصر للانضمام الى هذه الشعبة . وأرسلت الدعوات الى عدد من الادباء والـكتاب المعروفين ، فلم يلبهــا سوى القليل . ولبى دعوة الدكتور طه من الاجانب عدد منهم مستر سكيف الاستاذ بكلية الآداب بجامعة القـــاهرة ، ومسيو برنار ميشيل الاديب السويسرى ، وهو فى نفس الوقت من رجال الاعمـــال ، ومسيو جورج فوشنيه مراسل جريدة جورنال دى جنيف ، وهو سويسرى أيضا ، ومستر جون كنتل الكاتب القصصى السويسرى . وكان يقيم يومئذ بمصر ، والسيدة مدام خير وهى سيدة سورية أديبة من الطبقة الممتازة ، وكانت تشتهر بحسنها واناقتها . وكان نشاط الجماعة يقتصر على الاجتماع كل شهر على عشاء فى أحد المطاعم الانيقة. وكان يتولى أمانة الصندوق زميلنا

المرحوم الدكتور كامل حسين ، وكنت أنا أتولى أعمال السكرتارية ونجتمع نحن كل أسبوع فى صفة لجنة ادارية. وكنا على اتصال بمركز القلم الدولى العام بلندن وسكرتيره الكاتب المسرحى هرمون أولد. وكانت ترد المكاتبات باسمى، فأتلقاها وأتولى عرضها على اللجنة الادارية ، ثم أقوم بالرد عليها وفقا لما يقع عليه الاتفاق ، وكنا نتولى أحيانا دعوة بعض الاصدقاء من العلمـــــاء والخاصة من غير الاعضاء الى العشاء معنا ، واستمر الامر على ذلك حينا ، وكان من هؤلاء الاديبة الكبيرة الانسة مى زيادة . وكان هذا ثانى لقاء بينى وبين هذه الاديبة الكبيرة ، التى سمعت الكثير عن نبوغها وخلالها الرفيعة ، وعن صالونها الادبى ، الذى يتردد عليه أعاظم العــلماء والكتاب . وبالرغم من انها لم تكن رائعة الحسن ، الا أن السحر ينفث حولها من عينيها ومن حديثها . وقد اتصلت بها فيمــا بعد ، وعرفتها عن كثب ، وتبادلت معها الاحاديث والرسائل ، وذلك حسبما أشير اليه فيما بعد .

وكان ممن دعـــونا من أكابر الـكتاب الاوربيين الذين يفدون على مصر ، الـــكاتب الفرنسى الـكبير مسيو جول رومان ، وقد استقبلناه فى حفل عشاء تكريم . والقى خطابا ممتعا . وكان خطابا طويلا ورائعا . وكان ممن استقبلناهم أيضا ، الشاعر الاسبانى القطلونى السنيور الومار ، وكان يقيم يومئذ فى القـــاهرة ، لاجئا من نظام الحكم الفاشستى فى اســـبانيا ، وقد ألقى بيننا بعض مقطوعاته الشعرية باللغة القطـلانية . وكان منهم أيضا العلامة المستشرق الاستاذ ليفى بروفنسـال . وكان مستر كنتل القصصى السويسرى يحضر معنا فى معظم الاحيان

على العشاء مع زوجته الانجليزية . وكان يشيع فينا البشر والضحك بنكاته المختارة . وكان مما حدث أيضا خلال اجتماعاتنا الشهرية ، أن خصص منهـا مساء لتكريم صديقنا العلامة الراحل الاستاذ احمد أمين ودعى الى هذا الحفل المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر ، وألقى فى الحفل كلمة جميلة مؤثرة ، أشاد فيها بخلاله وعلمه وروعة انتاجه . ثم توالت دعوات الشعبة الى بعض الشخصيات البارزة ، فدعونا المرحوم الدكتور حافظ عفيفى الى حفل العشاء ، وحضرت فى نفس الليلة، بناء على دعوتنا المرحومةالسيدة قوت القلوب الدمرداشية، وقد حضرت الى الحفل سافرة ، وكان هذا يومئذ مما يعتبر حادثا اجتماعيا ولا سيما بالنسبة للسيدة الدمرداشية ، وقد دعتنا السيدة قوت القلوب فيما بعد الى حفل غداء ضخم فى حدائق ضيعتها الكبيرة بالقبة، وهى التى صودرت فيما بعد ، فيما صودر من أملاكها . ثم دعتنا بعد ذلك الى حفل عشاء بقصرها الذى كان يقع بجوار وزارة الخارجية القديمة على مقربة من كوبرى قصر النيل ، وقد أزيل اليوم . وكان ذلك فى فاتحة الحرب العالمية الثانية . وكان الحفل حسـبما فهمنا ، لتكريم زائر انجليزى كبير يدعى مستر سل بيتون ، وكان يتسم بأنه من هواة التصوير . وكان قليل الـكلام كثير الاستماع . وقد شعرت أنا يومئذ أنه شخصية غامضة ، وخـطر بذهنى أنه انما كان على الاغلب من رجال المخابرات البريطانية .

واستمر نشاط شعبة نادى القلم على هذا النمط ، نحو عامين آخرين ، ثم ضعف نشاطها ، وقلت اجتماعاتها ، وتفرق معظم أعضائها الاجانب ، وشغل كل منا بنفسه .

وكان من آخر تصرفاتهـــا ، أن بعثت اللجنـــة الادارية مذكرة الي هيئة جوائز نوبل بالسويد رسالة ترشح فيها الدكتور طه حسين ، لنيل هذه الجائزة في الادب ، فكانت هذه صرخة من صرخات عديدة ، في هذا السبيل ، لم يكن لها أي صدى .

واخيرا رؤي أنه لا محل لاستمرارها ، واقترح علينا الدكتور كامل حسين أن نعتبرها منتهية ، وأن نوجه مابقي من رصيد اشتراكاتها ، الى صـــــندوق الطلبة بجامعة عين شمس ، وكان الدكتور كامل حسين ، قد عين مديرا لها ، فحبذنا رأيه . وكان هذا فصل الختام في أمرها ، واخطرت بذلك مستر أولد سكرتير المركز الدولي بلندن .

الآنسة مي زيادة

سبق أن اشرت فيما تقدم ، الى أني التقيت بالآنسة مي زيادة لأول مرة ، لقـــــاء عابرا في حفل شاي لدى احمد شفيق باشا ، ثم لقيتها بعد ذلك ببضعة أعوام ، في احدى حفلات عشاء نادي القلم . وكان لهـــذا اللقاء اثر كبير ، في تقديري لهـــذه الآنسة الكاتبة الاديبة ، النابغة ، ورفيع خلالها . وكنت أقرأ مقالاتها في الاهرام وغيرها من الصحف والمجلات باهتمام ومتعة . ومضت على ذلك أعوام قبل أن تسمح لي الظروف برؤيتها والاتصال بها . ثم كان هذا الاتصـــال لمناسبة أدبية لا أتذكرها ، وتوثقت بيننا الصلات الادبية والفكرية تباعا ، وشعرت منها انها تأنس باجتماعنا واحاديثنا ، وكنا نجتمع دائما بشقتها الجميلة الملاصقة لجريدة الاهرام . وكان ثمة بيننا كثير من النواحي والمعارف المشتركة واجادة اللغات الاجنبية .

وكنا حين تعوق المشاغل اجتماعاتنا ، نتصل تليفونيا ونتبادل بعض الأحاديث . واستمرت صلاتنا على أتم مودة وصفاء ، وتقدير متبادل . ثم كان ذات يوم شعرت فيه بتغير أحوالها ، وتصرفاتها ، وكانت تمتنع عن الطعام ، فكنت أتضرع اليها ان تأكل ، وآكل معها أحيانا لاشجعها على تناول الطعام . وعندئذ عرضت عليها أن أدعو لها طبيبا لفحصها ، وتقدير أسباب متاعبها فوافقت ، واستدعيت لهذه المهمة المرحوم الدكتور عانوس الاخصائى فى الامراض النسائية ، فلبى مرحبا وقام بفحصها فحصا دقيقا . ثم كتب لها بعض الادوية ، وطمأنها ببعض العبارات . ثم صحبته حين غادر شقتها ، وسألته على حدة عما انتهى اليه الفحص ، فقال ان حالتها تنحصر فى أنها بلغت السن الذى تختفى فيه بعض الاجهزة عند المرأة ، وتقع لها من جراء ذلك اضطرابات عصبية ، ويحسن بها أن تنتقل الى مصحة خاصة يعتنى فيها بأمرها ، ولم أقل لمى شيئا من ذلك . ولبثت أتردد عليها للاطمئنان على صحتها . ولكن حالتها كانت تسوء يوما بعد يوم . واخيرا علمت أنها غادرت القاهرة ، وسافرت الى موطنها الاصلى فى لبنان . ولم اعرف ظروف هذا السفر ، ولا من تولى أمر اصطحابها . ثم سمعت فيما بعد أنها قد أصيبت بعارض عقلى،واودعت مصحة للعلاج . وقد رآها فيما بعد بعض الاصدقاء القدماء ، الذين زاروا بيروت على تلك الحالة ، وكان منهم صديقى المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكتب عن زيارته لها مقالا مؤثرا ، ذكر فيه أنها رآها ، وقد ابيض شعرها حتى صار لون الثلج . وكان لذلك كله فى نفسى ألم

وقع ، وقد علمت فيما بعد انهـــا توفيت فى أكتوبر سنة ١٩٤١ ، عفا الله عنهـــا ، وطيب ثراها . وانه ليسعدني أن قد احتفظت ببعض رسائلها ، ومنها الخطاب الذى يرى القارىء صورته هنا .

هذا ، وقد تركت مى عددا من الكتب والرسائل الادبية الممتعة منها : الجزر والمد . وابتسامة ودموع (مترجم عن الالمانية) . ظلمات وأشعة ، كلمات واشارات ، وعائشة تيمور ، وهو من أمتع بحوثها .

موقفي من المسرح والسينما

ولم أكن منذ شبابى من عشاق المسرح المصرى . اجل شهدت بمسرح رمسيس فى العشرينات عدة قطع جيدة ، واستطعت أن أقدر مواهب بعض ممثليه فى هذا الوقت ، وفى مقدمتهم الممثل النـــابغة المرحوم حسين رياض ، والمرحومة السيدة روز اليوسف . ولم يكن لى بعد ذلك اقبال على مسرح الريحاني وتمثيلياته المشهورة « كشكش بك » وما اليها ، لانى كنت أشعر بالرغم مما كان يحدوها من الاغراض النقدية والاجتماعية ، بأنها تذهب فى الهذر مذهبا يزهد فيه أهل الجد والوقار ، ثم لـما توالت زياراتى لمدينة فيينا عاصمة النمسا منذ بداية الثلاثينيات ، وكثر ترددى على الاوبرا النمسوية ، وبهو الموسيقى القيصرى ، اعجبت كثيرا بالاوبرات التاريخية العظيمة وما كان يتخللها من موسيقى رائعـة : بيتهوفن ، شتراوس ، فردى ، روسينى ... الخ . وأصبحت من عشاق المسرح الفنائى الاوربى . ونسيت المسرح المصرى بتاتا . وكنت أرحب بمشاهدة كل فرق أوربيـة عظيمة تحضر للتمثيل أو

شارع علوي رقم ١
القاهرة في ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤

هل أنت ناقم عليّ، يا أستاذ؟

إني أرهب غضب المحامين، وبخاصة إذا جمعوا بين المحاماة والأدب. وبودي أختفي في موقف كهذا حيث يلتقون جميعاً في شخص الأستاذ عنان الكاتب المحقق والمؤرخ العبقري

أنت محق في الاستياء قليلاً لأني أبطأت كثيراً في تقديم الشكر على الهدية الثمينة، مجموعة ثلاثية من كتبك القيمة. ولكن أراك تحب إنصافاً: أأنا مذنبة إذا كانت موضوعات كتبك رحيبة متشعبة لا حدود لها يا ابن الأندلس الذي تُقرأ مرة بعد مرة، كمن يستطلع دائرة المعارف مثلاً؟ هذا، فضلاً عن الفصول المشرقة التي تنشرها في المجلات، وأقرؤها جميعاً طالبة الدرس والاستفادة معاً

إذا رأيت في هذا ذنباً فأصارحك بأني عازمة على اقترافه لا أبغي التوبة. وعلى ذلك ستكون ناقماً عليّ مدى العمر ... [illegible]!

ولكنك، على كل حال، لن تأبى قبول شكري الذي تأخرت في إعلانه دون أن أتأخر في الشعور به. هذا مع خالص الإعجاب بتلك الشمائل

" مي ".

للعرض فى أوبرا القاهرة لا سيما الفرق الغنائية ؛ كما كنت أواظب على شهود الفرق الاوروبية التى كانت تحضر للتمثيل بمسرح الكورسال دالبانى ، وكان منهـا فرق رائعة مثل الفرقة الراقصة الاسبانية : « نساء وزهور اسبانيا » Les femmes et les fleurs d'Espagne

وفرقة بافلوفا Pavlova ؛ أعظم راقصة فى هـذه القرن ، وزميلها الراقص البارع شاليابين ، وقد شهدتهـا مرتين متواليتين على مسرح الـكورسال ، وأعجبت أعظم اعجاب برقصتها العالمية الشهيرة « موت البجعة » وكان لمثولها بالقاهرة ، يومئذ ، أعظم صـــدى ، وكان مسرح الكورسال هذا ، وما يظهـــر عليه من الفرق الاوربية الموسيقية ، أو التمثيلية الشهيرة من محاسن القـــاهرة العديدة ، التى قضى عليها النظام الناصرى ، وكان يبذ مسرح الاوبرا بما يفد عليه من الفرق التمثيلية اللامعة .

وقد صقلت هذه الموسيقى ، وهـــذه المناظر الفنية الرائعة ، التى واظبت على مشاهدتها فى فيينا وغيرها من العواصم الاوربية ، ذوقى الفنى ، فأضـــحى بميوله واتجاهاته يقف عند هـــذه النواحى ، وانصرفت بذلك انصرافا نهائيا عن الاهتمام بالمسرح المصرى حتى يومنا .

وأما السينما ، فقد كنت منذ صباى وشـــبابى من عشاقها ، وقد كنت أواظب على مشاهدة الافلام العالمية التى تعرض فى القاهرة . وكنت منذ أيام دراستى ، أذهب الى السينما كل يوم خميس ، وكانت تجذبنى بنوع خاص أفلام تشارلى شابلن الفكاهية التى كنت أشاهدها بانتظام منذ صباى ، والتى لبثت طول حياتى أعجب بها . هـذا الى جانب الافلام العالمية الاخرى ، التى كانت تعرض فى دور سينما القاهرة بانتظام . وكان منها أفلام تاريخيـة

ودرامية عظيمة اذكر منها : كليوباترا كوفاديس . العربية رقم ١٣ . الجانى لكوبيه . فردى . كاروزو وغيرها . كما كنت أواظب على مشاهدة هذه الافلام العالمية فى الخارج حيثما كنت فى باريس . فيينا او برلين . أو مدريد أو غيرها ، وأما الافلام المصرية ، فلم اكن فى البداية متحمسا لها أو مقبلا عليها ، ولم أبادر الى مشاهدتها الا فيما بعد حينما ارتقت الشاشة المصرية ، وظهرت فيهـــا أفلام متقنة جادة ، وكنت أواظب بصفة خاصة على رؤية الافلام التى تضطلع ببطولتها فاتن حمامة ، أو عماد حمدى ، حسين رياض ، أو المليجى ، أما الافلام الفنائية ، فلم تكن تجذبنى ، وقد أخذ هذا الميل الى زيارة الســينما فى دور القاهرة يفيض لدى شيئا فشيئا ، ولا ســيما حينما انحطت مستويات الجماهير المصرية فى العهـــد الاخير . ثم غاضت هذه الرغبة بعد ذلك بتاتا ، فلم أدخل دارا للسينما فى القاهرة ، منـــذ أعوام طويلة ، وكنت أستعيض عن ذلك بزيارة دور السينما الاوربية خـــلال وجودى بالخارج ، ولا سيما فى فيينا ومدريد . وكنت أفضل رؤية الافلام المصرية الممتازة أو الاجنبية ، بمنزلى على شاشة التليفزيون مع أفراد عائلتى . وما زال هذا رأيى حتى كتابة هذه السطور . كما أنى هجــرت زيارة مقاهى القاهرة ومنتدياتها ، فى العهد الاخير بتاتا ، بعد أن انحطت مستويات هذه المقاهى ، وانحطت مستويات زوارها الى حدود تنفر منها النفوس الكريمة ، مكتفيـــا فى ذلك بالاجتماعات الجماعية المحترمة ، خلال المناسبات الرسمية ، أو المؤتمرات العلمية وأمثالها وفى نظرى أن مدينة القاهرة العظيمة غدت مع شديد الاسف فى عهـدنا

الحاضر مدينة موحشة مبتذلة من النواحى العمــــرانية والاجتماعية والجمالية ، ولم تبق بها معاهد أو منتديات تصلح للطبقات المحترمة ، التى كانت تعمر القاهرة القديمة والمنتديات القديمة .

اما عن برامج الاذاعة والتليفزيون ، فانه يؤسفنى أن اقول انها لم تكن غنية ، ولا جذابة فانه لم يكن بها الكثير من الاحاديث أو المواد المغرية بالاصغاء والمشاهدة ، وقد كنت قبل العهد الحالى أقدم لبرنامج الاذاعة الثقــــافى بعض الاحاديث التاريخية والتذكارية بتكليف منهــــا ، ولبثت على تقديمها فى الاعوام الاولى من العهد الحالى . ثم جاءت دعوة العروبة ثم الاشتراكية فغطت فى الاذاعة على كل شىء ، وانقطعت عن المساهمة فى الاذاعة بأى نوع من أنواع المشاركة ماعدا فرص قليلة كنت أدعى فيهــــا مع بعض الزملاء لمناقشة موضوع أو كتاب تاريخى . ومن جهة أخرى فانى لم اقبل أى دعوة من التليفزيون ، لاننى كنت اعتبره كالاذاعة لسان الدعوة للنظام القائم . ومن ثم فقد اعتزمت أن لا أستجيب لاية دعوة من جانبه . وكم كنت آسف حينمــــا أشــــاهد بعض برامج التليفــزيون الانجليزية عند ولدى الدكتور محمود بانجلترا واشــعر بالاهتمام والمتعة لما اشاهده من المناظر والاحاديث المختارة واللقطات الجميلة ، واذكر ما يعتور برامجنا فى القاهرة من الضعف والنقص المعيب ، وكيف أنها ترصــــد معظم نشاطها للاحاديث والدعايات المفرضة ، ممــــا يزهد فى متابعتها .

واستطيع بهذه المناسبة أن اقول كلمة عما كانت عليه القاهرة ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وهو العهد

الذى بلغت فيه قمة البهاء ، والعمران . فقد كانت القاهرة يومئذ مدينة عظيمة جميلة نظيفة تغص شوارعها الكبرى بالمحلات التجارية الكبرى ، وبالمقاهى والبارات الارستقراطية الجميلة ، ومنها مقهى « صولت » ، وقد كان أفخر مقاهى فؤاد ، ونظير محلات جروبى ، فى الرقى والفخامة ، وكان يقع فى المكان الذى يشغله اليوم محل « أوريكو » التابع لشيكوريل . وكان يوجد بنفس الشارع مقهى فنش الالمانى ، وهو محل بيرة ومطعم على الطريقة الالمانية . ويوجد بشارع عماد الدين مقهى ومطعم الاوبلسك ، كما كان يوجد بشارع ألفى على مقربة من الكورسال ، ملعب ومنتدى « البيلوت باسك » الشهير ، الذى تجرى فيه بالليل على الاضواء الساطعة هذه اللعبة الاسبانية المشهورة ، بين طرفين من لاعبيها الاسبان ؛ ويغص عندئذ بالمتراهنين والفيد من مختلف الجنسيات . وكان مترو مصر الجديدة يبتدىء عندئذ من شارع عماد الدين بحذاء الكورسال ، ثم يفارقه قبيل نهايته ، وينطلق فى طريق المحطة فى مساره العادى . وكان عماد الدين يحتوى على معظم المسارح والكباريهات الشهيرة ، وبالاخص كباريه مدام مارسيل . وقد كان مدى أعوام أنجح المنتديات الانيقة وأزخرها ، وفيه كانت تعرض الرقصات والاغانى من أشهر نجوم مختلف البلاد الاوربية، ويؤمه علية القوم من مختلف الطبقات .

قصة الوسام الهتلرى

هذا ، ولابد لى أن أذكر هنا حادثا هاما ، وقع لى فى صيف سنة ١٩٤٩ ، قبيل الحرب بفترة وجيزة ، وكان

له اشد الوقع فى نفسي . ويجب ان اذكر أولا ، اننى بالرغم من محبتي للثقافة الالمانية ، واتصالى بها بانتظــــام أيام عملى الصحفى ، كنت من أشد خصوم النظام النازى ، واشد خصوم زعيمه الدموى ادولف هتلر . وقد زرت المانيا مرارا قبل قيام النظام النازى ، ثم زرتهــا مرتين بعد قيامه ، وشهدت الكثير من مظـــاهره المروعة ، فى التنفيذ والعمل ، وكان يســهل على الوقوف على أحوال المانيا ونظمها معرفتى الجيدة للغة الالمانية . وقد كتبت منذ قيام النظام النازى ، وتوالى تطوراته ونظمه العنيفة ، الكثير ضده فى حملات وفصول ملتهبة ، ولا سيما فى مجلة الثقافة . وقد مر على بادارة المطبوعات ، قبل قيـــام النازية وبعدها ، بعض الصحفيين الإلمان ، وكنت أقــدم اليهم من المساعدات والتسهيلات ما أقدمه لســــــائر الصحفيين الاجانب ، دون التأثر بصفتهم وجنسيتهم .

ففى ذات يوم حول منتصف يونية سنة ١٩٣٩ ، علمت من مصدر لا أذكره اليوم ، أنه قد ورد لى ولصـــديقى وزميلى الاستاذ حسن يوسف (باشا) الذى كان مديرا لقسم الصحافة بوزارة الخارجية ، ثم فيمــا بعد مديرا للرقابة ، لكل منا وسام : تقديرى من حكومة الريخ الثالثة (الحكومة الهتلرية) . فسألت فى الحال صديقى المرحوم الاستاذ ابراهيم الدسوقى ، الذى كان يومئذ السكرتير الشرقى بالسفارة الالمانية فأكد لى صــــحة الخبر ، وذكر لى أن الوســـامين قد وردا فعلا ، وأن السفارة على وشك أن تقدم فى شأنهما مذكرة رســـمية الى وزارة الخارجية .

وقد انزعجت لهذا الخبر أيما انزعاج ، وكأننى تلقيت

فى قلبى طعنة أليمة ، وبادرت فى الحال بالاتصال تليفونيا بالسفارةالالمانية. وطلبتمحادثة السفير الالمانى أومستشار السفارة ، فقيل لى ان السفير غير موجود ، وتذكرت عندئذ ماقرأته منذ وقت قريب من ان السفير الالمانى (الهيروا خندروف) ، قد غادر السفارة فارا الى الشرق الاقصى ، لانه لم يكن متفقا مع الحكومة النازية . وعندئذ طلبت محادثة المستشار ، ولما اتصلت به رجوت منه أن اقابله فورا لمسألة خطيرة اود محادثته فى شأنها ، وكان ذلك فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، فتفضل بدعوتى الى رؤيته فى الحال . فذهبت مسرعا الى السفارة الالمانية ، واستقبلنى المستشار بمنتهى المودة . وفى الحال ذكرت له مابلغنى من خبر الوسام الممنوح لى من حكومة الريخ الثالثة ، وهو خبر أكد لي صحته ، وقلت له بمنتهى الصراحة ان هذا الامر يدهشنى أعظم الدهشة، لانى من أشد خصوم الحركة النازية والنظام النازى ، وقد كتبت ضده ، وضد زعيمه الكثير من المقالات العنيفة ، فكيف يمكن أن تقدم حكومة الريخ على أن تمنحنى وساما ينطوى على تقديرها . فأجابنى المستشار بأن حكومة الريخ تقدر ماقمتم به من الخدمات والتسهيلات الودية للصحفيين الالمان ، فقلت له أن هذه الخدمات والتسهيلات تمنح لسائر الصحفيين الاجانب . وأنا لم أقم نحو الصحفيين الالمان الا بواجبى . واني ازيد على ذلك بأننى رجل ديمقراطى حر ، ولا يمكن أن أقبل اى تقدير مهما كان نوعه من حكومة الريخ الثالثة الدكتاتورية ، فأجابنى المستشار ، ونحن كذلك فى ظل حكومة الريخ الثالثة شعب ديمقراطى حر ، فأجبته بحزم وصراحة ، انى اعتذر

اشد الاعتذار عن عدم قبول هذا الوسام بأية صفة ، وقد جئت لأطلعك على رأيي واعتذاري عن هذا الرفض ، وذلك قبل أن تقدم السفارة في شأنه مذكرتهـــا الى وزارة الخارجية . وقد رأيت ذلك من واجبي حتى لا تقع في ذلك أزمة لا تحمد ، فقال المستشار ، انى أشكرك جزيل الشكر على هذه الصراحة ، وهذا المسعى ، وسوف تحقق رغبتك في عدم الكتابة الى وزارة الخارجية ورد الوسام الى حكومة الريخ ، مشفوعا باعتذارك عن قبوله . وشـــد المستشار على يدى بحرارة مودة . وغادرت السفارة ، وأنا لا أكاد أصدق ماحدث ، ولا أكاد أحتفظ بتوازنى ، وكأننى نجوت من سهم مسموم كان مصوبا الى صدرى ، وقمت في الحال بكتابة تقرير مفصل عن هذا الموضـــوع ، وقدمته لرئيس الوزارة ووزير الداخلية . وقد كان يومئذ محمد محمود باشا . ولم أخطر أحدا بهذا الحادث ، ولم أتصل في شأنه بأية صحيفة ، وآثرت كتمانه واعتباره سرا خاصا .

وانى لأعتبر هذا الحادث الدبلوماسي من أهم الاحداث التي وقعت في حياتى ، ويسعدنى أن عشت حتى استطعت أن أودعه هذه المذكرات .

وانى لأعتبره شرفا عظيما لى أن أرفض بهذه الطريقة الجريئة الحاسمة وسام تقدير من حكومة « الريخ الثالثة » أعظم وأقوى وأعنف الحكومات الاوربية يومئـــذ ، وانه لكذلك أسطع شاهد بحرية قلمى ، ورســـــوخ مبادىء الديمقراطية الحرة ، التى كان هذا الرفض أعظم تقييم لهـــا ، وأعظم دفاع عنها .

وقد علمت فيما بعد أن تقديم هذا الوسام ، قد ألغى كذلك فيما يتعلق بزميلى الاستاذ حسن يوسف (باشا) .

وحدث بعد ذلك بأسابيع قلائل أن سافرت ، فى أواخر شهر اغسطس سنة ١٩٣٩ ، الى سويسرا ، ثم سافرت منها الى المانيا ، وكنت فى هذه المناسبة ، مدعوا لحضور مؤتمر نادى القلم الدولى باستوكهلم عاصـمة السويد ، وكان من المتفق عليه أن اتسلم تذاكر السـفر اليها فى برلين . ولكننى حينما قصدت الى المانيا ، بالسكة الحديدية عن طريق شافهاوزن كان جو الحوادث الدولية مكفهرا ، وكانت نذر الحرب ، موضع الحديث فى كل مكان . ولمـا وصلت الى برلين فى أواخر اغسطس ارسلت تلغرافا الى استوكهلم للاستفهام عن مصير مؤتمر نادى القلم ، فجاء الرد بأنه ألغى نظرا للظروف الدولية . وكنت خلال اقامتى ببرلين التقى كل يوم بصديقى المرحوم أمين بك رستم ، وكان يومئذ قنصلنا ببرلين . ولم تمض على ذلك بضـعة أيام ، حتى أعلنت المانيا الحرب على بولونيا ، على اثر مطالبتها بدانزج وذلك فى أول سبتمبر ، وفى الثالث منه اعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على المانيا وبدات بذلك الحرب العالمية الثانية ، فبادرت بالتفكير فى مغـادرة برلين ، قبل أن يقع لى حادث مكدر ، واستطعت بعـد البحث ، أن أستقل آخر قطار من محطة انهالت ببرلين متوجها الى ميونخ ، وكان يحمل سائر الدبلوماسـيين الذين قضت ظروفهم أن يغادروا برلين . ووصلنا الى ميونيخ صباح اليوم الثانى ، ونزلت فى فندق قريب من المحطة تديره جماعة من الراهبات ، واخذت أترقب فرصة للسفر الى فيينا ، واستطعت بالاتصال بسلطات المحطة ان أسافر الى فيينا فى قطار بضاعة كان متوجها اليها . ورأيت الاحوال متغيرة فى فيينا ، وكان الاجانب المقيمون

بها يمنحون بطاقات تموينية ، ولكنى لم أرد الحصول على هذه البطاقة ، وآثرت الاختفاء والاكل المستمر بالمطاعم المتاحة ، واتصلت عندئذ بسفيرنا فى فيينا ، وكان يومئذ صديقى الاستاذ عبد الكريم صفوت ، فلما قابلته ، رجانى ان اصطحب معى فى العودة السيدة حرمه وولده الصغير ، فوافقت على القيام بتلك المهمة الاخوية . وبعد بضعة أيام سافرنا معا بالسيارة الى الحدود النمسوية المجرية ، وسهل الله لنا بالمرور من نطاق بوليس الحدود النازى ، ووصلنا سالمين الى بودابست . ثم سافرنا منهـــا بقطار الشرق الى اثينا ، وكان مازال يعمل بانتظام فى أواسـط أوربا ، فوصلنا اليها فى اليوم التالى . ثم وفقنا الى السفر الى الاسكندرية على ظهر باخرة رومانية كانت ترسو فى المياه اليونانية ، ووصلنا بسلامة الله ، وحمده الجزيل الى ارض الوطن . وكان وصولى الى منزلنا بالقاهرة مفاجأة سارة لعائلتى ، التى كان يساورها أشـــد القلق على مصيرى .

التدريس فى معهد الصحافة بكلية الآداب

فى سنة ١٩٤٠ ، انشىء بكلية الاداب بجامعة فؤاد الاول (القاهرة فيما بعد) معهد الصـــحافة العالى ، وندب للاشراف عليه صديقى واستاذى المرحوم الاستاذ محمود عزمي ، فدعاني الى معاونته . وتوليت فى البداية تدريس تاريخ الصحافة المصرية والاوربية لطلابه ، وكانوا عندئذ عددا قليلا من الطلاب والطـالبات ، وكنت القى دروسى مرتين فى الاسبوع . ثم نما المعهد بسرعة ، وكثر الاقبال عليه من الطلاب حملة الليسانس فى الاداب والبكالوريوس

فى العلوم ، وتفاهمت مع أستاذى الدكتور عزمى ، على ادراج مادة جديدة فى برنامج المعهد ، هى مادة المذاهب الاجتماعية ، نظرا لما حدث فى وقتنا من قيام النظام الفاشستى بايطاليا ، ثم النظام النازى بألمانيا ، هذا الى جانب النظام الديمقراطى ، والنظامين الاشتراكى والشيوعى ، وهى كلها مواد يجب على الطالب الصحفى أن يدرسها دراسة جيدة ، ليكون ملما بأوضاع العصر ومشاكله . وكنت قد زرت ايطاليا فى ظل النظام الفاشستى غير مرة ، وكذلك زرت ألمانيا مرتين بعد قيام النظام النازى ، ووقفت من الناحية العملية على كثير من أوضاع هذين النظامين العنيفين ، وحصلت عنهما على مصادر ووثائق كثيرة . وكانت الفكرة ناجحة ، واقبل الطلاب بشغف على استماع محاضراتى فى هذه المادة التى غدت فيما بعد من أهم مواد الدراسة فى معهد الصحافة العالى. ثم جمعت محاضراتى فيما بعد فى كتاب وضعته للطلاب بعنوان «المذاهب الاجتماعية الحديثة ، وتطوراتها القانونية والدستورية » ، فتلقاه الطلاب بشغف ، وطبع غير مرة ، وهو اليوم مايزال بين أيدى القراء فى طبعته الخامسة ، بعد أن زيدت مواده زيادة كبيرة ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما ترتب عليها من النتائج والتطورات الخطيرة فى تقسيم أوربا ، وشئونها وأوضاعها . وانفردت بتدريس هذه المادة لطلاب الصحافة بضعة أعوام ، وتركت مادة تاريخ الصحافة ليتولاها غيرى من الزملاء . ولم يكن جو التدريس بالمعهد دائما صافيا . بل كان عرضة للدسائس المستمرة من جانب معيد وغد حقود ، كان يلتمس الى نفوذه وشق طريقه خدمة بعض عمداء الكلية فى

الدعاية للانتخابات وغيرها . ولكني لبثت مع ذلك فى القيام بالتدريس فى المعهد حتى سنة ١٩٤٨ ، ثم تركته . وكان أستاذي الدكتور محمود عزمي قد تركه أيضا لتعيينه نائبا بمجلس الدولة ، ثم ضمه فيما بعد الى وفد مصر لدى هيئة الامم المتحدة .

ومما هو جدير بالذكر ، ومما يدعو الى الاسف فى نفس الوقت ، ان خريجى معهد الصحافة العالى ، بالرغم مما حصلوا عليه فى المعهد من المؤهلات الممتازة ، لم يجدوا حين سعيهم فى الالتحاق بالصحف الكبرى ، بقصد التمرين العلمى ، ما كان واجبا أن يلقوا من ترحاب وتشجيع ، بل بالعكس ، لقوا من المسئولين ، ومن زملائهم العاملين ، معاملة جافة ، خالية من المجاملة ، لان هؤلاء العاملين ، ومعظمهم لايحمل مؤهلات محترمة ، كانوا يشعرون الى جانب خريجى المعهد ، بالغيرة والتوجس ، من تفوقهم العلمى والمهنى ، ومن ثم فانه لم ينجح سوى القليل من أولئك الخريجين فى مزاولة العمل الصحفى فى هذا الوسط الشائك .

ولقد كنت على الرغم من المتاعب التى القاها فى التدريس بالمعهد ، وضآلة المكافآت التى أحصل عليها ، كنت سعيدا بهذه المهمة ، التى اتصلت خلالها بأفواج لامعة من الشباب الجامعى ، ووقفت خلالها على الكثير من أحوال كلية الاداب وشئونها ، وانى لأنتهز هذه الفرصة لاذكر أنه كان يقوم بالتدريس بكلية الاداب ، أساتذة ليست لهم مؤهلاتى الدراسية والعملية ، ولم يكن بعضهم يتجاوز فى تعليمه المرحلة الابتدائية ، ومع ذلك فقد تولوا التدريس ، ورقوا الى عمادة الكلية ، بحكم توليهم بعض الوظائف الكبيرة من

قبل ، وبحكم الروتين والمحسوبية على أني لم أكن آسفا على مثل تلك الحالة ، ولا غيرها من الاحوال الوظيفية ، لانى أدركت خلال عملي فيالوظيفة الحكومية مبلغ ما ينطوى عليه الوسط الوظيفى من الوضاعة والانحلال الاخلاقى والادبى ، والركود الفكرى وانعدام الضمير والشعور بالمسئولية ، وهو مايبدو اليوم ، وأنا اكتب هذه السطور بعد ثلاثين عاما من ترك الوظيفة الحكومية ، فى أشد صوره بالادارات الحكومية .

عودة الى شئون الوظيفة

قضيت أعوام الحرب العالمية السبعة قائما بعملي فى ادارة المطبوعات ، حتى انتهت الحرب بسحق المانيا النازية وايطاليا الفاشستية ، وفرضت شروط النصر على المانيا النازية ، ومزقت أشلاؤها ، وقامت هيئة الأمم المتحدة لتشرف على شئون عالم ما بعد الحرب . وكنت خلال ذلك تساورنى فكرة الاستقالة من العمل الحكومى ، خشية ان يؤثر هذا المدى الطويل فى انتاجى الفكرى . على أننى من الناحية الاخرى كنت حريصا أشد الحرص على متابعة نشاطى الفكرى ، ومتابعة اخراج مؤلفاتى ، وذلك حسبما أذكره فيما بعد فى الفصل الخاص الذى أعقده لذلك الموضوع .

وفى سنة ١٩٤٨ ، حدث ما لم أكن أتوقعه من اقالتى من عملي بادارة المطبوعات لنزعة طارئة لوزير حقود جهول . وذلك انه حدث أن نشرت احدى الصحف الاسبوعية المغمورة مقالا ضد الاستاذ العقاد ينطوى على سب شديد مقذع . فاستدعانى رئيس الوزارة ووزير

الداخلية يومئذ النقراشي ، وطلب مني أن أبعث من ادارة المطبوعات ببلاغ الى النيابة العمومية للتحقيق فى هذا القذف مع كاتب المقال . ولما كان مثل هذا العمل ، ليس من شأن ادارة المطبوعات ، وليس من اختصاصها ان تتولى وكالة التبليغ الجنائى فى المسائل الشخصية البحتة، فقد اتصلت فى ذلك بوكيل الداخلية المرحوم حسن رفعت باشا ، وابلغته ما طلب الى الوزير ، وشرحت له وجهة نظرى فأقرها ، وطلب منى أن أقدم له مذكرة بذلك ، فقدمت اليه المذكرة المرغوبة ، ووافق عليها . ويجب أولا ان أذكر أنه كانت تربطنى بالنقراشي صداقة قديمة ، من وقت ان كان معلما بأسيوط ، وعرفنى به تلميذه المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى . وكنا طول الوقت على مودة منتظمة ، ومن ثم فقد كنت أعتقد انه سوف يقتنع بوجهة نظرى ، وسلامة نيتى .

استدعانى النقراشي بعد يومين الى مكتبه ، وسألنى عما عملت فى مسألة تبليغ النيابة ، فشرحت له وجهة نظرى باختصار ، وأفهمته أن هذا ما وافق عليه وكيل الداخلية ، فتجهم وجهه ، ولمعت نظرته ، وصاح بى « هو دا يا فندى مبلغ طاعتك لأوامرى » . اذهب الى مدير الأمن العام لكى تتلقى أوامره .

وعلمت بعد قليل من مدير الامن العام ، وقد كان يومئذ المرحوم عبد الرحمن عمار ان الوزير أمر بنقلى من ادارة المطبوعات الى مكتب وكيل الوزارة . وقال لى أن الوزير صديق للأستاذ العقاد . وهذا سر غضبه .

ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ، أننى لم أكن أتعاطف مع العقاد ، ولم أكن أذهب فى تقدير أدبه الى المدى الذى

يذهب اليه كثير من الشباب الذين يلتفون حوله ، ويحضرون ندواته . والعقاد كاتب كبير بلا شك ، ومؤلف خصب وافر الانتاج . ولكن معظم كتبه التي بدأها بالفصول النقدية والعبقريات الخالية من كل مادة علمية حقيقية ، ثم اعقبها بسلسلة طويلة من الكتب المختلفة ، التي لم تكن على الأغلب سوى خلاصة لما يهضمه من قراءة بعض المؤلفات الاجنبية الحديثة ، ولم تكن تجذب اهتمامي ، وأسلوبه بالرغم من سلامته العربية ، أسلوب جاف ، بعيد عن الجزالة ، التي يمتاز بها أسلوب زميله وصديقه المازني واشراقه . أضف الى ذلك ما كان يتسم به العقاد من التعالي والغطرسة والغرور الذي لا نهاية له . وهذا كله مما كان يبعدني عن التعاطف معه .

على أن هذا الرأي الخاص بالنسبة للعقاد وأدبه ، لم يكن له أية علاقة بالتصرف القانوني السليم ، الذي اتخذته في موضوع التبليغ الى النيابة للتحقيق مع الجريدة القاذفة ، ولكن النقراشي كان يرى ان رأيه هو القانون ، وأن رغباته يجب أن تنفذ مهما كانت مخالفته للنظام والقانون . وماذا عليه أن يسخر القانون وسلطات الدولة لتحقيق أهوائه . ومن ثم فقد عز عليه ان يقوم موظف مثلي من التابعين لرياسته وسلطاته بالوقوف ضد رغبة من رغباته .

واذكر بهذه المناسبة انني ذهبت لمقابلة صديقي المرحوم الدكتور حافظ عفيفي باشا مدير بنك مصر ، ورئيس مجلس ادارته . وقصصت عليه ما فعله النقراشي معي ، فقال لي أن النقراشي رجل حقود (وقالها بالفرنسية Rancunier) طول حياته ، وأنا مستعد لأن آخذك

للعمل معى فى البنك ، وأعطيك ادارة من اداراته الثمانية تكون مديرا لها ، وهى ادارة السكرتارية ، فتأثرت لوفائه ونجدته ، ووعدت بدراسة اقتراحه . وقد فكرت طويلا فى هذا العرض الكريم ، وقد كان عرضا سخيا سواء بمكانته أو مرتبه . ولكنى بعد التفكير ، خشيت أن يكون وجودى فى المنصب المصرفى ، وفى هذا الوسط الجديد من الأعمال البعيدة فى نوعها عما ألفته ، مما يشغلنى عن أعمالى وجهودى الأدبية ، وقد استطعت حتى الان ، أن أحافظ على مثابرتى فى معالجتها ، هذا فضلا عن أن هذه الوظيفة لم تكن لتتيح لى الاوقات الحرة التى تحتاجها رحلاتى الدراسية . ولست أعرف أن كنت قد اخطأت أو أصبت فى هذا التفكير . ولكن الذى حدث هو أنى اعتذرت عن قبول هذا العمل ، وان كان يسعدنى دائما أن أتعاون مع هذا الصديق الشهم الوفى .

والخلاصة أننى لم أر بعد صلف النقراشى ، ووضيع تصرفه ، الا أن أترك وزارة الداخلية ، فذهبت لمقابلة صديقى المرحوم الدكتور عبد الرازق السنهورى ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف ، وأبلغته بما حدث ، فعرض على أن أنتقل تحت رعايته فى وزارة المعارف ، فقبلت هذا العرض ، وتم نقلى الى المعارف بادارة الثقافة العامة ، رئيسا لقسم الترجمة ، وقد كنت حين وجودى بالداخلية مرشحا وحيدا للترقية الى الدرجة الثانية ، وكنت أظن أن النقل من وزارة الى أخرى لا يضيع حقى فى هذه الترقية . ولكن الدكتور السنهورى قال لى انه ليس بوسعه أن يحقق لى هذه الأمنية خشية « أن يثور ضده المعلمون » . فتركت الأمر وفى نيتى أن أترك خدمة الحكومة

متى توفرت لى مدة الخدمة التى تعطينى الحق فى المعاش. بيد انه حدث بعد ذلك بنحو عام ونصف أن تولى صديقى المرحوم الدكتور طه حسين وزارة المعارف ، فى وزارة الوفد الأخيرة ، فعرضت عليه موضوعى ، فبادر باصدار القرار بترقيتى الى الدرجة الثانية ، التى كنت أستحقها منذ عامين ، وتعيينى مراقبا بادارة الثقافة العامة ، ولما عرضت عليه رغبتى فى تولى ادارة دار الكتب قال بالحرف الواحد « انها من نصيب فلان ، وهذه رغبة السراى بالأمر » . وانتهى تجوالى فى الوظائف عند هذا الحد ، فلبثت اترقب الفرصة لمغادرة هذا الوسط الحكومى البغيض المتعفن .

وقد سنحت هذه الفرصة غير بعيد عقب الحدث الخطير الذى وقع فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . ففى العام التالى صدر قانون يجيز للموظفين اعتزال الخدمة بشروط معينة مقرونة ببعض المزايا ، وحفظ حقهم فى قبض مرتباتهم حتى بلوغ سن المعاش . ففى الحال قدمت طلبى باعتزال الخدمة ، وكان وزير التربية (المعارف) يومئذ صديقى المرحوم الاستاذ اسماعيل القبانى ، فبعث الى صديق الطرفين المرحوم الاستاذ فريد أبو حديد يطلب منى التريث فى ترك الوظيفة ، انتظارا لترقية سريعة مؤكدة . فبعثت اليه بخالص شكرى واعتذارى . وتم الأمر ، وغادرت الوظيفة ، مغتبطا سعيدا ، باسترداد حريتى ، والتفرغ لبحوثى التاريخية (ديسمبر سنة ١٩٥٣) . وكانت فى الواقع خطوة حاسمة مباركة ، كان لها أكبر الأثر فى انتاجى التاريخى الذى كنت أخطط له منذ اعوام طويلة سابقة ، وكانت تعوقنى الوظيفة عن تنفيذه . وكان المفروض أن

معظم دراساتى وبحوثى سوف تجرى معظم الوقت ، بعيدا عن مصر ، فى المكتبات والمخطوطات الخارجية . وكان هذا فى ذاته مزية كبيرة ، لأنى كنت أشعر شعورا عميقا ، بأن جو العهد الجديد وظروفه بمصر ، لا تحمل على الاطمئنان النفسى . وكنت بعد لحظة قصيرة من التفاؤل الذى غمر الشعب عند وقوع الانقلاب ، انظر الى الدكتاتورية العسكرية الجديدة ، واتجاهاتها بتوجس وتشاؤم ، اثبتت الأيام فيما بعد ، اننى كنت صادق الحس ، بعيد النظر فى فهمه وفى تقديره .

هذا ، وسوف افرد فى مكان آخر ، فصولا خاصة للتحدث عن هذا الموضوع ، وعن انطباعات هذا العهد وخواصه ، اما الآن ، فانى سوف امضى فى استعراض جهودى العلمية والدراسية التى استطالت فى المكتبات والمحفوظات الاسبانية ، والخزائن المغربية ، وعدد آخر من المكتبات والمحفوظات الأوربية ، زهاء عشرين عاما ، واسفرت بحمد الله وتوفيقه عن اخراج موسوعة التاريخ الاندلسى .

***

بيد انه يجدر بى قبل ذلك ان أشير هنا الى امكنة اقامتى بمدينة القاهرة خلال هذا العهد الطويل ، الذى اسطر حوادثه .

كانت عائلتى المتواضعة خلال ايام دراستى تتنقل فى السكنى فى احياء القاهرة الشعبية التى يسهل منها الوصول الى مدرستى . وكنت أثناء دراسة الحقوق ، اقيم بمفردى فى شقة أرضية متواضعة بالحارة التى توصل

بين شارع الخليج المصرى (بور سعيد الآن) وشارع جامع عابدين . ومنذ عدت من الاقاليم خلال حياتى العملية بالقاهرة ، تنقلت فى السكنى بين حى السيدة زينب وبركة الفيل . ثم سكنت عقب زواجى سنة ١٩٣٠ فى منزل خاص يقع قرب وزارة المالية خلف مدرسة الخديو اسماعيل ، وبه ولد ولدى الأكبر الدكتور محمود ، وانتقلت منه الى شبرا تبعا لنصح الطبيب ، ورعاية لصحة ولدى ، فى حى طلق الهواء . وكانت شبرا يومئذ ما زالت ، فى اواخر أحيائها ، خالية فسيحة الارجاء . فسكنت هنالك فى فيللا جميلة ، ذات حديقة . ولما اشتد ولدى قليلا ، عدت الى المدينة ، وانتقلت الى الحلمية الجديدة فى منزل عائلى كبير من منازل الباشوات القدامى ، يقع فى شارع الهامى ، وكانت جل منازله يومئذ من الفيلات الخاصة ، وتسكنه طائفة من العائلات المحترمة ، ومنها منزل المرحوم محمد نسيم باشا ، وقد حول فيما بعد الى مدرسة .

واستطالت اقامتى فى هذا المنزل نحو عشرين عاما ، وكبر به أولادى الثلاثة . وتخرج فيه ولدى محمود من كلية طب قصر العينى ، وتخرجت ابنتى سعاد من كلية الآداب بجامعة القاهرة . وعندئذ ، وحينما تحولت معظم منازل الشارع الى عمارات سكنية حاشدة ، رأيت أن انتقل الى منزل آخر أكثر جدة وهدوءا ، وفى حى أرستقراطى . واستقر الرأى العائلى ، على أن يكون ذلك فى ضاحية المعادى ، وكان ذلك فى سنة ١٩٥٨ . وكانت هذه الضاحية ما تزال يومئذ علىّ رونقها وفخامتها التى أسبغتها عليها خططها الارستقراطية ، وسكانها الأجانب ، وكانوا يومئذ كثرة بها . ولم يكن قد أصابها الاهمال التدريجى ، والغزو

الشعبى المبتذل . فنزلت بها فى دور كبير فخم ، هو الدور الاول من فيلا جميلة ، تقع فى شارع ٩ ، وبه غرفة كبرى تتسع لمكتبتى الكبيرة ، وبهذاالمنزل تخرج ولدى حسين من كلية الحقـوق . وما زلت أقيم مغتبطا بهذا المنزل الجميل الساحر ، حتى كتابة هذه السطور ، وذلك بالرغم من انى املك فى المعادى نفسها فيلا فخمة ، يسكن بها ولدى حسين وعائلته ، ويتولى شئونها ، وبالرغم مما طرأ على المعادى من تغير كبير فى مستوى سكانها ، وما أصابها من الغزو الشعبى المؤذى ، وما تقاسيه من أهوال المواصلات التى لا تليق بأى مجتمع متمدن . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الدراسات الاسبانية والمغربية

انى اعتقد ان هـذه الفترة الطـويلة ، من دراسـاتى التاريخية ، أو بعبارة أخرى دراساتى الاندلسية ، والتى كان مسرحها بالاخص فى اسبانيا والمغرب ، هى ألمع ما فى حياتى العلمية . وقد بدات هذه الفترة بصدور الطبعة الاولى من كتابى . دولة الاسلام فى الاندلس ، فى سنة ١٩٤٣ . وقد كانت محاولة متواضـعة ، ولم أكن حين صدورها قد وفقت الى دراسة أية من المصادر الاندلسية المخطوطة ، التى ظفرت بالكثير منها فيما بعد ، وقد بدات زياراتى لشبه الجزيرة الاسبانية فى سنة ١٩٥٠ ، بعد أن استقرت الاحوال ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانيـة فدرست اللغة الاسبانية ، وقد بدات بتعلمهـا بالمـركز الثقافى الاسـبانى بالقـاهرة على يد معلمنـا السنيور سواريس ، وكنا فصلا صغيرا بحدود العدد . وحصلت فى

دراستى على بعض الشيء . ولكنى مدين بدراستى الحقيقية ، وتقدمى فى تعلم الاسبانية الى أستاذتى السيدة دونيا كارمن دى كامبوس ، حيث درست معها مدى فترات طويلة متوالية خلال اقاماتى بمدريد ، وهى سيدة أندليسية الاصل ذات ثقافة عالية ، وقد درست الادب الفرنسى فى باريس ، وقد كانت موظفة بمعهدنا المصرى بمدريد ، ثم أقيلت منه لبعض الوشايات . فالى هذه السيدة يرجع الفضل فى تقدمى الحقيقى فى اللغة الثقافية الاسبانية واجادتها دراسة وحديثا ، دون عيب فى النطق ، حتى انتهيت الى القاء العديد من محاضراتى التاريخية بمعهدنا بمدريد باللغة الاسبانية . وكان يشجعنى على ذلك حسبما اشرت اليه فى موضعه ، صديقى الدكتور حسين مؤنس ايام رياسته لهذا المعهد الجليل وقمت من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٤ بأربع عشرة رحلة دراسية الى اسبانيا ، وقمت بعشر رحلات الى اقليم الاندلس زرت فيها الحواضر الاندلسية الشهيرة ، قرطبة ، وجيان ، واشبيلية ، وغرناطة ، ومالقة ، ورندة ، والمرية مرارا وتكرارا ، وهذا عدا ما قمت به من زيارة سائر قواعد اسبانيا المسلمة القديمة فى شمال الاندلس ، وفى شرقها ، ووسطها ، وغربها ، ففى الشمال ، فى الثغر الاعلى ، برشلونة وسرقسطة ، ولاردة ، ووشقة ، وتطيلة ، وطرطوشة ، وطركونة . وفى الشرق ، بلنسية ، ودانية ، وشاطبة ، ولقنت ، ولوريولة ، ومرسية ، وقرطاجنة ، ولورقة ، وفى الوسط ، مدينة سالم ، ووادى الحجارة ، وآبلة ، وطليطلة ، وشلمنقة ، وفى الغرب ، بطليموس ، وقلمرية ، وماردة ، وشنترين ، واشبونة ، ولبلة ، وولبة ، وغيرها،

وغيرها . وما قمت به من زيارة سائر قواعد اسبانيا النصرانية التى لها علاقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، من حواضر قشتالة القديمة ، وقشتالة الجديدة ، وجليقية ، وليون ، وأراجون ، ونبرة . وقد استغرق هذا الطواف المستمر بأنحاء شبه الجزيرة الاسبانية زهاء أربعة أعوام من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٤ . وكانت ثمرة هذا المجهود الكشفي الشامل ، اخراج كتابى « الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » .

والى جانب ذلك ، فقد قمت بدراسات طبوغرافية وتاريخية لعدد من ميادين المعارك والوقائع الحربية الاخرى التى اضطربت بين الاندلس المسلمة واسبانيا النصرانية ، ولا سيما معركة الفتح الاولى بجبهة شريش ، ومعركة الصخرة ، او كسوفادونجا ، التى صمدت فيها فلول القوط أمام المسلمين ، وكان فيها مولد المملكة الاسبانية النصرانية ، ومعركة الزلاقة بجبهة بطليوس ، ومعركة الأرك بجبهة سانتا ماريا دى الاركوس على مقربة من ثيوداد ريال ، ومعركة العقاب الكبرى فى وديان سييرا مورينا ، وفى قرية سانتا ايلينا ، على مقربة من ابدة . كما زرت عددا كبيرا من أطلال الحصون الاسلامية القديمة . وقد كان لهذا التجوال الشامل فى شبه الجزيرة الاسبانية ، ولهذه الدراسات التاريخية والجغرافية العميقة للمواقع والأطلال والآثار ، أكبر الأثر فى تكييف دراساتى التاريخية ، وفى القاء الضوء على كثير من نواحيها الغامضة .

واود أن اسجل باديء ذى بدء ، انى قمت بهذه الرحلات الدراسية كلها ، وغيرها ، الى المغرب ، وايطاليا

وانجلترا ، والتى كلفتنى مبالغ طائلة ، خلال عشرين عاما، قمت بها على نفقتى الخاصة . ولم التمس بل ولم أكن لاقبل أية معاونة مادية من أية جهة حكومية أو أية هيئة علمية ، ضنا بحريتى فى البحث والتفكير ، وحرية قلمى ، التى كنت اضعها دائما طول حياتى ، موضع التقديس ، واستطعت بحمد الله أن أحتفظ بهـا دائما ، وفى كل الظروف .

***

هذا ، وقد كان مجال الدراسات الاندليسية فى اسبانيا غزيرا واسع المدى ، ففى مدريد ، توجد المكتبة الوطنية الكبرى ، وهى بمحتوياتها المخطوطة والمطبوعة ، تعتبر من أعظم دور الكتب فى أوربا . والى جانبها دار المحفوظات التاريخية ، وهى تحتوى على وثائق أندلسية عديدة عربية ومدجنية ، ثم هنالك مكتبة أكاديمية التـاريخ ، وبهـا مجموعتان من المخطوطات العربية النفيسة ، هما مجموعة جاينجوس ، ومجموعة كوديرا ، هـذا الى مجموعة من مخطوطات الالخميادو الموريسكية .

وعلى مقربة من مدريد توجد بقصر الاسكوريال الملكى El Escorial مكتبة الاسكوريال الشهيرة ، وهى المكتبة الملكية السـابقة ، وهى تضم الى جانب ما تضـمه من المجموعات النفيسة ، المخطوطة والمطبـوعة ، مجمـوعة المخطوطات الاندلسية والمغربية الشهيرة ، وعددها نحو الفى مخطوط ، ومن بينها عدد كبير من بقايا مخطوطات المكتبة الزيدانية المغربية الشهيرة (مكتبة السلطان مولاى زيدان) التى استولى عليها الاسبان قسرا فى عرض البحر ، فى المياه المغربية ، فى سنة ١٦١٢ م ، وضمت الى مكتبة

الاسكوريال الملكية ، وكانت مجموعة المخطوطات الأندلسية والمغربية بالاسكوريال ، تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط . ولكن شبت النار في الاسكوريال في سنة ١٦٧١ ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم يبق منه سوى الألفي مخطوط التي سبق ذكرها ، وقد وضع العلامة ميخائيل الغزيري اللبناني المعروف في الغرب باسم ، فهرسا علميا جامعا لهذه المجموعة باللغة اللاتينية ، صدر في مجلدين كبيرين (سنة ١٧٦٠ — ١٧٧٠) . ثم قام المستشرق الفرنسي هارتفج ديرنبور في أواخر القرن الماضي بوضع فهرس جديد بالفرنسية للمجموعة الأندلسيةالمغربية وتوفي قبل اتمامه ، فأتمه بعض تلاميذه من مذكراته ، وهو الذي يرجع اليه معظم الباحثين .

ويوجد بين مجموعة الاسكوريال العربية ، عدد كبير من المصادر التاريخية والأدبية التي تلقي أضواء كثيرة على التاريخ الأندلسي . وقد أنفقنا خلال الاعوام المتوالية ، منذ سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٠ ، زهاء عشرين عاما ، أوقاتا عديدة في الاشتغال بهذه المكتبة التالدة ، وزرناها عشرات المرات ، وحصلنا على الكثير من صور مخطوطاتها النفيسة ، وما زلنا حتى اليوم نتردد عليها كلما سنحت لنا الظروف بزيارة مدريد .

ومكتبة الاسكوريال ، وهي حسبما أشرنا ، المكتبة الملكية السابقة ، يقوم بادارتها الآباء الاوغسطنيون ، ومديروها من هؤلاء الآباء الافاضل ، وقد كانت تربطني بهم دائما روابط مودة صادقة ، ولا اذكر أنهم اهملوا قط في تحقيق أية رغبة من رغباتي خلال الاوقات العديدة ، التي كنت أشتغل فيها تحت رعايتهم وجميل مفادتهم .

وأما عن دور المحفـــوظات والوثائق ، فهنـــالك أولا دار المحفوظات الاسبانية العامة **Archivo general de Simancas** فى سيمانقا وهى من أعظم دور المحفوظات فى العالم ، وهى تقع فى سيمانقا **SimaNcas** على مقربة من مدينة بلد الوليد **Valla Dolid** فى قلب قشتالة القديمة ، على بعــد أربع ساعات بالقطــار من مدريد ، وتضمها قلعة اسلامية قــديمة ضـخمة ، قد جددت ونظمت ، وبها أبهاء عديدة تغص بالمحفــوظات والوثائق الثمينة ، ومن بين أبهائها ، أكثر من بهو يضم مجموعات كبيرة من الوثائق العــربية ، الأندلسية والمغربية ، وبها عدة أبهاء تضم وثائق ديوان التحقيق **Inquisicion**

وقد زرناها واشتغلنا بها مرارا ، وصورنا هذه المكتبة الملكية السابقة . ويعتبر الاسكوريال من أضخم وأفخم الصروح الملوكية ، أنشأه فيليب الثانى ملك اسبانيا تخليدا لذكرى انتصاره على الفرنسيين فى موقعــة سان كانتان (سنة ١٥٥٧ م) ، وتنويها بذكر القديس لورنزو الذى استمد فيليب الثانى عونه فى تلك الموقعـــة . واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما . وهو يضم قصرا ملكيا وكنيسة وديرا ، ومكتبة ، ومعهدا دينيا ، ومدفنا ملوكيا . وتغص أبهاء الجناح الملكى بالصور والبســط الفــاخر والتحف النــادرة . على أن الذى يهم البــاحث المتطلع من قصر الاسكوريال هو جناحه الأيمن . ففى هــذا الجناح تقع المكتبة الملكية الشهيرة ، والى جانبها تقع الكلية الدينيـــة التى يديرها الآباء الاوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون

على المكتبة . وتضم المكتبة (١) . بهوا شاسعا فخما بنى سقفه بالحنايا المعقودة ، وتعرض فيه اليوم ، طائفة من المخطوطات النادرة التى تحتويها المكتبة . ومنها مصحف اندلسى ملوكى من القرآن الكريم ، كان ملكا للسلطان احمد المنصور ملك المغرب ، زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة، ومنها مخطوط عربى مصور عنوآنه : « السلوانات فى مسامرة الخلفاء والسادات » ، ويحتوى على طائفة مصورة من قصص الخلفاء ، وهو من تأليف محمد بن ظفر الصقلى . ومخطوط آخر مصور ايضا من كتاب « منافع الحيوان » من تأليف ابن الدريهم الموصلى . ونسخة خطية قشتالية من كتاب الفونسو العالم فى الفلك ، وهو الكتاب الذى عاون فى تأليفه بعض علماء الأندلس .

ومكتبة الاسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية فهى تضم نحو ستين الف مجلد فقط . منها خمسون الف مجلد مطبوعة . ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من توادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية نحو الفى مخطوط .

ولهذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية قصة مشجية ، خلاصتها أن الكتب العربية بدأت تودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال منذ انشائها ، وكان معظمها من المخطوطات الاندلسية التى جمعت من قواعد الاندلس المفتوحة . وكانت يومئذ تبلغ عدة آلاف . ثم

(١) واسم هذه المكتبةالرسمى هو : « المكتبة الملكية لدير القديس لورنزو بالاسكندرية »

وقع بعد ذلك حادث ترتبت عليـــــه ان ضوعف عدد المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال . هو استيلاء الاسطول الاسبانى على المكتبة الزيدانية المغربية فى عرض البحر ، وهى مكتبة السلطان مولاى زيدان ابن السلطان احمد المنصور . وكان مولاى زيدان قد اضطر تحت ضغط الفتن واشتداد ساعد خصومه ، أن يغـــادر عاصــــمته مراكش ، وان يحمل معه امواله وذخائره ومكتبته الثمينة ، وكانت تحتوى على نحو ثلاثة أو أربعة آلاف من نفائس الكتب المغربية والاندلسية والمشرقية ، فى عدد من السفن استأجرها لـكى تحمله مع ذخائره شمالا في اتجـــاه ثغر أغادير ، وقد فاجأها الاسطول الاسبانى فى عرض البحر ، واستولى عليها . وكان ذلك فى سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م . وحملت هـذه المـكتبة الثمينة غنيمة لتودع فى المكتبة الملكية بقصر الاسكوريال، وارتفع بذلك عدد المخطوطات العربية فى المكتبة الملكية الى نحو عشرة آلاف مخطـــوط . وكانت أعظم واثمن مجموعة من نوعها ، ولا سيما لما كانت تحتويه المكتبة الزيدانية من نوادر الكتب التى جمعها صاحبها السلطان الاديب العـــالم مولاى زيدان ، وكان من عشاق نفائس الـكتب .

واستمرت هذه المجموعة النفيسة الضخمة من الكتب العربية بقصر الاسكوريال ، حتى وقع به الحريق الكبير فى سنة ١٦٧١ . وامتد هذا الحريق المدمر الى المكتبة فأتى على معظم الكتب العربية ، ولم يبق من هذه المجموعة العظيمة سوى نحو الفى مخطوط هى التى ما زالت تثوى الى اليوم بدير الاسكوريال .

وما زالت هذه المجموعة العربية بالرغم مما نزل بها من النكبة الفادحة ، تجذب أنظار الباحثين فى المشرق والمغرب ، وما زالت تضم عددا كبيرا من الكتب النفيسة النادرة ، ومنها نحو مائة مخطوط من محتويات المكتبة الزيدانية السابقة .

وكانت الحكومة الاسبانية أثناء هذه العصور تحرص كل الحرص على اخفاء هذه المجموعة العربية ، عن نظر كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تبث روح التفكير الاسلامى فى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذه الروح كل جهد ووسيلة ، وكان الكتاب الاسبان انفسهم تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة ، وعلى حضارتها وثقافتها . ولا يرجعون فى هذا القسم من تاريخ بلادهم الى المصادر النصرانية وحدها ، ومن ثم كانت كتبهم فى هذه العصور تفيض بالتحامل والتعصب . ولم تفق الاسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الاندلس والتعريف به قبل أواسط القرن الثامن عشر . فعندئذ رات أخيرا أن تقوم باحصاء المجموعة العربية والتعريف بواسطة فهرس علمى جامع يوضع لها . ووقع اختيارها للقيام بهذه المهمة على عالم يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، وهو الحبر المارونى السورى ميخائيل الغزيرى ، الذى يعرف فى البحوث الغربية باسم فاستدعته الى مدريد فى ١٧٩٩ ، وعينته مديرا لمكتبة الاسكوريال ، وعهدت اليه منذ البداية بالمهمة الرئيسية التى دعته الى القيام بها ، وهى دراسة المجموعة

العربية بالاسكوريال والتعريف بها . وكان الغزيرى رجل المهمة ، فقد درس العلوم الدينية واللغات الشرقية واللغة اللاتينية واللاهوت والفلسفة بالشرق ورمة ، وقضى زهاء عشرة أعوام فى دراسة المجموعة العربية بالاسكوريال ، واتبع فى وضع فهرسه قاعدة التركيز والتحليلات ، وجرى على أسلوب الاقتباسات الموجزة والمطولة فى ابراز قيمة المخطوطات ذات الاهمية الخاصة ، وترجمة هذه الاقتباسات الى اللاتينية . وفى سنة ١٧٦٠ ، اصدر الجزء الاول من فهرسه اللاتينى الشهير بعنوان : المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال - Bibliotheca Arabico Hispana Escurialensis مجتويا على ابواب النحو والبلاغة والشعر والكتب اللغوية والمعاجم والفلسفة والاخلاق والسياسة والطب والتاريخ الطبيعى والرياضيات ثم اللاهوت فالعقائد ثم الكتب النصرانية ، ومنتهيا بالرقم ١٦٢٨ .

ومضت بعد ذلك عشرة اعوام أخرى قبل أن يستطيع الغزيرى اصدار المجلد الثانى من فهرسته وقد صدر فى سنة ١٧٧٠ باللاتينية أيضا وبنفس العنوان « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » . وهو يفتتحه بقسم الجغرافية مبتدئا بالرقم ١٦٢٨ . ثم يليه قسم التاريخ . وبعد قسم التاريخ ، يستعرض الغزيرى طائفة منوعة من المخطوطات المختلفة المواضيع والصفات مما لم يدخل من قبل فى الاقسام التى سبق ذكرها ، ويصل بتعداد هذه المخطوطات الى الرقم ١٨٥١ . ثم يلى ذلك كشاف عام بالاعلام والكتب يستغرق نحو النصف الاخير من المجلد الثانى .

وقد كان صدور فهرس « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » فتحا جديدا فى ميدان البحوث الاندلسية ، اتجهت اليه أنظار الباحثين ، والفوا فيما يعرضه من المراجع والوثائق كنوزا من الحقائق والمعلومات التى لم يسبق أن ظفروا بها عن تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها وعلومها وفنونها . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر لا يعرف من تاريخ اسبانيا المسلمة سوى ما تعرفه الروايات النصرانية من شذور مغرضة . وكانت مئات الحقائق ، تغمرها حجب التعصب والتحامل والكذب . فجاءت وثائق الاسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الادلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الاندلسية ، وظهرت كتب عديدة جديدة فى هذا الموضوع تستقى كثيرا من مادتها من المراجع المخطوطة التى كشف عنها فهرس الغزيرى ، وفى مقدمتها مؤلفات اندرين وماسدى وكوندى ودوزى وغيرهم .

ولبث معجم الغزيرى أكثر من قرن مرجعا فريدا للمجموعة العربية الاسبانية فى الاسكوريال ، حتى قام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية بدراسة جديدة لمحتويات هذه المجموعة فأنفق فى هذه المهمة أعواما واخرج أول جزء من معجمه « Les Manuscrits Arabes de l'Escurial » (المخطوطات العربية بالاسكوريال) . وبالرغم من انه يبدى فى مقدمته ريبة فى قيمة الجهود التى بذلها سلفه ، والى تبيان طائفة من أخطائه ، فانه لم ير مع ذلك بدا من اتباع طريقته فى التنظيم والتبويب والترقيم مع تغيير

يسير . وقد عثر ديرنبور في زوايا الاسكوريال على نحو مائة مخطوط عربي أخرى لم يذكرها الفزيري . كما أنه لم يعثر على بعض مخطوطات ذكرها . وقد اختفى في الواقع كثير من آثار هذه المجموعة خلال الاحقاب المتوالية، وانتهى ديرنبور في تعداده الى الرقم ١٩٥٥ والفزيري يقف حسبما قدمنا الى الرقم ١٨٥١ التي تعادل ١٨٥٦ من ترقيم ديرنبور . فهو يزيد على الفزيري بأكثر من مائة اثر جديد عثر بهــــا . واستطاع ديرنبور أن ينجز في فهرسه أقسام اللغة والبلاغة والشعر والادب والاخلاق والسياسة ثم توفى سنة ١٩٨٥ . وقــام باتمام مهمته الاســـــتاذان ليفي بروفنسال ورينو ، وذلك من واقــع المذكرات التي تركها ديرنبور . وبذلك أصبح للمجموعة العربية الاسبانية في الاسكوريال فهرسان كاملان ، يرجع اليهما في دراسة محتــــويات هذه المجموعة النفيسة النادرة :

***

ويوجد بين مجموعة الاسكوريال العربية ، عدد كبير من المصادر التاريخية والادبية التي تلقى أضواء كثيرة على التاريخ الاندلسي ، وقد أنفقنا خلال الاعوام المتوالية ، منــذ سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٧٠ ، زهاء عشرين عاما اوقاتا عديدة في الاشتغال بهذه المكتبة التالدة ، وزرنا عشرات المرات ، وحصلنا على الكثير من صور مخطوطاتها النفيسة . وما زلنا حتى اليوم نتردد عليها كلما سنحت لنا الظروف بزيارة مدريد .

وقد كانت تربطني خـــلال عملي بمكتبة الاسكوريال

روابط مودة وثيقـــة بمديريهـا المختلفـين من الآباء الاوغسطينيين . وكانت تربطني هذه المودة بنوع خاص في أعوامي الأوائل بمديرها المغفور له الاب مسيو موراتا الاستاذ بالمعهد الديني ، والمستشرق البارع والاخصائي في فلسفة ابن رشد . ولا أذكر انه قصر اية مرة في تحقيق اية رغبة من رغباتي . وكان رغم شـــيخوخته وضعفه يحمل الي بنفسه أحيانا المخطوطات التي أطلبها .

***

وأما عن دور المحفوظات والوثائق ، فهناك أولا دار المحفوظات الاسبانية العامة Archivo general de Simancas في سيمانقا Simancas أو بالعربية شنت منكش ، وهي بلدة اسبانية صغيرة ، تقع على مقربة من جنوب غربي مدينة بلد الوليد Valladolid في قلب قشتالة القديمة ، على بعد اربع ساعات بالقطار من مدريد . والى جانبها قلعة اسلامية قديمة ضخمة ترجع الى القرن التاسع الميلادى . وقد تقرر اتخاذ هذه القلعة منذ عهد الامبراطور شـــــارلكان سنة ١٥١٧ دارا للمحفوظات الاسبانية العـــــامة ، ولكن هذا القرار لم ينفذ الا في سنة ١٥٦٣ في عهد ولده الملك فيليب الثاني ، وذلك بعد أن أدخلت على القلعة التعديلات الهندسية اللازمة على يد أعظم مهندسي ذلك العصر . وهي تحتوى على ستة وأربعين بهوا وغرفة كبيرة ، تغص بالمحفوظات والوثائق الثمينة ما بين محفوظات رسمية ، ومحفوظات خاصة . ومن بين أبهائها ، أكثر من بهو يضم مجموعات كبيرة من الوثائق العربية والاندلسية والمغربية . وبها كذلك عدة أبهاء تضم وثائق ديوان التحقيق ومحـــــاكم التحقيق الشهيرة

Inquisioion . وبها جناح لسكنى الاساتذة الباحثين Casa de los profesores كان وقت ترددى عليها منذ عشرين عاما يدفع فيه أجر زهيد للاقامة والطعام ، وهو ستون بيسيتا فى اليوم ، وهو أجر لا يكاد يصدق اليوم . وقد زرناها واشتغلنا بها مرارا ، وحصلنا على صور الكثير من وثائقها الاندلسية والمغربية والقشتالية القديمة . ومنها عدد منشور بكتابنا « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

وثانيا ، توجد بمدينة برشلونة مجموعة وثائق التاج الارجونى ، Archivo de la Corona de Aragon وهى تختص بحفظ وثائق مملكة أراجون الملكية ، من اندلسية وغيرها . وبها مجموعة كبيرة من الوثائق المصرية المملوكية ، التى كان يرسلها سلاطين مصر الى ملوك اراجون . وقد حصلنا على صور الكثير من وثائقها .

وثالثا ، توجد فى اشبيلية وغرناطة وبلنسية ، مجموعات هامة من الوثائق الاندلسية والقشتالية ، التى تلقى ضوءا على تاريخ الاندلس ، وتوجد بالمجموعة الغرناطية بالاخص وثائق عديدة ، عن سقوط غرناطة ، وعن دخول الملكين الكاثوليكيين اليها .

***

فى هذا الميدان الفياض بتراث المراجع والوثائق الاندلسية ، العربية والقشتالية ، عملت أعواما طويلة ، بحماسة وهمة ومثابرة ، لم يشبها اى ضعف أو تخاذل ، ولم أترك منها جهة أو مصدرا الا عكفت على دراسته ، واستخراج نفائسه ، وكنت فضلا عن العمل فى هذه النواحى الرئيسية ، اطرق بعض الجهات الثانوية الاخرى

كالاديار والكنائس والبلديات . فقد استطعت ان احصل على صورة وثيقة مدجنية هامة من بلدية بنبلونة ، وعلى صور من وثائق مدجنية عديدة من كاتدرائية سرقسطة ، ومن دير سانت كلمنتى بطليطلة ، وغيرها . وكان اتقانى يومئذ للغة الاسبانية ، التى بدأت دراستها ، قبل ذلك بأعوام طويلة ، تمدنى بتسهيلات كثيرة فى أسفارى وتنقلاتى واتصالاتى وبحوثى ، أينما ذهبت ، واينما تجولت فى أنحاء شبه الجزيرة الاسبانية .

ولن أنسى أن أسجل هنا ما لقيته خلال دراساتى الطويلة فى اسبانيا ، من معاونة معهدنا المصرى بمدريد « معهد الدراسات الاسلامية » . فقد اسدى الى كثيرا من المعاونات لدى مختلف الهيئات العلمية ، وقد كنت اجد فى مكتبته الغنية عديد المصادر النفيسة العربية والاجنبية . وقد لقيت بالاخص من صديقى وزميلى فى البحوث الاندلسية ، الدكتور حسين مؤنس ، الذى شغل منصب المدير لهذا المعهد الجليل أعواما طويلة ، والذى عمل بجهوده المتوالية على اغناء مكتبة المعهد وتزويدها بأهم المصادر الاندلسية العربية والاجنبية ، لقيت منه كل مودة وعون ومجاملة ، وقد كان يدعونى بصفة منتظمة لالقاء محاضراتى بالمعهد ، وهو الذى شجعنى على القائها باللغة الاسبانية ، بعد أن كنت ألقيها بالانجليزية والفرنسية .

وقد بدأت ثمار هذه الدراسات والبحوث ، تبدو فى كتبى الاندلسية ، منذ سنة ١٩٥٥ ، حيث ظهرت الطبعة الثانية من « دولة الاسلام فى الاندلس » ، ثم طبعته الثالثة فى سنة ١٩٦٠ ، ثم الرابعة فى سنة ١٩٦٩ ، وكل طبعة منها تضم وثائق واضافات جديدة ، مستخرجة من

مختلف المـراجع والوثائق المخـطوطة ، الاندلسية أو المغربية . وقد كان أهم ما تضمنته هذه الطبعة الرابعة طائفة من الوثائق التاريخية الهـامة ، استخرجت من قطعة كبيرة من كتاب المقتبس لابن حيان عمدة مؤرخي الاندلس . وقد وحد هذا المخـطوط ، وهو الوحيد فى العالم ، ضمن محتويات الخزانة الملكية ، وكانت ما تزال يومئذ حبيسة فى أماكنها بمدينة فاس . وقد سعيت الى الاطلاع على هذا المخطوط ، فسمحت لى سلطات الديوان الملكى بذلك ، وأحضرت الى المخـطوط من فاس لأطلع عليه بأحد مكاتب الديوان ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٥ ، وكنت أول من حظى باستعراض هذه القطعة النفيسـة من مؤلف ابن حيان ، وهى قطعة ضخمة تقع فى مائة وثمانين ورقة كبيرة . وكانت يومئذ قبل ترميمها فى حالة مؤسفة من التمزق والتلف . وقد وصفت فى نهايتها بأنها السفر الخامس من « المقتبس » . وتتضمن الحديث عن حوادث الثلاثين سنة الاولى من حكم عبد الرحمن الناصر ، وتورد لنا معلومات شيقة عن أحوال البلاط والوزراء والعمال فى تلك الفترة ، وبها طائفة من الوثائق السياسية والسلطانية الهامة ، مثل كتاب الناصر عن موقعة الخندق ، وصورة الامان الذى أصدره لمحمد بن هاشم أمير سرقسطة ، والامان الذى أصـدره للثـائر عمر بن حفصون عقب الصلح معه ، وصورة المرسـوم الذى أصدره عن اتخـاذه لقب الخـلافة ، وغيرها من الوثائق الهامة . وقد نقلتها جميعا مع شذور وحوادث هامة أخرى ، وكانت القطع الممزقة تتساقط مع المخطوط بين يدى . وقد لبثت مدى أسبوعين كاملين لنسـخ نفائس ما يقع لى ، وأدرجت هذه الوثائق النفيسة كلها

فى الطبعة الرابعة من « دولة الاسلام فى الاندلس » الصادرة فى سنة ١٩٦٩ . وقد نشر هذا الجزء الضخم من تاريخ ابن حيان أخيرا بمعرفة المعهد الاسبانى العربى بمدريد ، وذلك فى سنة ١٩٧٩ . وقد انتفعت قبل ذلك بدراسة بعض قطع مخطوطة اخرى من تاريخ ابن حيان وعثرت بما فى خزانة القرويين الكبرى تتضمن شذورا هامة من السفرين الثانى والثالث ، وكانت فى حالة يرثى لها من التلف . وقد نشرت هذه القطع فيما بعد بمعرفة صديقى الدكتور محمود على مكى .

وحدث شىء من ذلك فى كتاب « دول الطوائف » فى طبعته الاولى سنة ١٩٦٠ ، ثم فى طبعته الثانية سنة ١٩٦٩ ، وهو العصر الثانى من « دولة الاسلام فى الاندلس » . ثم فى كتابى الكبير « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس (سنة ١٩٦٤ — ١٩٦٥) وهو العصر الثالث من دولة الاسلام فى الاندلس ، وقد امتاز هذا الكتاب بالأخص بدراسة طبوغرافية عميقة لموقعة من أهم المواقع التى وردت به ، وهى موقعة العقاب الحاسمة التى اضطرمت بين الجيوش الموحدية والجيوش النصرانية فى سنة ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م ، وهزم فيها الموحدون هزيمة ساحقة ، وذلك فى وديان سييرا مورتيا بجوار قرية سانتا ايلينا الواقعة على مقربة من ابره . وقد انفقت فى هذه الدراسة أربعة أيام كاملة فى المواقع التى اضطرمت فيها هذه الموقعة الخطيرة بمعاونة زميلى السنيور سالباتور الدليل العارف بدقائق هذه الناحية ، وصعدت الى قمة اطلال حصن سلبطرة ، الذى كان فاتحة الموقعة وصعدت الى أعلى جبال سييرا مورتيا حيث كانت تعسكر الجيوش النصرانية ، وتجولت فى

الوادي المجاور حيث كانت تعسكر الجيوش الموحدية ، وحضرت بيدى فى هذا المكان بحثا عن أسهم الخيل ، فعثرت بأربعة منها أبرزت صورتها فى كتابى وقد لبثت خلال هذه الرحلة الدراسية بضعة اشهر فى مدريد ، كتبت فيها جزءا كبيرا من كتاب الموحدين . وكان ذلك فى سنة ١٩٦٣ .

وأخيرا حدث نفس الشيء فى كتاب « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » فى طبعته الثانية (١٩٥٦) ثم الثالثة (١٩٦٦) وهو العصر الرابع والاخير من « دولة الاسلام فى الاندلس » . وقد تضمنت هذه الطبعة صور عدد من الوثائق التاريخية الجديدة ، معظمها مستخرج من دار المحفوظات الاسبانية العامة فى « سيمانقا » ، ومنها آخر صفحة من معاهدة تسليم غرناطة وقد ظهرت بها توقيعات الملكين الكاثوليكيين وسكرتيرهما فرناندو دى ثغرا . وان المتتبع لمراحل هذه الموسوعة فى التاريخ الاندلسي ، ومختلف وثائقها واضافاتها المزيدة ، يدرك مدى الجهود المتوالية الشاقة ، التى بذلت فى تزويدها بهذه الكنوز الجديدة من الحقائق التاريخيـة ، تؤيدها المراجع والوثائق المخطوطة ، التى لبثت عصورا دفينة فى مراقدها المحفوظة ، وهى اليوم تنشر أضواءها النفيسة على جهود البحث الدائب الصابر الحثيث .

واود أن أشير بهذه المناسبة ، الى بعض العلماء والمستشرقين الاسبان الذين كان لى حظ الاتصال بهم ، وتبادل الافكار معهم ، وأبدأ بذكر العلامة الكبير الاستاذ رامون منديث بيدال R. M. Pidal (١٨٦٩ — ١٩٦٨) أعظم مؤرخي اسبانيا فى القرن العشرين ، ورئيس الاكاديمية الاسبانية مدى خمسين عاما . وقد تعرفت

به منذ بداية بحوثي الاسبانية فى أوائل الخمسينيات ، والفيت فيه عالما من أجل علماء العصر ، ومؤرخا من أعظم مؤرخي العصر . وقد اشتهر بالاخص بكتــابه « اسبانيا فى عهد السيد » « La Espana del Gid » وهو مؤلف نفيس ضخم يقع فى مجلدين كبيرين . وقد التقيت به مرارا فى فيلته الجميلة بضــاحية شمرتين بمدريد . وكنا فى كل مرة نتبادل الآراء فى بعض مسائل التاريخ الاسبانى ، وبالأخص تلك التى لها علاقة بالتاريخ الاندلسي ، ومن هــذه المســائل ، تقــدير شــخصية « السيد » « El cid Campeador » (السيد الكنبيطور)، الذى يعتبره الاستاذ بيدال ، فى كتابه المشار اليه « بطل اسبانيا القومى » ، وأخالفه فى هذا الرأى ، واعتبره ، متفقا فى الرأى مع دوزى ، جنديا عظيما يبحث وراء طالعه ، ومنها مسألة قيام اسبانيا النصرانية ، بهــدم معظم الصروح الاندلسية الاسلامية ، من مساجد ومدارس وقصور ، وحصون ، وغيرها ومنها نماذج فــريدة من الفن المعمارى . ويبرز الاستاذ بيدال ذلك أولا ، بأن هدم المساجد كان عملا منطقيا ، اذ لم يكن لوجودها مكان بعد انتهاء دولة الاسلام فى الاندلس ، ولابد أن تقوم مكانها الكنائس ، وثانيا لان اسبانيا فى عهد البروتستانية (منذ القرن الخامس عشر) . كانت بلدا متزمتا لا يطلب منه أن يعتنق المبادىء التحريرية . ومنها معــاملة اسبانيا للموريسكيين أو العــرب المتنصرين ، ومطــاردة ديوان التحقيق لهم ، ثم نفيهم بعد ذلك ، فان الاستاذ بيدال ، ينسب شدتها وقسوتها ، كما ينسب النفى الى حركة البروتستانية ، واضطرار اسبانيا أن تتبع من جانبهــا سياسة كاثوليكية شديدة ، وان كانت سياسة عنيفــة

مفرقة . وهكذا كنا فى كثير من الاحيان نتبادل الآراء فى المسائل التاريخية المشتركة . ومع أننا لم نكن نتفق دائما ، فقد كان هذا الحوار ، مع مؤرخ من أعظم مؤرخى العصر له قيمته العلمية ، وكان بالاخص يلقى أضواء على كثير من مسائل التاريخ الاندلسى المشتركة بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية .

وقد سجلت آراء الاستاذ بيدال ، سواء تلك التى سمعتها منه ، أو استقيتها من مؤلفاته ، سجلتها فى مواضعها من كتبى (ولا سيما كتابى « نهاية الاندلس ، والآثار الاندلسية الباقية) . وقد توفى الاستاذ بيدال سنة ١٩٦٨ ، عن تسعة وتسعين عاما ، وترك جملة كبيرة من المؤلفات التاريخية واللغوية . وأشهد بأننى تأثرت بكثير من آراء هذا العلامة الجليل ، وطريقته النقدية .

وقد كانت لى صلات علمية وثيقة باثنين من أعلام المستشرقين الاسبان المعاصرين ، أولهما العلامة المستشرق البلنسى الاستاذ أمبروزيو هويثى ميرانده المتوفى سنة ١٩٧٣ ، بعد حياة علمية طويلة حافلة . وقد كنا نشترك فى البحث فى عصرين من عصور التاريخ الاندلسى ، الاول عصر الطوائف ، والثانى عصر المرابطين والموحدين ، وقد زرته مرارا ببلنسية ، وتبادلت معه كثيرا من الآراء، وانتفعت بكثير من آرائه وملاحظاته . وكان الاستاذ هويثى يحيط كتبى وبحوثى الاندلسية بكثير من التقدير . وقد خصها بالذكر والثناء فى مقدمته لكتابه الذى كتبه قبل وفاته بقليل « التاريخ الاسلامى لبلنسية »
La Historia Musulmana de Valencia »
(سنة ١٩٧٢) . وكان يرى أن كتابى عن « دول

ويعتزم ترجمته الى الاسبانية ، بتكليف من جامعة الطوائف » ، هو خير كتاب أخرج فى هذا الموضوع ، بلنسية ، ولكنه مع شديد الاسف توفى قبل أن يتاح له تحقيق هذه الامنية ، وقد تولى الاستاذ هويثى نشر المجلد الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى ، وترجم تاريخه الى اللغة الاسبانية ، ووضع بالاسبانية كتابا ضخما عن تاريخ « الموحدين » ، وكتابا آخر عن مواقع الاسترداد العظيمة .

وثانيهما العلامة المستشرق الغرناطى الاستاذ سيكودى لوثينا ، المتوفى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان ابرز علماء غرناطة المعاصرين ، وكانت له بحوث كثيرة فى التاريخ الغرناطى. وله مجموعة قيمة من الوثائق الغرناطية ، التى اكتشف الكثير منها ، ونشرها تباعا بمجلة الاندلس ، ثم جمعها فى مؤلف تولى نشره معهدنا المصرى فى مدريد . وقد أهدانى الاستاذ سيكو كتابين نادرين بالاسبانية فى التاريخ الغرناطى ، أولهما مجموعة وثائق تسليم غرناطة ، وثانيهما تاريخ لافونتى القنطرة .

ثم كانت لى بمدريد علائق مودة وتقدير متبادل مع الاستاذ أوليفر آسين مدير المدرسة العربية . وقد أعجبت بالبحث الذى ألقاه عن العلامة الموريسكى الشهاب الحجرى بندوة مالقة العربية الاسبانية التى سوف نتحدث عنها بعد ، وأطلعته أنا على ما كتبته عنه فى كتابى « نهاية الاندلس » ، فاهتم به ، ووعد بدراسته ، وقد اقترح على أن نعمل معا فى بعض البحوث المتعلقة بهذا الميدان . ولكن الظروف لم تسمح لنا بتحقيق هذه الأمنية .

ولن أنسى أن أذكر الى جانب هؤلاء العلماء الاسبان ، صديقي العلامة المستشرق الفرنسي الاستاذ ليفى بروفنسال المتوفى فى سنة ١٩٥٨ ، وقد كان يجمع بيننا البحث المشترك فى تاريخ اسبانيا المسلمة . وكنت التقى بالاستاذ بروفنسال فى القاهرة ، وفى مدريد ، بانتظام ، ونتبادل الرأى والمعلومات فيما يتعلق بميدان بحوثنا . وقد كتب الاستاذ بروفنسال بحوثا كثيرة فى تاريخ المغرب والاندلس ، نشرت فى مختلف المجلات الاستشراقية ، مثل هسبريس والاندلس . ونشر كثيرا من الكتب والنصوص الهامة المتعلقة بتاريخ المغرب والاندلس ، وانتهى بأن وضع كتابه عن « تاريخ اسبانيا المسلمة » ، حتى سقوط الخلافة الاندلسية . وهو مؤلف قيم ، ويعتبر فى نظرى ، أفضل وأقيم من كتاب العلامة دوزى « تاريخ مسلمي اسبانيا » لان مؤلفه انتفع بكثير من المصادر والوثائق المخطوطة ، التى لم يوفق دوزى فى عصره ، الى العثور عليها ، وقد تلقاها الاستاذ بروفنسال عن العلامة المغربى المرحوم السيد عبد الحي الكتانى .

الخزائن المغربية

ولابد لنا أن نشيد هنا ، الى جانب ما تقدم من دور الخزائن والمحفوظات الاسبانية ، بدور المجموعات المغربية المخطوطة . وقد وقع اتصالى بالمغرب وخزائنه منذ سنة ١٩٥٨ ، أعنى منذ بداية عهد الاستقلال ، وزوال الحماية الفرنسية . وكنت قبل ذلك ، كمعظم زملائى المصريين ، ممنوعا من دخول المغرب ، أثناء قيام هـذه الحماية .

وقمت من ذلك التاريخ بعدة رحلات دراسية الى المغرب . وكانت بحوثى مركزة فى خزانة الرباط العامة ، وخزانة القرويين الكبرى بفاس . ثم الخزانة الملكية فيما بعد . وقد كان من حسن الطالع ان ضمت معظم المجموعات الخاصة من المخطوطات عقب الاستقلال الى خزانة الرباط العامة ، مثل مجموعة الاوقاف ، ومجموعة الكتانى ، ومجموعة الجلاوى ، ثم ضمت اليها فيما بعد مجموعة زاوية تماجروت ، وقد كان من بين نفائسها نسخة مزيدة ضخمة من المجلد الثالث من كتاب «البيان المغرب » ، الذى قام بنشره صديقى المغفور له العلامة المستشرق أميروز يوهويثى . وقد أنفقت أوقاتا طويلة ، فى خزانة الرباط العامة ، ثم فى خزانة القرويين الكبرى بفاس ، فى دراسة سائر المخطوطات التى لها علاقة بالتاريخ الاندلسى والآداب الاندلسية . وقد أسفرت بحوثى لحسن الطالع ، فى خزانة القرويين ، عن العثور بعض النفائس المخطوطة ، وفى مقدمتها قطعتان عتيقتان، من السفر الثالث من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وانتفعت بهما أعظم انتفاع ، بالرغم من تلفهما الى حد التلاشى ، وقد سلمت فيما بعد شريطهما المصور الى معهدنا بمدريد ، حيث قام بنشرهما بعد مجهود شاق صديقى الدكتور محمود على مكى . وعثرت كذلك فيما عثرت عليه ، فى قاعة الخروم (الدشت) على ورقتين من كتاب « البيان المغرب » يتعلقان بسقوط سرقسطة وموقعة كتندة ، وكانا ينقصان مجموعة بروفنسال ، التى وجدها قبلى بالقرويين ونشرها العلامة هويثى فيما بعد بمجلة « هسبريس » .

وقد قام الاستاذ هويشى بترجمة هذه الصفحات الاربع الى الاسبانية مع تعليقات ونشرها فى مجلة الاندلس ، فكان لها فى الاوساط الاستشراقية وقع عميق .

كما عثرت بقاعة الخروم على قطعة كبيرة مخطوطة من ديوان ابن دراج القسطلى ، وأخبرت بوجودها صديقى الدكتور محمود على مكى ، وكان يومئذ يعنى بالقيام بنشر ديوان هذا الشاعر الاندلسى الكبير ، ثم بعثنا باستخراج صورتها الى خزائن القرويين . وقد انتفع الدكتور مكى بهذه القطعة النفيسة فى تحقيق ديوان ابن دراج أعظم انتفاع .

وكان من اثمن ما وقفت عليه ، وقمت بدراسته ، قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان « المقتبس » ، من مقتنيات الخزانة الملكية المغربية ، وكانت لم تفتح ابوابها للباحثين بعد ، فسعيت لدى المسئولين بالديوان الملكى للاطلاع عليها ، فتم الإذن بذلك ، وحملت الى المخطوطة بغرفة خاصة بالديوان . وكانت فى حالة تلف شديد ، تتساقط من جوانبها القطع المتلاشية عند تحريك أوراقها ، وتتكون هذه المخطوطة النفيسة الوحيدة فى العالم ، من مائة وثمانين لوحة كبيرة ، وهى حسبما ورد فى خاتمتها عبارة عن « السفر الخامس » من « المقتبس » ، وتتعلق كلها بالثلاثين سنة الاولى من حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر ، فعكفت على دراستها زهاء أسبوعين كاملين ، ونقلت منها شذورا جمة تتعلق بعصر الناصر وأحداثه ، وخصائصه ، أدمجت فيما بعد فى الطبعة الرابعة من كتابى « دولة الاسلام فى الاندلس » ، ومن ضمنها عدة وثائق هامة ، وهى الآن ضمن محتويات

قسم التاريخ بالخزانة الملكية ، وتعتبر من أهم وانفس محتوياتها (١) .

ولم انس بالطبع أن أقوم بدراسة المخطوطات التاريخية، فى خزائن الجزائر وتونس . ومن ثم فقد درست سائر المخطوطات التاريخية والادبية بمكتبة الجزائر الوطنية . ولم أجد الكثير من المخطوطات التى وردت فى فهرس فانيان Fagnan ، مما يدل على أن الفرنسيين قد سلبوا الكثير من محتوياتها . ومع ذلك فقد أطلعت فيها على عدد من المخطوطات الهامة ، ومعظمها نظائر لغيرها مما يوجد فى الخزائن المغربية ، واستوقف نظرى بصفة خاصة نسخة من رسالة الاعتذار الشهيرة التى وجهها أبو عبد الله محمد آخر ملوك الاندلس الى السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى ملك فاس ، مستجيرا به ، مستظلا بلوائه ، والتى كتبها الوزير محمد بن عبدالله العربى العقيلى على لسان مليكه أبى عبد الله ، وهى آية فى التأثير والبلاغة ، وقد نقلها لنا المقرى فى «نفح الطيب»، ولم ترد فى غيره ، مما يدل على أن المقرى قد ظفر بها خلال دراسته لمخطوطات مكتبة الجزائر ، اذ هى النسخة الوحيدة فى العالم . ووقفنا كذلك على نسخة فريدة من كتاب القاضى أبى عبد الله محمد بن الأزرق « الابريز المسبوك فى كيفية ادب الملوك » ، وقد كان ابن الأزرق قد عبر البحر الى المغرب قبل سقوط غرناطة بقليل ،

---

(١) كان من حسن الحظ آن نشرهذا المخطوط النفيس بمدريد برعاية معهد الثقافة الاسبانية العربيةوبتحقيق الدكتور بدوى تليمة تحت عنوان السفر الخامس فى المقتبس« ١٩٧٩ » .

واستقر حينا بمدينة تلمسان ، وكتب بها بعض مؤلفاته، ومنها هذا الكتاب .

وقمت كذلك بدراسة مجموعة مخطوطات جامع الزيتونة ، التى نقلت فيما بعد الى مكتبة تونس الوطنية الحالية ، وبها عدة مخطوطات تاريخية هامة . منها نسخة كاملة من كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » . وقد درسناها بصفة خاصة ونقلنا منها نسخة مصورة ، نظرا لاشتغالنا باخراج هذه الموسوعة الاندلسية الجليلة التى هى أهم مؤلفات الوزير ابى الخطيب . بيد أنه قد تبين لنا بالدراسة المقارنة ، انها نسخة موجزة ينقصها الكثير من التراجم التى وردت فى المخطوطات الاخرى من الاحاطة، وبها كثير من التصحيف ، يذهب بكثير من قيمتها ، وذلك حسبما أشرنا اليه فى مقدمة المجلد الأول من كتاب « الاحاطة » الذى وفقنا بحمد الله الى نشره كاملا ، وتم ظهور مجلده الرابع والاخير فى أواخر سنة ١٩٧٨ .

المكتبات الاوربية

وامتدت دراساتى الى عدة من المكتبات الاوربية ، هى مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، والمتحف البريطانى ، والمكتبة البودلية (اكسفورد) بانجلترا ، ومكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة فيينا الوطنية ، ومكتبة ليدن الهولندية، وغيرها حسبما تفصل بعد .

وقد زرت مكتبة الفاتيكان الرسولية مرارا ، ووقفت بها على أثرين هامين أولهما وثيقة هامة ونادرة ، هى خطاب الخليفة الموحدى المرتضى بالله ، الى البابا الوسان

الرابع ، وثانيهما مذكرات المؤرخ والرحالة المصرى عبد الباسط بن خليل الملطى ، عن أحوال المغرب والاندلس فى أواسط القرن التاسع الهجرى ، أعنى أواخر العهد الغرناطى ، وهى الواردة فى رحلته التى يتضمنها كتابه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » . وقد كانت هذه المذكرات من أقيم ما انتفعنا به فى تاريخ المرحلة الاخيرة من العهد الغرناطى .

ووقفت فيما درسته من مخطوطات القسم الشرقى بالمتحف البريطانى على نصوص ووثائق كثيرة مما يتصل بدراساتى الاندلسية ، وفى مقدمتها جزء من كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، وانتفعت بها فى مواضع مختلفة من كتبى الاندلسية . ودرست فى المكتبة البودلية القطعة الخطية الوحيدة التى انتهت الينا من كتاب « المن بالامامة » لابن صاحب الصلاة ، وهو المتعلق بتاريخ الموحدين ، وكانت من أهم المصادر فى كتابى عن عصر « المرابطين والموحدين » .

وقمت فى أواخر سنة ١٩٥٤ بزيارة دراسية لهولندة ، وطفت بمدنها واهتممت بنوع خاص بزيارة مدينة لاهاى حيث يوجد مقر محكمة العدل الدولية ، ومنزل الفيلسوف الاشهر باروخ اسبنوزا . ومدينة ليدن حيث توجد جامعتها الشهيرة ومكتبتها الغنية وبها مجموعة من المخطوطات العربية ومنها جزء مخطوط من كتاب « الاحاطة » لابن الخطيب ، وقد كانت جامعة ليدن ، هى الجامعة التى كان العلامة المستشرق الكبير رينهارت دوزى ، امام التاريخ الاندلسى ، من أعلام أساتذتها .

وانتهزت هذه الفرصة فزرت دار بريل الشهيرة التى

اشتهرت بنشاطها القديم فى نشر معظم كتب أكابر المستشرقين من مختلف انحاء القارة الاوربية مدى زهاء قرنين وما زالت ادارتها قائمة فى دارها التاريخية القديمة، وزرت مطبعتها التى تضم عمالا يعملون فى جمع حروف سائر مختلف اللغات القديمة ، مثل اللاتينية والعبرية واليونانية والامهرية والسريانية والعربية ، ومختلف اللغات الشرقية ، مثل الفارسية والاوردو والهندستانية والصينية . وهؤلاء العمال لا يفهمون حرفا واحدا من هذه اللغات القديمة التى يشتغلون بجمع حروفها ، ولكنهم مهرة فى صف حروفها ، وجمع نصوصها .

وفى أبريل سنة ١٩٦١ ، قمت برحلة الى الدانمارك والسويد ، وزرت المكتبة الملكية فى كوبنهاجن ، وبها قسم للمخطوطات العربية . وقد اطلعت هنالك على عدة من المخطوطات العربية الهامة ، ومنها نسخة من كتاب « الجمان فى أخبار الزمان » منسوبة للعلامة أبى العباس المقرى ، ونسخة من كتاب « الانيس المطرب بروض القرطاس » لابن أبى زرع الفاسى ، و « ذيل على خريدة القصر وجريدة العصر » . وفى السويد ، زرت مكتبة جامعة أوبسالة ، وبها مجموعة كبيرة من المخطوطات والوثائق العربية ، ومنها نسخة من ريحانة الكتاب لابن الخطيب » ونسخة من « روض القرطاس » واطلعت بها على مجموعة كبيرة من الوثائق العربية ، ومنها عدد كبير من الرسائل التى بعث بها ملوك المغرب الى ملوك السويد. وقابلت فى أوبسالة المستشرق الدكتور نيبرج ، الاستاذ القديم بجامعتها ، وهو الذى قام بتحقيق ونشر كتاب « الانتصار » لابن الراوندية ، الذى قامت باصداره لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بعض اوجه نشاطاتي العلمية الاخرى
في تلك الفترة

كانت دراساتي وبحوثي الاندلسية ، حتى سنة ١٩٧٠ .. وخلال عشرين عاما هي مهمتي العلمية الرئيسية ، وكنت احرص اشد الحـــرص على متابعتها ، وكنت اقــوم برحلاتي الى اسبانيا والمغرب بانتظام ، لا تثنيني عن ذلك اية عقبة. وحتى في الايام العصيبة التى اصبحت مصر فيها سجنا لأبنائها ، ولم يكن يسمح فيها بالسفر الى الخارج ، الا للمبعوثين ورجال الدولة ، واصبحت تأشيرة الخروج عزيزة المنـــــال ، كنت اتوصل الى الحصول عليها ، بكــل وسيلة ممكنة . وذلك بمعاونة بعض اصدقائي القــدامى ، من ذوى النفوذ ، من الوزراء السابقين او الحاليين . واذكر من هؤلاء بجزيل الشكر والعرفان صديقي العلامة الوفي ، الاستاذ احمد نجيب هاشم ، فقد ســـــاعدني خلال توليه وزارة التربية ، غير مرة ، على الخروج الى السفر بطرق رسمية جميلة، وكان لي خلال هذه الرحلات الدراسية ، نشاط علمي في ابواب ومجالات اخرى ، تتصل بمهمتي الدراسية الاصلية ، من القاء المحاضرات التاريخية ، وشهود بعض المؤتمرات والندوات العلمية .

فأما عن المحـــــاضرات التاريخية فقد بدات بالقاء سلسلة من المحاضرات الاندلسية بالمغرب في سنة ١٩٥٨ عقب حصول المغرب على استقلاله ، وذلك بتكليف من

وزارة المعارف المصرية ، واقامت السفارة المصرية بهذه المناسبة لى حفل تكريم كبير بفندق تور حسان أعظم فنادق الرباط يومئذ ، حضره كثير من الوزراء والكبراء والعلماء ورجال السلك السياسى . وكان سفيرنا يومئذ هو الدكتور عبد المجيد رمضان اول سفراء مصر فى المغرب المستقل ، والقيت هذه المحاضرات في حواضر المغرب المختلفة ، الرباط والدار البيضاء وفاس ومراكش وطنجه وتطوان ، وقد كنت خلال القائها ضيفا على وزارة الخارجية المغربية ، فغمرتنى بعنايتها واكرامها، وندبت لمرافقتى خلال هذه الدورة الكبيرة الاستاذ عبد المجيد بن جلون من موظفيها ، وقد عين سفيرا فيما بعد ، ومن حسن الحظ انه كان من تلاميذى بمعهد الصحافة العالى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكانت بيننا مودة وثيقة ، فكان لى خير مرافق ومرشد .

وقد نظم لى الى جانب القاء المحاضرات ، برنامج من المشاهد الاثرية خلال القطر المغربى ، فزرت مدينة صفرو الصيفية ، وسد مراكش وبلدة أغمات حيث يثوى المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد الرميكية ، واهم من ذلك فقد زرت منطقة الاطلس على بعد نحو مائة وعشرين كيلو مترا من مراكش ، وزرت هنالك بلدة تينملل التى خرجت منها دعوة المهدى بن تومرت ، وزرت مسجده ، وقبره ، وشهدت بعض عوائد القبائل البربرية هنالك . والى جانب ذلك فقد تفقدت سائر معالم مراكش الاثرية، من مساجد وقصور وحدائق سلطانية ، ومنشآت صناعية وغيرها ، والقيت عدة أحاديث بالاذاعة المغربية، وتعرفت بكثير من أعيان العلماء والوزراء المغاربة ،

وبالجملة فقد كانت دورة علمية وسياحية هامةاستغرقت نحو ثلاثة أسابيع .

ولقد حظيت بهذه المناسبة برؤية صاحب الجلالة ، المرحوم المبرور ، الملك محمد الخامس وسعدت بالاستماع الى عبارات العطف والتقدير الكريمة وشعرت أننى أقف أمام ملك عظيم نبيل يؤمن بحقوق بلاده ، وقد شاء القدر أن يكون هو بطل استقلالها ، وأن يحقق بزعامته وفى عهده حريتها واستقلالها ، وقد أصدر لى جلالته فوق ذلك عن طريق مدير ديوانه خطابا يضفى فيه على شرف التكريم والتقدير للمحاضرات التاريخية التى ألقيتها .

ثم قمت بعد ذلك بالقاء العديد من المحاضرات التاريخية والاندلسية بنوع خاص ، وذلك أولا بمعهدنا المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، بعضها بالانجليزية والفرنسية ، وبعضها باللغة الاسبانية . وكان يشجعنى على القائها بالاسبانية حسبما سبق أن أشرت صديقى الدكتور حسين مؤنس ، مدير المعهد فى تلك الحقبة ، اذ أن معظم المثقفين الاسبان ، لا يعرفون سوى لغتهم القومية ، ويندر منهم من يعرف لغة أجنبية أخرى . وألقيت كذلك محاضرات عديدة بالانجليزية وأحيانا بالعربية ، بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية التابعة لجامعة لندن : « School of Oriental and Afr . Studies » وبكلية بمبروك بجامعة كامبردج ، كما ألقيت عدة أحاديث تاريخية بالبرنامج الثقافى بدار الاذاعة البريطانية ، وألقيت محاضرات

بالفرنسية فى جنيف ، ومعهد نابولى الشرقى . كما القيت محاضرات بجامعة بنغـازى ، وجامعة تونس ومختلف حواضر المغرب العربى ، حسبما تقدم وفى مناسبات عديدة أخرى ، وفى الجمعية التاريخية المصرية .

وأما عن المؤتمرات العلمية ، فقد شهدت خلال هذه الحقبة عدة منها ، أولها مهرجان الاحتفال بالذكرى التسعمائة لوفاة الامام الفيلسوف ابن حزم القرطبى ، وقد نظم بمدينة قرطبة مسقط رأسه سنة ١٩٦٣ ، من ١٢ مايو الى ١٨ منه ، وقد اقيم هذا المهرجان تحت الرياسة الفخرية لرئيس الدولة الاسبانية القائد الاعلى الجنرال ف . فرانكو ، ورعاية هيئة شرقية ، مؤلفة من وزير الخارجية الاسبانية ، ووزير التعليم وسفراء الدول العربية فى مدريد ، والحاكم المدنى لمدينة قرطبة، ومديرى جامعات مدريد وبرشلونة وغرناطة واشبيلية ، واشتركت فى تنظيمه بلدية قرطبة ، ومعهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، ومدرسة البحوث العربية بمدريد، والمعهد الاسبانى العربى للثقافة ، والمجمع الادبى الملكى لقرطبة . وشهده جمهـرة كبيرة من الشخصيات الرسمية البارزة ومن السفراء العرب ، ومن العلماء والمتخصصين فى الدراسات الاندلسية ، من مختلف البلاد العربية ، والجامعات الاسبانية ، ومختلف دوائر المستشرقين .

واستمر المهرجان ، أسبوعا كاملا ، من الثانى عشر من مايو ، الى الثامن عشر منه ، وهو يحفل كل يوم فى الصباح ، وفى المساء ، بطائفة من الندوات العلمية

والتاريخية والادبية ، والشـــــعرية ، والمظاهر الفنية والاجتماعية الرائعة .

وقد افتتح المهرجان ، فى صبيحة يومه الاول ، يوم الاحد ، ١٢ مايو ، بحفل فخم ، رفع فيه الستار عن التمثال الطبيعى المتخيل الذى اقامته بلدية قرطبة لابن حزم ، أمام مدخل باب اشبيلية ، بحضرة جمهور من الصفوة من علماء وسفراء وحكام ، وألقى السنيور رينا عمدة قرطبة خطـــابا مؤثرا بالاسبانية قال فيه « ان مدينتنا لتتشرف بأن تكرم شخصية واحد من ابنائهـــا العظام ، هو ابو على بن حزم ، الذى تخطت عبقريته الحدود ، ولم يعش فقط فى زمنه التاريخى ، ولا فى مكانه المحدود ، ولكنه نفث روحه الى العـــالم كله ، وفى الانسانية كلها » . ومن المعروف من حياة ابن حزم ، انه كان يجتاز هذا الباب ــ باب اشبيلية ــ الذى كان يسمى فى العهد الاســــلامى « باب العطارين » كل يوم فى طريقه الى المسجد الجامع ، ومن ثم كان اختيار هذا المكان لاقامة التمثال فيه . وقد نقش حول قاعدته بالخط الكوفى ما يأتى : « لمناســـــبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة العـلامة ابى محمد على بن حزم القرطبى تهدى بلدية قرطبة هذا التمثال تخليدا لذكراه » .

وعلى اثر رفع الستار عن التمثال ، سارع رهط من السيدات والآنسات ، وفى ايديهن سلال الورد ، ينثرن الورود ، واغصان الورد ، فى مجرى الماء الواقع أسفل التمثال ، والذى يتصل بنهـر الوادى الكبير ، وذلك لكى يحمل تيار النهر هذه الورود ، نحو الغرب ، فى اتجاه مصبه على مقربة من الاقليم الذى يرقد فيه ابن

حزم رقدته الابدية فى احدى قراه ، وقد كانت تسمى باسمها العربى « منت ليشم » وتسمى اليوم باسمها الاسبانى Casa Montijo

ثم ذهبنا بعد ذلك الى القصر المواجه للمسجد الجامع لنشهد في قاعته التاريخية الكبيرة حفل الافتتاح الرسمي للمهرجان العظيم . وقد قام بافتتاحه حاكم ولاية قرطبة ، بحضور ممثلى مختلف السلطات والهيئات والجامعات والسفراء ، والعلماء ، وألقيت به بعد ذلك كلمات من ممثلي مختلف الهيئات الاسبانية والعربية والاجنبية ، ومعظمها يدور حول هذه المناسبة التاريخية والمعانى الجليلة التى تنطوى عليها .

ولقد كانت أعمال المهرجان تتألف من شقين ، كلاهما حافل بالاحداث والمناسبات ، وكان الشق الاول يضم طائفة من الندوات العلمية والادبية والشعرية ، وتعقد عادة فى الصباح . وقد ألقيت فى هذه الندوات التى عقدت جميعها بنادى الصداقة القرطبى ، وهو من افخم الاندية التى شهدناها ، عددا كبيرا من البحوث القيمة ، حول مختلف نواحى التفكير لابن حزم ، من فقهية ولغوية وفلسفية وأدبية وتاريخية وشعرية ، وغيرها ، وعن كتب ابن حزم ورسائله ، وعن قرطبة والمجتمع القرطبى، فى عصره ، وألقيت هذه البحوث بالاسبانية والعربية والفرنسية ، واشترك فى القائها لفيف من العلماء وأساتذة الجامعات الاسبان والعرب والفرنسيين . وألقيت أنا فيها بحثا تاريخيا عنوانه « ابن حزم ومجتمع الطوائف » . وكان أبرز مافيها تبيان ما تنطوى عليه عقلية هذا المفكر العربى المسلم العظيم من آفاق شاسعة،

ومجالات مختلفة بعيدة المدى .

وخصصت عدة جلسات للشعر ، وألقيت فيهـــا بالاخص مقطوعات شعرية أندلسية ترجع الى عصر ابن حزم ومجتمعه ، وكانت القصائد العربية تترجم فى كل مناسبة الى اللغة الاسبانية وتلقى بها .

واما الشق الثانى من المهرجان وهو الشق الاجتماعى، فقد كان مليئا بالزيارات والمناسبات والحفلات الشـــائقة وان المقام ليضيق عن الاسهاب فى وصف تلك المناسبات الخلابة الممتعة التى نظمتها لجنة المهرجان خلال هــذه الايام المشهودة ، والتى كانت تمتـــاز جميعا بحسن الاختيار وسلامة الذوق ، ووفرة المجـــاملة والـكرم والترحاب .

ولقد كان من هذه المناسبات ، زيارة المسجد الجامع، وهو على الرغم من بقائه على حالته الاسلامية ، يعتبر كنيسة قرطبة الجامعة « كاتدرائية » . وزيارة احياء قرطبة بالليل ، وقد كانت مناسبة ساحرة زرنا فيهـا عددا من بيوت قرطبة القـــديمة وشهدنا فيها بعض الرقصات الاندلسية ، وزيارة ضاحية الرصافة البديعة، وهى تقوم فوق موقع الرصـــافة القـديمة ، رصافة عبد الرحمن الداخل . وزيارة « حى القصر القديم » الذى يقوم اليوم مكان بلاط مفيث » وهو الحى الذى ولد فيه ابن حزم ونشأ . وقد احتفل خلال هذه الزيارة برفع الستار عن لوحة تذكارية أقيمت لذكرى ابن حزم ابن هذا الحى امام مدخل كنيسة ســان لورنز والتى اقيمت فوق موقع المسجد القديم الذى كان يسمى أيام ابن حزم مسجد المنية ، ويتوسط بلاط مفيث .

وكان من أمتع وأروع المناسبات الحفلة الاستعراضية الكبرى ، التى نظمتها البلدية فى مسرح حدائق القصر ، وعزفت فيه فرقة « الفيلا موتس » الاسبانية .

ومناسبات ومشاهد عديدة أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

ولقد كان هذا المهرجان العظيم الذى أقيم للاحتفال بذكرى ابن حزم ، فى ذاته ، وما اقترن به من المظاهر والمشاهد العظيمة التى وصفناها ، وما بدا خلاله من اعتزاز مدينة قرطبة وسلطاتها المدنية والعلمية بذكرى هذا العلامة الاندلسى المسلم ــ ابن قرطبة ــ كان ذلك كله أسطع دليل على هذا التطور العظيم المستنير الذى طرأ على التفكير الاسبانى ، وعلى نظرته الى الامة الاندلسية ، والى تراثها الحضارى العظيم .

وهذا ما نحييه بمنتهى الاكبار والاجلال .

ثم شهدت فى ديسمبر سنة ١٩٦٧ (رمضان ١٣٨٦) جلسات الدورة الثقافية العربية الاسبانية التى عقدت فى ثغر مالقة ، واشتركت فى أعمالها الى جانب حشد من الزملاء العرب والاسبان والانجليز والفرنسيين وغيرهم . وكانت ندوة زاخرة بالمحاضرات والبحوث المتعلقة بتاريخ الاندلس وآدابها وحضارتها . ولقد كانت هذه الندوة العربية الاسبانية تعقد «بدار الثقافة»، وهى تقع بجوار قصبة مالقة الشهيرة ، وهى من أعظم الآثار الاندلسية الباقية . وقد استمرت منذ التاسع من ديسمبر الى السابع عشر منه . وألقيت فيها بحوث قيمة عديدة منها بحث عن « تلخيص كتاب النفس

ـ لابن رشد ، وبحث العمارة المالقية ، وآخر عن العصر المدجنى فى مالقة ، وعن ابن حزم المنطقى ، وعن منشآت التحصينات فى قشتالة فى عصر الخلفاء ، وعن فلاحة البساتين الأندلسية ، وعن قصر بنى صمادح بالمرية ، وعن سليمان بن جلجل وكتابه ـ طبقات الاطباء ـ وعن الزرقالى وبحوثه الفلكية وغير ذلك من البحوث الاندلسية الهامة ، وألقيت أنا بها بحثا عن ـ الممالك الاندلسية ـ التى قامت بمالقة .

ومما هو جدير بالذكر أنه كانت معنـــا من أعضاء الندوة الثقافية المالقية سيدة اسبانية لا أذكر اسمها . وقد ذهبنا ذات يوم فى زيارة لميناء مالقة وكانت معنـــا هذه السيدة ، وكانت تقول انها تقرأ رسوم الـكف ، فتقدم اليها بعض أعضاء الندوة من رجال وسيدات ، وقرأت كفوفهم وقدمت لهم عند قراءتها بعض أقوال الآمال والتمنيات ، وقدمت أنا كفى لتقرأه ، فتأملته مليا ثم صاحت بالاسبانية :

أعنى حياة طويلة جدا ، وقد كان ذلك فى عام ١٩٦٧ ، وها نحن اليوم فى سنة ١٩٧٩ ، بعد أكثر من عشر أعوام من ذلك التاريخ ، وما زلت على قيـــد الحياة ، وفى صحة جيدة . والله يمنح طول البقاء لمن يشاء .

وفى سنة ١٩٦٩ ، كان الاحتفال العظيم الفخم بعيد القاهرة الالفى . وقد عقد بمدينة القاهرة المعزية منـــذ الســـــــابع والعشرين من مارس الى الرابع من ابريل سنة ١٩٦٩ ، وذلك تحت رعاية الحكومة المصرية . وقد شهدت هذا الحفل التاريخى العظيم ، الذى شـــــهده حشد كبير من العلماء والمؤرخين والاثريين من مختلف

البلاد المشرقية والاوربية والامريكية . وكانت جلساته تعقد بالبهو الكبير بالقصر الضخم الذى بناه الخديو اسماعيل على شاطىء النيل لاستضافة الامبراطورة أوجينى ، وقت الاحتفال بافتتاح قناة السويس ،وحول فيما بعد الى فندق سياحى عظيم باسم عمر الخيام ، ثم تم هدمه مع شديد الاسف فى أيامنا هذه ١٩٦٩ .
وقد ألقيت بهذه الندوة الدولية العظيمة ، بحوث عديدة عن مدينة القاهرة وخططها وتاريخها وعصورها المختلفة نذكر منها ، منازل الفسطاط كما تكشف عنها حفائر الفسطاط . حى الجمالية منذ قرن مضى . احدى نواحى نشاط الازهر فى القرنين السابع والثامن عشر . انجازات العصر الفاطمى . مبانى القاهرة العثمانية القاعة العربية فى المنازل القاهرية . سفارة بيدرو مارتيرى ، سفير الملكين الكاثوليكيين الى السلطان الغورى .: الادارة القبطية فى عهد المماليك . مدينة القاهرة كما يصفها الادريسى . العلاقات بين القاهرة والآستانة فى العهد العثمانى . نساء القاهرة فى عصر سلاطين المماليك .. القاهرة كمركز للحركة الاسماعيلية . القاهرة فى الادب الشعبى . امتداد للقاهرة من عصر الفاطميين الى عصر المماليك . دور الازهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر ابان الحكم العثمانى . جمال الدين الافغانى فى القاهرة . الحياة الادبية فى مدينة القاهرة . وصف مصر عن كتاب السفرنامة لناصرى خسرو ، وغيرها وغيرها . وألقيت أنا فى محاضرة عن « العلائق الدبلوماسية بين القاهرة والممالك الاسبانية النصرانية فى العصر المملوكى » وقد جمعت سائر البحوث التى

القيت في النـدوة وطبعت في مؤلف ضخم من ثلاثة مجلدات . نشرت بعنـاية وزارة الثقافة تحت عنوان « أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة » (سنة ١٩٧٠ ـ ١٩٧١) . كما أصدرت وزارة الثقافة عن القاهرة اطلسا تاريخيا طبوغرافيا مصورا نشر باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية ، أهدى الى سائر العلماء الاجانب الذين شهدوا الندوة ، دون زملائهم المصريين . كمـا نظمت بهـذه المناسبة عدة حفلات اجتماعية ورحلات اثرية .

وشهدت بمدينة نيودلهى عاصـمة الهند « مؤتمر التاريخ الاسيوى » ممثلا للحكومة المصرية مع صديقى المرحوم الدكتور عزت عبدالكريم ، وذلك منذ الثامن من ديسمبر الى الثالث عشر منه سنة ١٩٦١ ، وتعرفنا فيه على عدد من أكابر علمـاء الهند وساستها ، وفى مقدمتهم الزعيم الكبير الراحل جواهر لال نهرو ، وهو الذى قام بافتتاح المؤتمر ، بعـد كلمة وزير المعـارف الافتتاحية ، بخطـاب بليغ . وتلاه في حفل الافتتاح العلامة الكبير السردار بانيكار مدير جامعة كشمير ، وقد كان سفيرا للهند بالقاهرة ، بخطـاب رنان . وتحدث آخرون من أعلام الهند . وقد خطب هؤلاء جميعا باللغة الإنجليزية العالية التى يندر أن يتحدث بها آخرون من غير الانجليز . وكان اتصالنا بأعضاء المؤتمر من الهنود دائما بالانجليزية ، وهم يتقنونها جميعا . وشعرنا من جو المؤتمر ، والايام التى عشناها فى نيودلهى ، واتصلنا فيها بمختلف الهيئات والبيئات أن « الثقـافة الانجليزية » هى أثمن ما خلفه الانجليز وراءهم للهند بعد استقلالها .

وعلمنا أن اللغة الانجليزية هى لغة التخاطب والاتصال بين الهنود « الهندوس » من مختلف الطوائف والمناطق ، اذ لكل منطقة وطائفة لهجتها القومية . وتبلغ اللهجات الهندوسية ، حسبما علمنا نحو المائتين والانجليزية هي علاج هذا المشكل ، وهى لغة التخاطب بين المثقفين من سائر البلاد الشرقية والعربية والاوربية . والقيت فيه محاضرات تاريخيـــــة عديدة ، والقيت انا بالانجليزية محاضرة عنوانها « روايات عربية عن حياة تيمورلنك » . وكانت فرصة سانحة شهدنا فيها كثيرا من معالم دول المغول الاسلامية الاثرية فى الهند ، وفى سائر مقدمتها قبر « التاج محل » الشهير بمدينة أجرا . كما شهدنا بعض المعابد والاماكن المقدسة الهندية .

وشهدت بالجزائر عدة مؤتمرات لملتقى الفكر الاسلامى ، الذى يعقد بها كل عام ، والتى يشرف على تنظيمها ودعوتها منذ البداية صديقنا السيد الاستاذ مولود قاسم وزير الشئون الدينية . وكان أول مؤتمر حضرته منها مؤتمر سنة ١٩٧٢ ، الذى عقــــد بمدينة الجزائر ، بقصر الصنوبر ، وشــــهده عدد كبير من علماء البلاد العربية والمستشرقين ، وعلماء القطر الجـــزائرى . وحضرت المؤتمر الثانى من ملتقى الفكر الاسلامى بمدينة تيزى أوزو فى سنة ١٩٧٤ ، والثالث ١٩٧٥ ، بمدينة تلمسان ، والرابع فى سنة ١٩٧٦ ، بمدينة عنـــابة « بونه » ، والخامس فى سنة ١٩٧٧ ، بمـدينة ورجلة بالصحراء الجزائرية ، والسادس فى سنة ١٩٧٨ ، بمدينة باتنه (وهو من الناحية العددية يعتبر الملتقى الثانى عشر) لانى لم أحضر الملتقيات من بدايتها . وكان يشارك فى كل

ملتقى (او مؤتمر) من هذه الملتقيات ، رهط كبير من علماء البلاد الشرقية ، والافريقية ، والمستشرقين من مختلف البلاد . هذا عدا ما يحضره من مئات الطلبة والطالبات . وتلقى فيه محاضرات عديدة ، فى موضوعات مختلفة ، كلاسيكية وعصرية ، وفقا لما يحدد من النقاط والموضوعات فى برنامج كل ملتقى . ومعظمها يتصل بالاسلام وثقافته وتاريخه ومشكلاته الاصلاحية . وكنت فى كل مؤتمر من هذه المؤتمرات القى محاضرة فى احدى النقاط التى يحددها الملتقى فى برنامجه ، وتقع فيها التعقيبات والمناقشات . واستطيع ان الخص هنا بايجاز بعض المسائل التاريخية ، التى دارت حولها المناقشات ، والمناقشات العنيفة احيانا ، مما ورد فى بعض محاضراتى التى القيتها ، فى الملتقيات :

اولا - فيما يتعلق بسيرة أمير البحر خير الدين بارباروس ، فقد لاحظت أن اخواننا علماء الجزائر يحيطون اسمه بهالة تدنو من القداسة ، ويعتبرونه منقذ الجزائر من محاولات الاسبان الاستيلاء عليها ، وسمعت احدهم يقول فى تعليقه على محاضرتى ، انه لولا خير الدين لما بقى فى الجزائر مسلم واحد ، وقد حاولت جاهدا فى اكثر من مناقشة ، واكثر من رد على هذه التعليقات المفرقة ، أن اضع امامهم الحقائق التاريخية الواضحة ، وخلاصتها ان خير الدين ، كان فعلا من اعظم امراء البحر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ولكنه لم يكن مجاهدا ، ولم يكن يصدر فى حملاته ومعاركه البحرية ضد الاسبان يصدر عن اية نزعة جهادية ، وانما كان يحاول ان يوطد سيادته فى تلك المنطقة ، منطقة الجزائر

التي بسط عليها سلطانه منذ سنة ١٥٣٩ ، وعينه السلطان سليم حاكما عليها ، باعتبارها من الفتوحات التركية ، وانه كان في غاراته البحرية ضد الشواطىء الاسبانية ، يعمل على انقاذ الموريسكيين ، او العرب المتنصرين من الحكم الاسباني ، ويحملهم على سفنه الي الشواطىء الاسلامية لقاء أجور عالية ، وان ولده حسن باشا ، الذى خلفه في حكم الجزائر ، كان يقاتل الاسبان باسم السلطان ولحسابه ، لا باسم الجزائر ، وانه انتصر عليهم في معركة بحرية عنيفة في سنة ١٥٤١ انتهت بتحطيم اسطول شارلكان ، والخلاصة أن خير الدين لم يكن سوى أمير بحر مغامر يعمل لحسابه ، ثم فيما بعد لحساب السلطان ، على مثل أمراء البحر الانجليز ، الذين انطلقوا ، بعد ذلك بنحو نصف قرن يجوسون خلال المحيط الاطلنطي ، ويضربون السفن الاسبانية والقوى البحرية الاسبانية اينما استطاعوا ، ومنهم اسماء لامعة مثل السير فرنيس دربك ، والسير والتر رالى ، والسير جون هوكنز وغيرهم .

لبثت جاهدا أشرح في الملتقيات ، هذه الحقائق التاريخية ، عن خير الدين كلما عرضت سيرته ، واعتقد انه بمضي الزمن وتكرار الشرح ، قد تغيرت الفكرة الجزائرية ، في تقدير شخصيته ، وزالت هالة القداسة التي كانت تضفيها على سيرته .

ثانيا ــ ان الدولة العثمانية ، زعيمة الاسلام «وحاميته» في القرنين ، الخامس عشر والسادس عشر ، لم تقم باية محاولة عملية لمعاونة الاندلس « مملكة غرناطة » المتحضرة ، ولم تقم بعد سقوط الاندلس في يد اسبانيا

النصرانية بأية مجهود عملي لمعاونة الموريسكيين او العرب المتنصرين ، وانقاذهم من عنف اسبانيا ومطاردتها الدموية ، وذلك بالرغم من رسائل الاستغاثة العديدة ، التي بعث بها الموريسكيون الى بلاط قسطنطينية ، وقد كان في أستطاعتها ، وهي على ما كانت عليه يومئذ من ضخامة القوى البرية والبحرية ، أن تفعل الكثير في ذلك السبيل ، ولكنها شغلت بفتوحاتها الاوربية ، وتركت بقية الامة الاندلسية الى مصيرها المحزن .

ثالثا ـ القى احد المستشرقين في ملتقى سنة ١٩٧٢ ، بحثا عن المستشرق الالماني الكبير الدكتور كارل بروكلمان، وعن مؤلفاته ، وثار في الملتقى جدل عنيف حول بعض آرائه المتعلقة بالاسلام وتاريخه ،، واشتدت عليه حملات علماء الجزائر ، فطلبت الكلمة ، وقلت ان بروكلمان قد اشتهر بالاخص ببحوثه الفياضة في تاريخ الادب العربي المقارن ، وان كتابه الضخم عن « تاريخ الادب العربي » ، عمل يبعث على أعظم التقدير والاعجاب . وهو مؤلف لم يصدر مثله أو ما يقاربه حتى يومنا باللغة العربية . واعتقد انه سوف تمضي أعوام طويلة ، بل قد يمضي نصف قرن أو اكثر ، قبل أن نستطيع ان نخرج مؤلفا يضارعه في قيمته العلمية ، وبحوثه الفهرسية الزاخرة .

رابعا ـ ورد في محاضرتي التي ألقيتها في ملتقى باتنة (سبتمبر ١٩٧٨) عن نشأة الجامعة العلمية الاسلامية، وتحدثت فيها عن تاريخ الجامع الازهر كجامعة علمية رائدة ، واعظم الجامعات الاسلامية على الاطلاق ، جاء ما يأتي : « لما وقع الفتح العثماني لمصر في سنة (٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ) ، انهار صرح الحضارة العظيم الذي شادته

دول السلاطين الشامخة بمصر ، كما أصيبت الحركة الفكرية كلها بالتدهور والانحلال ، فاضطربت أحواله (اى الازهر) ونضبت موارده وانخفض عدد طلابه واساتذته الى أدنى الحدود .

وقد ثار لهذه الفقرة عدد كبير من الزملاء ، وفى مقدمتهم الزملاء الترك ، وهم خمسة وقاموا بالتعليق عليها ، وشاركهم فى ذلك زملاء آخرون من تونس وسوريا ، ورمانى أحد الزملاء ، الترك بأنى أصدر عن نزهة قومية ، ورمانى زملاؤه بأنى متحامل على الدولة العثمانية متعسف فى الحكم عليها .. الخ ، وتحدث آخرون عن دولة الخلافة وخدماتها للاسلام ... الخ .

ولهذه المشادة سوابق قديمة ، ونظرتى فى تاريخ الترك العثمانيين ، نظرية ثابتة لا تتغير ، مبنية على دراسات وثيقة ، وهى أنهم أمة عسكرية غازية ، وليست منشئة لاية حضارة ، بل بالعكس أمة هدامة للحضارة . وانه من الصعب على أى مؤرخ أن يدافع عن حكمها فى أى البلاد التى فتحتها ، لانها لم تترك وراءها دائما سوى الانحلال والخراب ، والامر أشد فى ذلك واضح فى نتائج الفتح العثمانى لمصر ، ويكفى أن نراجع يوميات الفتح حسبما دونها المؤرخ المعاصر ابن اياس ، لنرى ما ارتكبه الفاتحون من المذابح المروعة ، والتخريب الشامل ، حين دخولهم القاهرة . ثم يكفى أن نذكر ، ان سكان مصر ، وقد كانوا عند الفتح نحو ثمانية عشر مليون ، قد انخفضوا فى ظل الحكم العثمانى ، من اثر الظلم والفقر والجوع والمرض ، الى خمسة ملايين ، وأن طلاب الازهر انخفضوا من اثنى عشر الفا الى الفين وهلم جرا .

ونكتفى بالنماذج المتقدمة من المسائل التاريخية ، التى ثار حولها الجدل والنقاش فى حومة الملتقيات الاسلامية المتعاقبة .

وكان آخر المؤتمرات التى مثلت بها ندوة تاريخ شبه الجزيرة العربية ، التى عقدت بمدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية ، تحت رعاية جامعة الرياض ، وذلك فى شهر ابريل سنة ١٩٧٧ ، والقيت فيها عدة محاضرات بالعربية والانجليزية ، تتصل بمختلف نواحى تاريخ الجزيرة العربية وأوضاعها وقد تفضلت هيئة الندوة مشكورة بدعوة من يشاء من اعضاء الندوة الى القيام بأداء رسوم العمرة ، وسنحت لنا بذلك انا وبعض الزملاء المصريين والمغاربة الفرصة لاداء هذه الفريضة الدينية الجميلة . وقد قامت هيئة الندوة بتنظيم زيارتنا اولا للمدينة المنورة ، فزرنا المسجد النبوى الشريف ، واجتلينا روضة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونعمنا بقراءة الفاتحة واستمداد الدعاء والبركات . وكانت هذه هى المرة الثانية التى أسعد فيها بزيارة المسجد النبوى والروضة الشريفة . وكانت زيارتى الاولى للمدينة المنورة فى ديسمبر سنة ١٩٦١ عقب عودتى من الهند بعد انتهاء مؤتمر التاريخ الاسيوى ، فمررت بالمملكة العربية السعودية ، استجابة لدعوة هيئة العلائق العامة لشركة الارامكو بمدينة الظهران ، بالقاء بعض الاحاديث التاريخية بتليفزيون الارامكو . وعقب انتهاء هذه المهمة سافرت الى مكة المكرمة ، ثم الى المدينة المنورة وتشرفت بزيارة المسجد النبوى الشريف لاول مرة ، وقرات الفاتحة وسالت الدعوات امام الروضة المكرمة ، ولم يتح لى فى هذه الزيارة العابرة اكثر من ذلك . فلما سنحت فرصة القيام

بتأدية العمرة ، لبيتها سعيدا مع زملائى ، وسافرنا من المدينة المنورة الى جدة ، ومنا من أحرم ، ولكنى انتظرت الاحرام حتى وصلنـــا الى جدة ، وهناك ارتديت ثوب الاحرام . وكان الليل متأخرا حينما ركبنا الســـيارة الكبيرة الى مكة ونحن محرمون ، وذلك بعد منتصف الليل بقليل . وجزنا على الاثر من الفندق المقابل الى الحرم الشريف ومعنا المطوف المكلف بقيادتنا . وفى نحو الفجر بدأنا رسوم العمرة بالطـواف أولا حول الكعبة الشريفة ، وتلاوة مختلف الادعية سبع مرات . وقبلنا الحجر الاسود غير مرة . ثم انتقلنا الى موقع الصفا والمروة فى الناحية الاخرى من الحرم وقمنا بالطـواف والدعاء بينهما كذلك سبع مرات اخرى . وهى مهمـة شاقة على أمثالى من الشيوخ ، ولكنى قمت بها بحمد الله على افضل وضع وانشطة . وقد علمت الســـلطات السعودية المعنية على ادخال الصفا والمروة ضمن ساحة الحرم الشريف بعد أن كانتا فى الطـريق العام خارج الحرم ، وبنت بجوارها مسجدا . وكان هذا من المشاريع الاصلاحية العديدة التى قامت بها الســلطات السعودية المختصة داخل الاماكن المقدسة وحولها ، وهى مشاريع عديدة بمكة والمدينة ، كان من أثرها تحقيق تسهيلات كثيرة لجموع الحجاج التى تضاعف عددها فى العهود الاخيرة بصورة هائلة ، ثم عدنا بعد اداء العمرة الشريفة الى جدة فى الصباح الباكر استعدادا للسفر . وكانت فرصة سعيدة من فرص العمر التى لا تنسى والحمد لله على ذلك كثيرا . وكان أداء العمرة على هذا النحو يوم الجمعة ١١ من جمادى الاولى سنة ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٩ من ابريل سنة ١٩٧٧ .

الاعمال الصحفية البارزة

تناولت فيما سبق قصـــــة حياتى الصحفية الاولى بجريدتى السياسة والسياسة الاســـبوعية ، وما وقع خلالها من القيام برحلتى الصحفية الاولى الى الخارج فى فلسطين وسوريا والعراق وتركيا . ثم أشرت الى مساهمتى ببحـــــوثى فى مجلات الرسالة والهـــلال والثقافة .

ولم تنقطع مســـاهمتى فى الصحافة الادبية خـلال عملى الحكومى ، هذا الى جانب بعض فصول خاصة ، وقصص مترجمة ، كنت أؤثر بها جريدة المصرى ، لما كان يربطنى بصاحبها المرحوم الاستاذ محمود أبو الفتح من المودة ، وقــد كان والده المرحوم الشيخ احمد بك أبو الفتح استاذى فى الشريعة الاســـــلامية بمدرسة الحقوق .

وقد بدات منذ سنة ١٩٥٠ ، وقبيل اعتزالى خدمة الحكومة بقليل ، بالقيام بعدة مهام صحفية بارزة ، فى مختلف انحاء القارة الاوربية أسجلها فيما يلى :

كانت سنة ١٩٥٠ ، سنة حافلة فيما يتعلق برحلاتى ومهامى الصحفية . وقد حظيت فيها أولا بمقابلة قداسة البابا بيوس الثانى عشر ، بمناسبة حلول السنة المقدسة، وشهود مظاهر وحفلات هذا الموسم الدينى العظيم .

وقمت فيها باجراء الاحاديث الصحفية مع الدكتور

هويس ، أول رئيس لالمانيا الاتحادية والهير هوفمان ، المندوب السامى لمنطقة السار ، والدكتور ليوبولد فجل مستشار النمسا .

كما قمت بزيارة منطقة الرور الصناعية ، وزيارة برلين الغربية لاول مرة ، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

***

وصلت الى رومة فى العشرين من يونية سنة ١٩٥٠ . وكانت مدينة القياصرة ، منذ اواخر العـــام المنصرم ، مقصد الرواد من سائر أنحاء العالم ، وكانت تموج بلا انقطاع بهذه الجموع الزاخرة من الرواد . وكان هــذا السبيل المنهمر من الجموع ينحدر باستمرار الى مدينة الفاتيكان ، أو الدولة البابوية الصغيرة ، اذ كان هــذا العام ، هو عام السنة المقدسة Anno Santo ، التى يجرى الاحتفال بهــــا كل خمسة وعشرين عاما ، وكان ميدان القديس بطرس الشاسع ، يموج كل يوم ، من الصباح الى المساء ، بجموع لا تحصى من الرجال والنساء والاطفال ، تقصـــــد الى الـكنيسة العظمى ، كنيسة القــديس بطرس ، للزيارة أو اجراء مراسم الحج ، أو تتكدس فى الميدان ساعات طويلة لشهود الموكب البابوى ، وتتدفق من الناحية الاخرى على قصر الفاتيكان ، الوف من الزوار ، تنساب كالسيل الى أروقته المختلفة ، لتشهد متاحفه وكنوزه الفنية الرائعة التى لا حصر لها .

ولقد شهدت خلال زيارتى هذه لرومة ــ وكنت قــد زرتها من قبل مرارا ــ طائفة من هذه المشاهد التاريخية

الفريدة ، واستطعت ان اتأمل روعتها وجلالها ساعات طويلة ، ولكنى أشهد بأن قلمى ليعجز حقا عن أن يرسم صورا معبرة لهذه المناظر الرائعة ، مناظر عشرات بل مئات الالوف من البشر ، رجالا ونساء ، من مختلف الأمم والنحل ، تجتمع هادئة ، خاشعة فى أتم نظارة ، لتحظى برؤية الحبر الأعظم ــ البابا ــ أو تستمع لعظاته، أو تتلقى بركته الرسولية ، وهى تهتف له هتافا يشق أجواء الفضاء .

وكان من أهم أحداث هذه السنة المقدسة ، مما يتصل بصميم موضوعها وبرنامجها ، حادثان ، كان لهما أعظم وقع فى العالم المسيحى ، وهما تقديس الفتاة الايطالية « ماريا جوريتى » Maria Goretti ، واعلان المجمع المقدس صعود السيدة مريم العذراء الى السماء .

ولقد كنت من شهود الاحتفالات الكبرى التى أقيمت لتقديس « ماريا جوريتى » فى يومى ٢٤ و ٢٥ يونيه وماريا هذه فتاة قروية من أهل أنكونا ، ولدت سنة ١٨٩٠ ، فى أسرة فقيرة ، ولكنها كانت حسناء فاتنة ، فلما بلغت الثانية عشرة ، هام بها فتى من أهل القرية ، ولكنها لم تبادله هواه . وفى ذات يوم فاجأها وحيدة أمام منزلها وراودها عن نفسها ، وهددها بسكين فأبت فانهال عليها بسكينه طعنا ، وحملت الى المستشفى بين الحياة والموت ، ثم توفيت بعد يوم ، واعتبرت شهيدة النقاء والطهر ، واحتفل فيما بعد بنقل رفاتها الى كنيسة أنشئت خصيصا لتخليد ذكراها . ثم نقلت رفاتها الى رومة ، وأعلن البابا تطويبها فى سنة ١٩٤٧ ، ثم احتفل خلال السنة المقدسة ، بنظمها فى سلك القديسين فى

احتفالين رسميين عظيمين اقيم اولهما فى مساء يوم السبت ٢٤ يونيه ، فى ميدان القديس بطرس ، وشــهده زهاء مائة ألف ، واحتشد فى الناحية الاخرى من المنصة ، الكرادلة والسفراء ، وسائر المدعوين من مختلف الهيئات، واقبل البابا فى موكبه التاريخى الى منصة اقيمت أمام واجهة الكنيسـة ، وجلس على عرشــه ، ومن حــوله الكرادلة بأثوابهم القانية . والقى البابا بالايطالية ، خطبة ضافية ، أعلن فيها تقديس « ماريا جوريتى » ، ونوه بسمو الفضيلة والطهر والنقاء فيها .

وفى صباح يوم الاحد التالي ، اقيم قداس حبرى فى كنيسة القديس بطــرس ، وغصت الكنيســة بعشرات الالوف من المــدعوين والزوار ، وقام البــابا بالمراسيم الدينية ، وأتم ما بدأه بالامس من اجــراءات تقــديس الفتاة الشهيدة ، وكان احتفالا بالغ الروعة والجلال .

وأما الحادث الثــانى ، فهو اعلان المجمع المقــدس المنعقد برياسة البابا ، نظرية جديدة ، تتعلق بالسيدة مريم العذراء ، وهى أنها لم تمت ، بل ارتفعت بجسدها وروحها الى السماء . واعتبار هذه النظرية ، من اصول العقيدة الكاثوليكية . وقد أثار هذا القرار فى كثير من الدوائر الدينية فى مختلف انحاء العالم ، جدلا ، لا نرى موضعا للخوض فيه .

***

وفى خلال ذلك كله ، كانت تساورنى أمنية ملحة ، هى أن أحظى بمقابلة البابا ، وكان يومئذ حسبما أشرنا ،

هو الحبر العلامة بيوس الثاني عشر ، وباسمه القديم (أوجنيو باتشيللي) . ولم يكن هذا الحبر الجليل غريبا عني ، فقد سبق أن قابلته وحادثته قبل ذلك بعشرين عاما ـ في سنة ١٩٣٠ ـ بصفتي صحفيا مصريا ، بمكتبه بقصر الفاتيكان . وكان يومئذ يشغل منصب معاون البابا بيوس الحادي عشر ، ومستشاره السياسي . وكان قد نال رتبة الكردينالة في سنة ١٩٢٩ ، وشغل قبل ذلك منصب أستاذ الدبلوماسية الدينية بجامعة رومة . وجرى الحديث يومئذ بيني وبينه عن معاهدة لاتران ، التي عقدها الكرسي الرسولي مع الحكومة الايطالية ، وزعيمها يومئذ موسوليني ، وانشئت بمقتضاها مدينة الفاتيكان، واستردت البابوية نفوذها الديني ، وسلطتها الزمنية ، على الدولة البابوية الجديدة ، التي تتكون من قصر الفاتيكان ، وميدان القديس بطرس وكنيسته ، وكنيسة سان جوفاني دي لاترانو داخل رومة ، وكنيسة القديس بولس ، وقصر كاستل جندلفو خارج رومة ، وقد رجوته يومئذ ان ازور قصر الفاتيكان زيارة علمية تاريخية ، فتفضل بالتجوال معي في سائر أنحاء القصر العظيم ، وهو يشرح لي كل كبيرة وصغيرة من آثاره وروائعه . وكنت أحمل لهذا الحبر الجليل كثيرا من التقدير والاعجاب لصفتيه البارزتين ، الاولى علمه الغزير وتضلعه في اللغات، اذ كان يتحدث فيما علمت بعشر لغات أو تزيد . والثانية خصومته للنازية الهتلرية ومبادئها العدوانية ، وذلك منذ كان مستشارا لسلفه بيوس الحادي عشر . وهو الذي وجه الفاتيكان يومئذ الى مقاومتها والتنديد بها . ولما اضطرمت الحرب العالمية الثانية ظهرت خصومته للنازيا

على أشدها ، وتوالت حملاته عليها ، وتنديده بما كانت تضمره ، « من سبق الاصرار والعدوان المتعمد ، واحتقار الحرية والحياة البشرية ، وما يقترن بكل ذلك من اعمال تصرخ الى الله بطلب الانتقام » .

وكان البابا خلال السنة المقدسة ، يشهد سيلا لا ينقطع من الحفلات الدينية الباذخة ، ويستقبل الوفود والاشخاص من سائر انحاء الارض ، ويلقى مئات الخطب والعظات ، ويضفي بركته الرسولية على الملايين من البشر ، جماعات وأفرادا .

مقابلتى لقداسة البابا بيوس الثانى عشر

ففى هذا البحر الخضم من الحفلات والرسوم البابوية ، أتيح لى أن احظى بلقاء البابا بيوس الثانى عشر ، وكان سفيرنا يومئذ فى رومة الاستاذ العمرى بك ، قد نصحنى بألا أقبل يد البابا أسوة بزواره من المسيحيين ، وبأن أكتفي بالمصافحة والانحناءة التامة . وكان ديوان قداسته ، قد تفضل بواسطة السفارة المصرية ، أن يدعونى الى مقابلة خاصة لقداسته ، فى صباح يوم الخميس ٢٩ يونيه سنة ١٩٥٠ .

ففى هذا الصباح ، ذهبت الى قصر الفاتيكان ، وصعدت الى الجناح البابوى ، وفقا للخطة الموضوعة ، وكانت مقابلات قداسته تبلغ يومئذ زهاء العشرين ، ما بين ساسة وأحبار ، وراهبات ، وكانت مقابلتى لقداسته بصفتى من العلماء المصريين .

وكان البهو البابوى الفخم الذى أخذنا اليه ، مزينا

بالنقوش والفريسكات التاريخيــة الرائعــة ، والستائر الحمراء ، واللون الاحمــر هو اللون الغــالب فى أبهــاء الفاتيكان . فالستائر والمقاعد والزخارف تميل كلها الى الحمرة القانية ، والعرش البابوى نفسه ، مكلل بالستائر الحمراء والكرسى الرسولى الذى يجلس عليه قداسته ، اينما نصب ، مكسو بالحرير الاحمر .

وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل دعينا الى بهو آخر ، يقع قبالة الجناح البابوى ، ثم رتبنا أفواجا مستقلة ، واعتبرت انا وحدى ، فوجا مستقلا . وكان ترتيبى الاول ، بعد رجال الدين ، وهم من الكرادلة ذوى الاردية الحمراء . وكنت اقف قبالة المكتب البابوى ، وهو يبدو من خلال بهوين آخرين . فلمحت قداسته يخــرج من مخدعه الى البهو الذى فيه الكرادلة . وبعد أن حياهم وحادثهم ، انتقل الى البهو الذى يليه ، وكان به فوج من الراهبات . فحياهن وحادثهن ، وكان كل فوج يخرج بعد التحية ، وتقبل البركة ، باشارة من كبير التشريفات ، الذى يسير وراء قداسته .

ثم جاء دورى ، واقبل قداسته نحوى رشيقا ، خفيف الحركة باشا . واشهد حين اقبل انى رايت امامى نفس الرجل الذى رايته منــذ عشرين عاما ، لم تغير فيــه السنون ، ولم يرتسم على وجهه غضن ، وان كان يومئذ اميل الى النحافة . وكان قداسته يرتدى حلة بيضــاء داكنة . وعلى كتفه محرمة من نفس اللون ، وينتعــل خفا احمر ، وعلى راسه قلنسوته التقليدية ، فانحنيت امام قداسته انحناءة تامة ، وتنــاولت يده مســلما . فسألنى بالفرنسية ، هل أنت من مصر ، فأجبت نعم

يا ذا القداسة ، وقد كان لى شرف رؤياكم والاجتماع بكم منذ عشرين عاما . فابتسم قداسته ، وقال ، يسرنى ان اراك ثانية . ودار بينى وبين قداسته حديث قصير ، اعربت خلاله لقداسته عما يشعر به العالم الاسلامى ، من العطف والاعجاب ، نحو الكفاح الباسل ، الذى يشهره قداسته فى خطبه ضد المبادىء الهدامة ، والنزعات الالحادية . وقد رد قداسته ، بأن أبدى ارتياحه وشكره. ثم قال « انى أباركك ، وأهديك ميدالية » ثم مد يده مسلما ، فانحنيت مرة أخرى انحناءة كاملة . وحييته بمنتهى الاحترام . وغادرنى قداسته لمقابلة من يلينى من المدعوين . وتسلمت الميدالية البابوية من كبير التشريفات ، وهى ميدالية السنة المقدسة ، وعلى وجهها صورة قداسته ، وهى ما تزال عندى تذكارا لهذا اليوم المشهود .

وقد كان البابا بيوس الثانى عشر ، حسبما قدمت على جانب عظيم من العلم والفصاحة المؤثرة ، وقد سمعته فى ذلك اليوم يتحدث ، الى جانب الايطالية ، لغته الأصلية ، بعدة لغات منها الانجليزية ، والفرنسية ، والالمانية ، والاسبانية ، والبرتغالية . هذا عدا ما عرف من براعته فى اللغة اللاتينية ، وهى التى يلقى بها خطبه الدينية الكبرى .

وقد ولد البابا بيوس الثانى عشر بمدينة فتربو على مقربة من رومة سنة ١٨٧٦ ، وتوفى سنة ١٩٥٨ (١) .

---

(١) تجد مقالا بقلمى عن حياة البابا بيوس الثانى عشر ، فى مجلة الهلال ، فى عددها الصادر فى نوفمبر سنة ١٩٥٨

مقابلتى لرئيس المانيا الاتحادية
ورحلاتى الى الرور والسار وبرلين الغربية

وغادرت رومة الى اسبانيا فانجلترا ، فالمانيا ، حيث وصلت الى مدينة كولونيا فى الثانى من اغسطس ، وكانت يومئذ ركاما وحطاما شاملة ، وليست بها اية طرق منتظمة أو مبانى قائمة . ولم يكن قائما بها سوى الكاتدرائيــة الكبرى ، تقف أمامها ، وقد أحيطت من جميع نواحيها بالاخشاب العريضة ، تسندها ، وتقويها على الصمود .

وسافرت توا الى بون ، حيث وصلت فى اليوم التالى، وفى الخامس من اغســطس حظيت بمقابلة الدكتــور تيودور هويس أول رئيس الألمانيا الاتحادية ، وجرى لى معه حديث مستفيض استمر نحو الساعة . وسألته رأيه فى مختلف المشاكل ، التى كانت تواجهها المانيا يومئذ ، نتيجة لهزيمتها الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، مثل مشكلة التعويضات التى فرضها الحلفاء الظافرون عليها ، وسألته الرقابة التى فرضت على منطقة الصناعات الثقيلة (منطقة الرور) ، ومسألة اقليم السار وفصله عن المانيا ، ومسألة احتلال قوات الحلفاء لألمانيا، وتقسيمها الى مناطق ، تحتل كل منها منطقة بعينها الى ذلك من مسائل الساعة . والدكتوز هويس كاتب ومؤرخ، وكانت ايجاباته لى ، تتسم بتحليل المؤرخ ، ودقة فى عرض المسائل .

وفى اليوم السابع من اغسطس قمت بزيارة منطقة

لرور الصناعية بتصريح من وزارة الخارجية ، وقد ندبت لمرافقتى فى هذه الرحلة ، الدكتور كارل ملينباخ ، رئيس القسم الاقتصادى بمكتب الصحافة ، وخصصت لنا سيارة للتجوال بها حيثما أردنا . وكانت منطقة الرور تقع يومئذ فى منطقة الاحتلال البريطانى ، وتشمل ولايتين من ولايات الرين ، هما رينلاند ووستفاليا ، ويخترقها نهر الرور فرع الرين ، وباسمه سميت المنطقة كلها .
وتعتبر منطقة الرور أعظم مناطق الصناعات الثقيلة فى العالم . وهى ذات طبيعة خاصة ، ففيها تمتد البسائط الخضراء اليانعة على ضفتى نهر الرور ، ولكنك متى سرحت البصر فى الأفق ، فان العين لا تقع الا على المداخن والافران العالية ، وفوهات المناجم ، تعلوها الآلات الضخمة وتظللها جميعا سحب الدخان ، ومن وراء ذلك كله تلال خضراء نضرة .

وقد طفت برفقة الدكتور ميلنباخ ، عدة من مدن الرور الصناعية ، مثل دبسلدروف وايسن ، ودويز برج ، ورينهاوزن ، وميلهايم ، وغيرها ، واتيح لى لأول مرة فى حياتى أن أرى طائفة من مناجم الفحم والمنشآت الصناعية الكبرى ، وبدأنا بزيارة مدين ايسن ، أعظم مراكز الرور الصناعية ، وبها مصانع كروب الشهيرة . وطفنا أرجاء منجم تسول فراين أعظم آبار الفحم فى العالم ، وهبطنا الى قاعة بالمصعد ، على عمق سبعمائة متر تحت الارض ، ورأينا النفق الهائل الذى يؤدى الى مكان الفحم الخام فى باطن الارض ، وهو يمتد نحو ميلين ، وتسير اليه العربات الصغيرة على قضبانها ، ثم تأتى محملة بأحجار الفحم ، وترفع بعد ذلك الى أعلى . وزرنا فى دويزبرج مصانع

صهر النحاس . ثم اتيحت لنا فرصة فى راينهاوزن للتجوال فى مصانع الصلب الكبرى ، وشهدنا بها الافران العالية ، وتتبعت عملية صهر الحديد الخام ، وتنقيته ثم صبه فى قوالب ليكون كتلا نارية ، توضع فى أتون عال وتصهر ثم تنقى ، وتحمل بعد ذلك كتلا صلبة ضخمة فى قطارات خاصة الى مصنع التكييف .ورأينا غير ذلك من المصانع المختلفة والالات الضخمة . وتلقينا شروحا ضافية من المختصين لكل ما رأينا ، وعند اختتام زيارة مصانع كروب برينهاوزن عرض على مدير مصنع التكييف عقب انتهاء الغذاء بمنتدى المصنع ، هدية تذكارية ثمينة، هى عبارة عن مسدس جميل من صنع كروب . فأجبته شاكرا أنه يتعذر على قبول هذه الهدية الأن حمل السلاح بمصر يقتضى ترخيصا رسميا وله اجراءات معقدة . فذهب واتى لى بمطواة جيب فاخرة لامعة من النوع الذى لا يصدأ قط فتقبلتها منه شاكرا وهى ما تزال معى الى اليوم بعد ثلاثين عاما تذكارا ثمينا أحمله فى سائر اسفارى وما زالت تحتفظ بلمعانها وجدتها . وقضينا فى هذه الرحلة الصناعية الهامة ثلاثة أيام ، وتركنى الدكتور ميلنباخ فى ديسلدورف ، حيث غادرتها فى اليوم التالى الى بون .

وفى الحادى عشر من اغسطس ، سافرت الى منطقة السار ، وقصدت الى عاصمتها : « ساربروكن » . وكانت يومئذ تحت الاحتلال الفرنسى . ثم قابلت الهيرهوفمان مندوبها السامى ، وحادثته فى أوضاع اقليم السار ، وما يمكن ان يتوقع فى شانه ، وفى احتمال عودته القريبة الى سيادة المانيا صاحبتها الشرعية . وقد كان الهيرهوفمان

متحفظا معي في حديثه واجاباته .

وفي يوم ١٣ اغسطس سافرت بالطائرة الى برلين الغربية لزيارتها بدعوة من وزارة الخارجية . وقضيت بها بضعة أيام في ضيافة مكتب الصحافة بها التابع لحكومة بون، وكانت برلين عاصمة «الريخ القديمة» قد قسمت وفق اتفاق الصلح الى قطاعين ، هما برلين الشرقية ، وهو يتبع المانيا الشرقية ، وبرلين الغربية ، وهو الذى يحتله الحلفاء الغربيون ، أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، لكل منها منطقة خاصة ، وكانت برلين وقت زيارتي لها ما زالت تسودها الخرائب والركام ، وقد زرت في قطاعها الشرقي، خرائب وزارة الخارجية القديمة (الفيلهلم شتراسه) وجدارها الباقي من المستشارية القديمة التى كان يشغلها هتلر ، كما زرت أنقاض الريخستاج (البرلمان الالماني) وانقاض (اللوست جارتن) وغيرها من معاهدها القديمة . وكان الزائر لبرلين يومئذ يستطيع ان ينتقل من قطاعها الغربي الى قطاعها الشرقي دون صعوبة . وكان كثير من سكان القطاع الشرقي يفرون الى القطاع الغربي ، وقد شاهدت في برلين الغربية ، معسكر اللاجئين اليها منهم ، وكانوا يتكدسون فيه ، في مناظر مؤلمة ، ولا سيما المتزوجون منهم وأطفالهم الصغار . وقابلت في برلين الغربية زعماء الاحزاب المختلفة ، وتحادثت معهم في شئون برلين وعلاقاتها مع حكومة بون ، كما تحادثت مع وزير الدولة الهير فوكل في كل هذه الشئون .

وعدت من برلين الغربية الى فرانكفورت . ثم سافرت الى ميونيخ ، وعبرت الحدود الالمانية من روزنباخ الى سويسرا ، وسافرت الى امارة لختنشتاين الصغيرة الواقعة

فى اقصى غرب النمسا ، وشمال شرقى سويسرا ، وقضيت ليلة بعاصمتها فادوز (٢٠ أغسطس) وزرت قصر أميرها، وعاينت به مجموعات الصور والتحف النادرة ، وتحادثت مع كبيرة امناء القصر الكونتة بالفى ، وتلقيت منها سائر المعلومات الخاصة بالامارة واميرها . وكتبت عنها فيما بعد فصلا نشر فى عدد الصيف الذى اصدرته جريدة الاهرام .

وسافرت بعد ذلك الى فيينا ، وأقمت بها بضعة أيام، وأجريت مع مستشارها الدكتور ليوبولد فجل ، حديثا عن المشاكل ، التى تواجهها النمسا ، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وما تعانيه من متاعب الاحتلال الاجنبى . ونشر حديثى بجريدة المصرى .

وعدت على أثر ذلك الى القاهرة فى السابع والعشرين من شهر سبتمبر .

وهكذا كانت هذه السنة ـ سنة خمسين ـ عامرة بالرحلات والدراسات الصحفية المثمرة .

* * *

وسافرت الى برلين الغربية مرتين أخريين ، الاولى فى فبراير سنة ١٩٦٠ ، وكانت قد غدت عندئذ مدينة جديدة ، واستحالت احياؤها القديمة ، من خرائب وركام مؤذية الى مدينة من اعظم المدن الاوربية ، تغص بالاحياء الفخمة والصروح العالية المحدثة والشوارع العريضة والمنشآت والمتاجر العظيمة من كل ضرب ، وقد خلعت عنها الثوب البروسى القديم ، الذى خلعته مدن المانية كثيرة أخرى جددت بعد الحرب . وتعتبر برلين الغربية اليوم ، من حيث الانتاج والنشاط من أعظم مدن المانيا

الصناعية ، ويبلغ سكانها أكثر من مليونين من الأنفس .
وكذلك زرت برلين الشرقية ، وقد قام الروس فيهـــا
كذلك بأعمال التعمير ، ولكن بنسبة تقل بكثير عن نظيرتها
في القطاع الغربي . وأعظم أعمال التعمير الروسية ، هو
اقامة شارع ستالين الشاسع (وهو اليوم شارع كارل
ماركس) على أنقاض شارع فرانكفورت القديم ، وهو
أفخم شوارع المنطقة الشرقية ، وكان الروس قد أحاطوا
برلين الشرقية بسور قوى من الاسمنت يفصلها عن برلين
الغربية منها لحوادث الفرار المتوالية منها ، وكانت تبدو
يومئذ كمدينة تحت الحصار ، شوارعها راكدة هادئة
والمرور بها قليل . ومعظم مســاكنها مغلقــة النوافذ ،
ومنتدياتها ومقاهيها خالية . وهذا بخلاف برلين الغربية
التى تغص بالمارة والحركة ، وتبدو فيها الحياة باسمة
ناشطة . وفى هذه المرة أتيح لى لقاء عمدة برلين الغربية
يومئــذ الهير فيللى برانت ، زعيم الحــزب الديمقــراطي
المسيحى ، الذى غدا فيما بعد مستشارا لألمانيا الاتحادية،
وجرى لى معه حديث طويل عن أوضاع برلين الغربية
وأحوالها ، وعلائقها بالحكومة الاتحادية . وقد نشر هذا
الحديث فى وقته بمجلة المصور .

ووقعت الزيارة الثانية فى يونية سنة ١٩٦٣ . وكانت
العلائق قد توترت يومئــذ بين برلين الشرقيــة وبرلين
الغربية ، وزاد الروس فى تعلية أسوار برلين الشرقية ،
وشردوا فى اغلاق مداخلها ، ومع ذلك فقد زرت برلين
الشرقية مرة أخرى ، واحتجزت سلطات الدخول جواز
سفرى وسائر أوراقى وآلة التصوير التى كانت معى .
وقضيت اليوم أتجول فى أنحائها ، وقد كانت ما تزال
على ما كانت عليه من الفقر والسكون الموحش ، وكانت

منازلها كما سبق ان شهدتها من قبل ، ما تزال مغلقة النوافذ والابواب ، لا تكاد تحس بها حسيسا . وغادرتها نحو المساء ، واستمدت جوازى وأوراقى والكوداك ، وخرجت احمد الله على السلامة ، واخذت فى هذه المرة كثيرا من الصور خارج الاسوار ، وأمام أبواب الدخول ، وأتيح لى يومئذ أن أزور متحف دالهم ، وأن أشاهد تمثال نفرتيتى البديع ، وقد وضع به فى بهو خاص ، يفد عليه الزوار بكثرة ، ويتأملونه دهشين معجبين .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٩٦٤ ، توفيت المرحومة والدتى السيدة نبيهة على عبد اللاه عن نحو تسعين عاما ، اذ كان مولدها حسبما سبق ان أشرت اليه فى سنة ١٨٧٤ . وكانت وفاتها بمنزلها الذى كنا نملكه بالعلية . وحملت فى ظهر اليوم التالى ، بعد الصلاة عليها فى الجامع المواجه لمنازلنا، لكى تدفن مباشرة فى مدن السائلة بالامام الشافعى، وذلك دون اقامة سرادق أو تشييع جنازة، تجنبا لبعض الاجراءات التى كانت تعمل بالنسبة لوفيات الاشخاص ذوى المكانة الخاصة . ونشر النعى فى اليوم التالى بجريدة الاهرام واحييت ليلة المأتم بمنزلنا بالمعادى، بيد انه وقعت المفاجأة ، وكانت الدهشة حينما وردت فى اليوم التالى برقية تعزية من السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، وبرقيات أخرى من بعض رجال الدولة : مثل السيد كمال الدين حسين ، وغيره وبالرغم من اننى قمت بما ظننت انه يسدل ستارا على الحادث من الاجراءات ، ويجنبنى هذه المجاملات وأمثالها ، الا ان هذه المجاملات الكريمة ذاتها كان لها فى نفسى أطيب وقع، واقتضى أن ذهبت الى رياسة الجمهورية وقيدت اسمى للشكر بدفتر التشريفات .

النشاط العلمي المحلي

كنت لما اعتزلت خدمة الحكومة فى سنة ١٩٥٣ ، افكر فى العود الى الاشتغال بالمحاماة محـاميا لدى القضـاء العالي ومجلس الدولة ، وكنت انوى أن أقصر نشاطى على نوع معين من القضايا . وهى القضايا التى تقع فى حيز القانون الدولى الخاص ، والتى تمثل ضروب النزاع بين المصريين والاجانب ، وبين الاجانب المختلفى الجنسية. وتحـــدثت فى ذلك مع بعض زملائى القدامى ، فأبدوا لى ان هذا التفكير يأتى متأخرا جدا ، وان تقدير العمل فى القضايا المختلطة ، لم يبق له موضع فعلى ، لان معظم الأجانب العاملين ، قد بدأوا يغادرون البلاد تحت وطأة النظام الجديد ، ولن يلبثوا حتى يجلون عن آخرهم . ومن جهة اخرى فان مهنة المحاماة فى ذاتها ، قد اضحى مشــكوكا فى مستقبلها وضماناتها . ومن ثم فانه يجب استبعاد التفكير فى العمل فيها .

وقد اقتنعت يومئذ بهذا الرأى ، وشعرت شعورا قويا بأن العمل فى اية مهنة محلية ، يباعد بينى وبين مشروعى الذى انتويه من تكريس سائر نشاطى لبحوثى التاريخية ، والاندلسية بنوع خاص ، ومسرحها الاساسى كما أوضحت من قبـل ، يوجد فى الخـزائن والمحفوظات الاسبانيـة والمغربية ، والعمل فيها يقتضى معظم الوقت ، فلم تك ثمة اية فرصة متاحة ، لمزاولة اى عمل آخر .

ولم أفكر على الاطلاق ، أن أشتغل بصحافة العهد الجديد ، مهما كانت طوالعها المغربية ، وان كنت من ألمع الصحفيين القدامى ، اذ كنت اربا بكرامتى وحرية قلمى ، ان توضع موضع المزايدة والتغرير ، والدعايات الكاذبة ، وتأييد نظام ، بدت طوالعه مصطبغة بالالوان النازية ، ومن ثم فقد ابتعدت عن كل نشاط صحفى ، فيما خلا بعض المهام الخارجية ، التى كنت اضطلع بها وفقا لذوقى واختيارى ، ولحساب نشاطى الخاص ، والتى أوردت منها فيما تقدم نماذج كثيرة .

وكذلك فقد أضربت عن المساهمة فى الكتابة فى المجلات الادبية ، لانها على قلتها ، وضآلة مستواها فى العهد الجديد ، لم تكن خليقة بالبحوث او الكتابة الادبية العالية . وقد غلبت عليها ما يسمى بالنعرة الاشتراكية . وغيرها من دعايات هذا العهد ، مما يأنف مثلى من المساهمة فى تحريرها .

وكان نشاطى العلمى المحلى ، يقتصر على التحاقى بعضوية « لجنة التاريخ والآثار » بالمجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . واشهد انى قبلت الانضمام اليها نزولا على رغبة مقررها صديقى واستاذى العلامة المرحوم عبد الرحمن بك الرافعى ، وقد كان ينتظم بها نخبة من اكابر علمائنا ومؤرخينا امثال المرحومين الاساتذة شفيق بك غربال ، ومحمد رفعت باشا ، والدكتور محمد صبرى السوربونى ، والدكتور جمال الدين الشيال ، ومن الاثريين المرحومين الدكاترة أحمد فخرى ، وعبد المنعم ابو بكر ، وجمال محرز ، والاستاذ حسن عبد الوهاب ، طيب الله ثراهم جميعا ، وما زلت

عضوا بها حتى كتابة هذه السطور .

والتحقت فى نفس الوقت عضوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، واشتركت فى كثير من مؤتمراتها وحفلاتها التذكارية للمؤرخين المصريين ، أمثال القلقشندى ، والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، وابن اياس، والجبرتى ، وألقيت بها محاضراتى عن هؤلاء المؤرخين الاعلام ، والقيت بها كذلك محاضرات عديدة فى موضوعات اخرى .

وانتخبت عضوا بمجمع اللغة العربية الموقر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٥ ، ووقع ترشيحى فىغيبتى بالمغرب، بواسطة جماعة من الزملاء الأوفياء ، وتم انتخابى فى الدورة الاولى فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعى ، وهو كما علمت من رئيس المجمع الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ، أمر نادر الحدوث فى انتخابات المجمع . وتم استقبالى عضوا بالمجمع فى يوم الاربعاء السابع من شهر أبريل سنة ١٩٧٦ ، وقدمنى الى المجمع زميلى الاستاذ ناصف النجدى ، والقيت كلمتى عن سلفى المرحوم الدكتور عبد الحكيم الرفاعى ، وحضرت هذه الجلسة معى السيدة حرمى . وأنا الآن سعيد بمثولى بين زملائى أعضاء المجمع ، الذين يمثلون جمعا من خيرة العلماء الأجلاء .

ثم كان أن حظيت بالحصول على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية فى الجلسة التى عقدت بمجلس الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٧٧ ، وكنت

قد رشحت للحصول عليها من قبل لجنة التاريخ والآثار قبل ذلك بأعوام طويلة .

وقد حصلت أولا على المنحة المالية المقررة لهذه الجائزة وقدرها الفان وخمسمائة جنيه . ثم ارجئت بقية الاجراءات حتى يتيسر عقد جلسته لموسم العلم . وقد تحدد لذلك أخيرا مساء يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق للتاسع من شهر اكتوبر سنة ١٩٧٩ . وقد تقرر أن يكون استلام الفائزين للمدالية الذهبية ووسام الجمهورية فى ذلك المساء ، وأن يكون تسليمها بمعرفة السيد رئيس الجمهورية محمد أنور السادات وحضور السيد وزير الثقافة الاستاذ منصور حسن ، وذلك فى حفل فخم عقد بمسرح الجمهورية المجدد خصيصا ليحل محل الأوبرا القديمة المحترقة ، ولتعقد به الحفلات الرسمية . وكان فى الواقع حفلا وقورا بهجا ، تسلمت فيه الى جانب زملائى الفائزين معى فى سنة ١٩٧٧ بجوائز الدولة التقديرية ، المدالية الذهبية ، وقد نقش عليها اسمى ، كما نقش عليها عبارة « علوم اجتماعية » ، ووسام الجمهورية من الطبقة الاولى فى العلوم والفنون ، تسلمتها من يد السيد رئيس الجمهورية ، وصافحته شاكرا وكان زميلاى اللذان حصلا على الجائزة التقديرية هما السيدة الدكتورة سهير القلماوى ، والاستاذ وزير الثقافة السابق بدر الدين ابو غازى ، كما سلمت فى نفس الحفل المداليات والأوسمة الخاصة بسنة ١٩٧٨ على مستحقيها ، وكانوا عدة آخرين من بينهم السيدة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) . وقد كان هذا حسن الختام فى اجراءات

جائزة الدولة التقديرية . والحمد لله .
وقد شعرت أخيرا ، وبعد طول الوقت أن بلادى العزيزة لم تنسنى ، ولم تنس جهودى العلمية الدائبة الزاخرة ، خلال هذا العمر الطويل ، وان كان هذا التكريم ، قد جاء متأخرا بعض الوقت ، ولم أسعد به الا فى عمرى المتقدم .
وكان يقترن بهذا الاستعراض السريع لنشاطى العلمى بمصر ، فى الفترات التى كنت أوجد فيها بالقاهرة خلال تلك الحقبة الطويلة ، التى أنفقتها فى دراساتى الاندلسية فى اسبانيا والمغرب ، كان ذلك يقترن بمتابعتى لطبع كتبى بالقاهرة ، وفى مقدمتها كتابى الضخم : « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » ، وفى اعادة طبع كتبى الاندلسية ، مرة بعد أخرى ، ثم نشر كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير ابن الخطيب ، وهو الذى قمت بتحقيقه ، وعكفت أعواما طويلة ، على تصحيح نصه ووضع حواشيه ، والذى قدم الى المطبعة منذ سنة ١٩٧٢ ، واستمر بمجلداته الاربعة تحت الطبع حتى خريف سنة ١٩٧٨ ، حيث تم بحمد الله اكمال طبعه بعد مجهود طويل شاق ، كان يزيد من متاعبه وآلامه ، اهمال « الشركة المصرية للطباعة والنشر » القائمة بطبعه وتسويفها المستمر ، وتقصير عمالة لا ضمير لها ، ولا شعور بالواجب أو المسئولية ، أسوة بمعظم منشآت القطاع العام .

* * *

هذا وكنت قد دعيت فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ ، من قبل صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى ، ملك المغرب، للعمل

بالخزانة الملكية المغربية ، فقبلت الدعوة ، وصدر مرسوم جلالته بتكليفي بمهمة بالديوان الملكي . واخترت ان تكون مهمتي بالخزانة الملكية ، وضع فهرس علمي مقارن لقسم المخطوطات التاريخية ، وهو يحتوي على قرابة الف مخطوط ورسالة ، وبه عدة من المخطوطات الوحيدة والنادرة . وكنت أعرف الخزانة الملكية من قبل ، اذ كنت أقوم فيها من آن لآخر بدراسة المخطوطات التي تتعلق ببحوثي ، ولم تكن لي بالقائمين بالعمل فيها أية صلات خاصة . فلما مثلت بها للقيام بمهمتي الجديدة ، واتصلت بطاقمها الملحق بها ، هالني ما وجدت عليه أولئك العاملين من انحطاط المستوى المهني والمعنوي ، فهم جميعا ، ما عدا اثنين او ثلاثة ، لا يعرفون شيئا في أعمال المكتبات المنظمة ، ولا يعرف احدهم أية لغة اجنبية معرفة مجدية .

ولم يكن بالخزانة اي فهرس علمي أو دولي ، وكان أشد ما يؤلم نفسي ، أن اشتغل في مثل هذا الوسط ، الذي لا يليق وجود مثله بالخزانة الملكية . بيد انه لم يكن ثمة مجال للتراجع ، وقد لبيت دعوة صاحب الجلالة . وقد حياني جلالته ، حينما تشرفت بمقابلته في فاس في بداية مقدمي الى المغرب ، بقوله موجها كلامه الي ، بين وزرائه ورجالات بلاطه « لقد بحثنا عمن يقوم بهذا العمل ، فلم نجد الا عبد الله عنان » وكانت هذه التحية الملكية الرقيقة شعاري طول الوقت .

وقد بدأت عملي بالعمل على تزويد الخزانة الملكية بطائفة من المعاجم والفهارس الدولية ، وفي مقدمتها موسوعة الدكتور كارل بروكلمان عن تاريخ الادب العربي ، وموسوعة الأستاذ فؤاد سزجين الالمانية عن تاريخ التراث

العربى ، والطبعة الفرنسية من دائرة المعارف الاسلامية ، وفهارس مكتبة الاسكوريال ، الفزيرى وديرنبور ، ومكتبة الفاتيكان الرسولية ، ومكتبة باريس الوطنية . هذا الى ما كنت أحتفظ به فى ملفاتى الخاصة من دراسات فهرسية كثيرة ، عن عدد من المكتبات الاوربية . وهى دراسات أفرغت منها كل ما يتصل بنظائر المخطوطات الملكية ، فى الفهرس الذى أقوم بوضعه . وقد تم بحمد الله وضع الفهرس المنشود لقسم التاريخ فى أوائل يونيه سنة ١٩٧٨ ، على نمط علمى دولى واسع المدى ، وسلمته الى المسئولين . والامل معقود بطبعه باذن الله فى أقرب وقت .

وأود أن أشير هنا الى المعنى ، الذى تنطوى عليه الدعوة الملكية الكريمة بتكليفى بمثل هذه المهمة العلمية . فان الذى قام بوضع فهارس مكتبة القرويين الدينية الكبرى ، هو المستشرق الفريد بلّ ، والذى قام بوضع فهارس مكتبة الرباط هو المستشرق ليفى بروفنسال . وما زال اخواننا العلماء المغاربة يلتزمون فى وضع الفهارس بالطريقة الكلاسيكية القديمة ، التى مضت اليوم ، لخلوها عن كل صفة علمية مقارنة ، وذلك لعدم معرفتهم باللغات الاجنبية ، التى يجب توفر العلم بها لتحقيق هذا الطابع العلمى .

وقد أتممت مهمتى بالخزانة الملكية فى أوائل سنة ١٩٨١ ، وكان السيد مدير الخزانة ، قد اقترح بهذه المناسبة على مدير الديوان الملكى ومستشار صاحب الجلالة الاستاذ احمد بن سودة ، ان يتفضل صاحب الجلالة بالانعام على بوسام علمى ، وكذلك بمكافأة مالية

تقديرا لجهودى فى خدمة الخزانة الملكية . ووافق صاحب الجلالة على هذين الالتماسين . ودعيت الى مراكش حيث كان يقيم جلالة الملك ، وحضرت مع باقى المدعوين من رجال الدولة ليلة المدائح النبوية فى يوم ١٨ يناير سنة ١٩٨١ . وفى اليوم التالى ، وهو يوم الاحتفال بذكرى المولد النبوى المعظم ، تشرفت بمقابلة صاحب الجلالة ضمن رجال الدولة ، وتفضل جلالته بمنحى الوسام العلمى (الكفاية الفكرية) ، وقلدنى اياه بيده الكريمة . ولكنى تعذر حصولى على المكافاة المالية ، التى كان قد وافق جلالته على منحها بالرغم من انتظارى بالمغرب وقتا كافيا . وقيل لى أخيرا فى الديوان أن هذه المكافاة سوف ترسل الى بعنوانى بالقاهرة . ولكن لم يرسل الى بشىء من ذلك رغم مرور وقت كاف على هذا الوعد .

انجاز كتابى الاحاطة والريحانة

وكان من نتائج هذه الاقامة الطويلة بالمغرب انى استطعت أن أقوم بانجاز عملين أدبيين خطيرين أولهما القيام على اتمام تحقيق كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب . والثانى ، أن أقوم بعد انجازه بالعمل على تحقيق كتاب « ريحانة الكتاب ونجمة المثاب » لابن الخطيب أيضا . وقد تم انجاز الاول تحقيقا وطبعا فى سنة ١٩٧٣ بعد عدة أعوام من المثابرة والعمل المضنى . واستطعت فى نفس الوقت ان اقوم بتحقيق كتاب « ريحانة الكتاب » ومخطوطاته فى المكتبات المغربية بعد ان حصلت على نسخته الرئيسية الهامة من مكتبة السكوريال . وكان هذا العمل الادبى

الضخم ، يشغل كل أوقات فراغى ، فكنت أعمل فى هذا التحقيق كل مساء مدى ساعات ، وانجز قسما لا بأس به من هذا الكتاب أو ذاك . وقد تم طبع كتاب «الاحاطة» بمجلداته العريقة أثناء وجودى بالمغرب . وكنت أخصص له فى كل سنة بضعة أشهر من الاجازات التى كنت احصل عليها للراحة والاستجمام بالقاهرة ، فتقوم المطبعة بانجاز قسم لا بأس به ، وينجز الباقى الذى لا أتمكن من مباشرته خلال غيابى بعد الاحتياط لاعداده وترقيمه وتشكيله ، وأما كتـــــاب الريحـــانة فقد أنجزت تحقيقه فى العامين الاخيرين من اقامتى بالمغرب ، بعد الانتهاء من انجاز كتاب الاحاطة ، ولم يبدأ بطبعه الا بعد الانتهاء من كتـــاب الاحاطة ، وعودتى الى القـــاهرة واستئناف اقامتى بها ، وقد كان الريحانة بالنسبة للاحاطة عملا هينا . ولـــكنه لبث فى المطبعة كالمعتــــاد وقتا طويلا ، وبذلنا جهـــدا فى مجلديه أســـتمر نحو ثلاثة أعـوام . وكانت النتيجة اخراج هذين الكتابين الضخمين ، وأولهمـــا الاحالة فى أربعة مجلـــدات كبيرة وثانيهمـــا الريحـــانة فى مجلدين . ويعتبر كلاهما آخر أعمالى الادبية الكبرى . والحمد لله على الظفر بانجازهما خلال حياتى .

***

هذا ، وأنه لمن المناسب ان أشير هنا الى امكنة اقامتى بمدينة القاهرة خلال هذا العهد الطويل الذى اسـطر حوادثه .

كانت عائلتى المتواضعة خلال أيام دراستى تنتقل فى

السكن بين احياء القاهرة الشعبية ، التى يسهل منهـا وصولى الى مدرستى . وكنت أثناء دراسة الحقوق ، وكانت أسرتى تعيش يومئذ بالقرية ، أقيم وحدى بشقة ارضية متواضعة بالحارة التى توصل بين شارع الخليج المصرى (بور سعيد الآن) ، وشـارع جامع عابدين .
ومذ عدت من الاقاليم خلال حياتى العمليـة ، الى القاهرة ، تنقلت فى السكنى مع عائلتى بين السيدة زينب وبركة الفيل . ثم سكنت عقب زواجى فى سنة ١٩٣٠ ، فى منزل خاص ، يقع قرب وزارة المالية خلف مدرسة الخديو اسماعيل ، وبه ولد ولدى الاكبر الدكتور محمود. وانتقلت منه الى شبرا تبعا لنصح الطبيب ورعايته لصحة ولدى فى حى طلق الهواء . وكانت شبرا يومئذ ما تزال فى اواخرها ، خالية فسيحة الارجاء . ولما اشتد ولدى قليلا انتقلت الى الحلمية الجديـدة فى منزل عائلى كبير ، من منازل الباشوات القدامى ، يقع فى شارع الهامى باشا (الآن الماس الحاجب) . وكان جل منازله يومئذ من الفيلات الخاصة ، ومنها منزل المرحوم نسيم باشا ، الذى حول فيما بعد الى مدرسة ، وتسكنه طائفة من العائلات المحترمة ، واستطالت اقامتى فى هذا المنزل نحو عشرين عاما ، وكبر به أولادى الثلاثة . وتخرج ولدى محمود من كلية طب قصر العينى . وتخـرجت ابنتى سعاد من كلية الآداب بجامعة القاهرة . وعندئذ رايت أن أنتقل الى منزل آخر اكثر جدة ، وفى حى ارستقراطى ، ولا سيما أن منازل شارع الهامى ، قد تحول معظمها خلال هذا المدى الطويل الى عمارات سكنية حاشدة ، واستقر الراى العائلى على أن يكون ذلك فى ضاحيـة

المعادى . وكان ذلك فى سـنة ١٩٥٨ . وكانت هـذه الضاحية ما تزال يومئذ على رونقها التى أسبغه عليهـا تخطيطها الارستقراطى وسكانها الاجانب ، وكانوا يومئذ كثرة بها . ولم يكن قد أصابها التشويه والاهمـال التدريجى ، والغزو الشعبى المبتذل . فنزلت بها فى دور كبير فخم مستقل هو الدور الاول من فيلا فخمة ، وبه غرفة كبرى اتسعت لمكتبتى الكبيرة . وبهذا المنزل تخرج ولدى الثانى حسين من كلية الحقوق ، وما زلت حتى كتابة هذه السطور أقيم فى هذا المنزل الجميل الساحر ، وذلك بالرغم من أنى أملك فى المعادى نفسها فيلا كبيرة فخمة ، يسكن بها ولدى حسين وعائلته ، ويتولى شئونها ، وبالرغم مما طرأ على المعادى من تغير كبير فى مستوى سكانها ، وما أصابها من الغزو الشعبى المؤذى ، وماتقاسيه من اهوال المواصلات التى لا تليق بأية مجتمع متمدن ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

بعض الانطباعات عن رحلاتى الاوربية

لقد زرت خلال رحلاتى الدراسية والسياحية سائر دول أوربا الغربية ، والمملكة المتحدة (بريطانيا) ، ولم ازر قط روسيا السوفييتية ، وهو امتناع مقصود ، لأنى صممت على أن لا ازور البلاد الشيوعية ، ولأننى أمقت المذهب الشيوعى ، وكل من يدين به . ولقد كانت مثل هذه الزيارة ميسورة فى فرص كثيرة ، انتهزها اخوانى أعضاء مجلس الفنون وغيرهم ، وصفوا لى الكثير مما شاهدوه فى موسكو من الخطط والمشاهد العظيمة ، والمنتديات الفخمة . ولكن ذلك لم يستملنى قط الى استجابة الدعوة الى زيارة روسيا . وكل ما كنت أود أن أزوره منها هو التركستان المسلمة ، ولكنى لم أطمئن كذلك الى القيام بمثل هذه الزيارة ، لانى أعرف أن السلطات الثقافية الروسية فى القاهرة ، تعرف جيدا ما صدر منى من حملات عديدة ضد المذهب الشيوعى ، وضد روسيا السوفييتية .

وهكذا تمت لى زيارة سائر بلاد القارة الاوربية ، ما عدا روسيا السوفييتية وهو نقص لم أندم عليه قط .

ولقد ترددت على بلاد القارة مرارا وتكرارا ، ولا سيما فرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وبريطانيا ، واتصلت بشعوبها ، ودرست خواصها الحضارية . وفى رأيى أن الحضارة الاوربية الصميمة تتأثل فى هذه البلاد الخمسة ،

أكثر من غيرها ، وانهـا تبلغ بين بلاد القـارة ، أعلى مستويات الحضارة الاوروبيـة المنبثقـة من الحضـارة الرومانية ، ومع أن البلاد السكندنافيـة ، ودنماركة والسويد والنرويج ، لا تقل فى مستواها الحضاوى عن هذه البلاد ، فانها تبدو للزائر ، منذ الدراسة الاولى ، انها بالرغم من مستواها الحضارى الرفيع ، بلاد باهتة ، ليس لها خواص أصيلة بارزة ، مما يمتازر به البلـد المتمدن عن غيره ، وانما هى بلاد ذات مظاهر حضارية عادية ليس لها لون خاص ، ويمكن ان تلاحظها فى أية بلاد متمدنة أخرى . ومن ثم فان البلاد الخمسة التى ذكرناها ، وهى فرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وبريطانيا، هى حسبما أسلفنا موئل الحضارة الاوربية الصميمة ، وكـل منها تتميز بخـواص بارزة مستلقة ، من حيث الشخصية والعقلية ، والاخلاق ، واسـاليب التفكير ، والحياة . ولكنها جميعا تبلغ القمة من المستوى الحضارى، وكـل ما ينضوى تحتـه من المستويات الاخـلاقية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والاقتصادية ، والصناعية ، والزراعية ، والتقنية . وكل منها ــ فيما عدا المانيا ــ ذات تاريخ قديم عريق ، وكلها تتمتع بتراثات علمية ، وأدبية بارعة ، وجامعات ومعاهد علمية وفنية عظيمة ، ذات سمعة عالمية ، وحياة اجتماعية زاهرة ، وصحافة عريقة ، ولقد أخذت بطرف من سـائر هذه المظـاهر الحضارية العريقة فى تلك البلاد العظيمة ، وامتزجت دراسـاتى ومطالعـاتى بالآداب الانجليزية والفـرنسية والالمانية ، والايطالية ، وأخـذت من كل منهـا بقسط ملحوظ من الدراسة والقرامة ، والترجمة أحيانا ، وكان

ذلك بنوع خاص فى قصص « السياسة الاسبوعية » ، التى سبق أن أشرت اليها فيما تقدم فى بداية عهدى بالاشتغال بالصحافة ، وكذلك فى مؤلفات وبحوث تاريخية قمت بترجمتها من الالمانية . وكانت دراسة هذه اللغات دائما من أمتع ما كنت أشعر به من اليسر ، والراحة النفسية فى رحلاتى العديدة لهذه البلاد ، حيث كانت اللغة دائما فى يدى سلاحا معينا نافذا ، محققا لكل ما رغبت وطمحت اليه من دراسة شئونها ، والحياة فيها ، والامتزاج بأبنائها ، والتمتع بمنتدياتها الاجتماعية والفنية .

ولم يكن فى أوربا ، غير هذه المجموعة الاوربيةالحضارية العريقة ، سوى هولندة وبلجيكا ، وسويسرا ، وهى من البلاد التى لم تكن ميدانا لدراساتى ، وكذلك المجر ، وبلاد البلقان فانها رغم زيارتى لها لم تكن بالنسبة لى ذات اهمية خاصة ، ولم تكن سوى مجالات سياحة ونزهة أتريض فيها ، واقف على احوال شعوبها .

بقيت من هذا التعداد اسبانيا . وسوف نتحدث عن اسبانيا والشعب الاسبانى بشىء من الشرح والافاضة .

لقد فكرت فى زيارة اسبانيا لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ ، وكانت هذه هى السنة التى بدأت فيها الحرب الاهلية الاسبانية ، التى لم يكن يستطيع احد أن يقدر زمنها ولا مداها ، فسافرت الى فرنسا ثم اتجهت الى جنوبها لكى أعبر جبال البرنيه الى اسبانيا . فلما وصلت الى الحدود الفرنسية الاسبانية ، الفيت حرس الحدود الاسبانى يرد القاصدين الى دخول اسبانيا ، وفهمت مما وقفت عليه أن الدخول متعذر الآن ، وفى المستقبل القريب .

وطالت الحرب الاهلية الاسبانية ، واتسع نطاقها ، ثم اضطرمت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، واستمرت مدى أعوام . ولما انتهت بسحق ألمانيا النازية فى سنة ١٩٤٥ ، لبثت الاحوال والمواصلات الدولية أعواما أخرى فى اضطراب ومتاعب حتى كانت سنة ١٩٥٠ ، ففى هذا العام ، أتيح لى أخيرا ان أحقق أمنيتى القديمة فى زيارة اسبانيا ، ووصلت الى مدريد فى هذا العام .

ولقد كانت اسبانيا بلا ريب أهم الدول بالنسبة لى ، لانها كانت مركز دراساتى الاندلسية حسبما بينت فى الفصل الخاص بذلك . وبالرغم من كون اسبانيا تعتبر من الناحية الجغرافية دولة أوربية ، فانها تتميز بسمات حضارية خاصة بها ، وترجع الى جانب الاصول الرومانية والقوطية ، الى أصول عربية . فأنت ترى وتشعر بكثير من الخواص الحضارية العربية والاسلامية ، تبدو فى طبائع الامة الاسبانية ، وفى حياتها العامة والخاصة ، ولا سيما فى قسمها الجنوبى ــ الاندلس ــ الذى طال فيه حكم الاسلام نحو ثمانية قرون . وكذلك تشعر وتجد فى اللغة الاسبانية ذاتها كثيرا من الكلمات التى ترجع الى أصول عربية ، وقد تعلمت اللغة الاسبانية ، حسبما أشرت من قبل ، فى بداية الخمسينيات ، بداية القيام برحلاتى الدراسية الاندلسية ، وقمت فى اسبانيا بأربع عشرة رحلة دراسية ، وامتزجت بطوائف الشعب الاسبانى امتزاجا ، فى المدينة والقرية ، وفى المقهى ، وفى المنتديات الاجتماعية والفنية ، وعقدت صداقات كثيرة مع العلماء الاسبان ، ولا سيما من كان منهم يهتم بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وخرجت من ذلك كله ، بأن

اسبانيا تؤلف وحدة حضـــارية خاصة بها ، وأن الشعب الاسباني يتميز بخواص هذه الحضـارة عن أية أمة أوربية آخرى ·

ان الشعب الاسبانى الحـــالى شعب متوســط الرقى ، متوسط الثقافة ، متوسط المستوى الاجتماعى والاقتصادى · وهو مع ذلك شعب فخور بتراثه وتاريخـه ، وما تحـــويه بلاده من المدن العريقة والصروح والكنائس والقصور والاثار الفخمة · وهو فى الادب والانتاج الفـكرى يتمشى مع باقى الدول الاوربية الى حد كبير · ففيه أكابر الكتاب والمفكرين والقصصين ، الذين يروج انتاجهم فى اســـبانيا وأمريكا اللاتينية ، ويترجم منه الكثير الى اللغات الاوربية الاخرى · وقد حصل الاسبان على أكثر من جائزة من جـوائز نوبل ، ومنها فى الادب لخوان خمنيس ·

وهو فى الفنون يحتـــل مكانة ممتـــازة ، ولا سيما فى التصوير والموسيقى والرقص والمسرح ، وللفنون الاسبانية الموسيقية والغنائية الراقصـــة طابع خـاص ، يختلف عن الطابع الاوربى العام فى هذا الميدان ، حيث تمتزج الموسيقى والاغانى الاســـبانية بعنـــاصر ومؤثرات رومانســية ، وأندلسية ، وموريسكية ، وغجـــرية ، يسبغ عليهـا هذا الطابع الخاص الذى لا يوجد فى التراث الموسيقى والغنائى الاوربى · أضف الى ذلك فن مصـــارعة الثيران ، وهو فن تختص به اسبانيا ، ولا يجـــاريها فى ذلك الآن ســـوى المكسيك ، والاســـبان يعشـــقون هذا الفن ، ويقبلون على مشاهدته اقبالا شديدا · وتوجد ساحات مصارعة الثيران « الكوريدا » فى معظم المدن الاسـبانية ، ومنها الكثير قد شيدت مداخله على طراز عربى فخم مثل ســـاحة الثيران

برنده وبمدريد ، وغيرها • ولقد شاهدت هذه المصارعة بين الانسان والحيـــوان غير مرة ، وكنت في كل مرة يتقبض قلبي مما أراه من تعذيب الثور واســالة دمه حتى الموت • وكنت أرى في غير مرة من يغمى عليهــن من الســيدات الاوربيات تأثرا بهذه القسوة البشــعة في تعذيب الثور وقتله •

والشعب الاسباني في مجموعه شــعب متواضع طيب القلب ، قنوع ، شكور للصنيعة وقد بلوت منه هذه الصفات في كثير من اتصالاتي ومعــاملاتي • وهو شعب مرح يحب الحياة ويحاول أن يستمرئها ويستمتع بها ما اســتطاع الى ذلك سبيلا • وتغص المدن الاسبانية ، وفي مقدمتها مدريد بالمقاهي والبارات • وتمتــاز مدريد بنوع خاص عن أية عاصمة أوربية أخرى بما يوجد بهــا من المقــاهي الفخمة الجذابة • والاسباني يحب حياة المقهى ، وينفـق فيه معظم أوقات فراغه • وهو يحب الشراب ، ويسعى اليه ما دام في جيبه بضعة فلوس • وتبقى المقاهي الاسبانية مفتوحة حتى مطلع الفجر ، ثم تفتح متأخرة في الصــباح • وتقدم اليك مقاهي مدريد أفخم وأشهر الاشربة وفي مقدمتهــا القهوة التي لا يمكن أن تحصل على مثلها من الجودة والمتعة في أي بلد أوربي آخر ، وكذلك يحب الاســباني الطعام • وفي مدريد وغيرها من المدن الكبيرة مطاعم كثيرة فخمة، والمطبخ الاسباني يمتاز بألوانه الخاصة ، التي لا توجد في أي مطعم أوربي آخر • وتمثل الاسماك في الاطباق الاسبانية بكثرة ، كما تكثر أنواع الطبق الواحد ، وفقا لمختلف اعداده في كل ولاية وكل مدينة ، الجاليجو ، النبرى ، الاستورى وغيرها • وأشهر الاطباق الاسبانية الخاصة هو طبــق الارز البلنسي

Arroz Paella ، وهو يعتبر بالفعل بتكوينه الفنى من أشهر وأمتع الاطباق الاوربية ٠

والشعب الاسبانى شعب متـــدين ، بل فى الواقع شعب متعصب من الناحية الدينية ، وتحتوى اسبانيا على أضـــخم وأكبر عدد من الكنائس تحتويه أية دولة أوربية ٠ وقد أنفق الاسبان أيام عصور المجد والنهضة كل ما حصـــلوا عليه من ذهب العالم الجديد فى انشاء الكنائس والصروح الفخمة ، وتغص الكنائس أيام الاحاد بزوارها من الرجال والنساء ٠ وتحتفل اسبانيا بكثير من الاعياد الدينية ٠ وقد تبلغ هذه الحفلات الدينية العامة أكثر من خمسين عيدا فى الســنة ٠ ولكل بلد عميدها وحاميها من القديسين ، تحتفل بعيده على حدة . وتحتشد الجماهير أيام هذه الاعياد بكثرة ، وتعطل سائر الاعمال ، وكثيرا ما كانت تفاجئنى هـــذه الاعياد أيام دراساتى فى أسبانيا وتعطل كثيرا من أعمالى ، وقد عملت الحكومة الاسبانية فيما بعد على تخفيض عدد هذه الاعياد ، ولكنها ما زالت كثيرة لا تقل عن العشرات فى كل عام ، وهذا بالطبـــع غير الاعياد القومية غير الدينية .

ولابد لى أن أعطف هنا على ذكر الفتاة الاسبانية ، فهى تشغل فى المجتمع الاسبانى مكانة مرموقة ، وهى تشتهر بجمالها وسحرها وخفة روحها . ولهذا الجمال طابع خاص ، فهى ليســـت كمعظم زميلاتها الاوربيـــات باهتة اللون تغلب عليها الشقرة ، بل بالعكس تغلب عليها السمرة والخمرة ، ومن النـــادر أن ترى فتاة اسبانية شقراء . ثم أن الفتاة الاسبانية متوسطة القد ، يغلب

عليها القصر ، ويندر ان تجد فى اسبانيا فتيات يغلب عليهن الطـول مثل ما تجـد مثلا فى انجلترا والمانيـا والسويد . وتمتاز الاسبانية بجمال شعرها الاسود أو القسـطلى الداكن . وفى اسبانيا ترى أجمل الشـعور وأجمل الأعين السوداء والعسلية ، وأجمل الأهداب ، وتحافظ الاسبانية بمنتهى الحرص على شعرها الطويل الرائع ، ويقص كثير من الفتيات شعورهن من الوراء على مثل ذيل الحصـان . وقد كانت الاسـبانية حتى عهد قريب ، شديدة المحافظة فى ملابسها . وكان من النادر حتى أواخر السـتينات أن ترى فتـاة اسـبانية تلبس المنى جوب أو البنطلون . وما زلت أذكر ما رأيته يوما فى شارع الجران بيا (خوسى انطونيو) من تتبع المارة لفتاة ترتدى البنطلون ، وتقدم رجل البوليس الى حمايتها وابعادهم عنها ، وقد انتهى هذا العهد ، وترتدى الاسبانية الان كزميلاتها الاوربيات ما شاءت من الثياب والازياء . .

وأود أن أضيف الى ذلك ان مسارح الرقص الاسبانية من الكـاباريهات وغـيرها تلتزم مستوى مشـكورا من الحشمة ، فلا تبدو الفتيات عاريات او نصف عاريات حسبما يقع بنوع خاص فى باريس ، حيث يمكن أن ترى الراقصة عارية تماما فى ملاهى مثل الكازينو دى بارى والمولان روج والفولى برجير . وما زلت أذكر ما حدث بفرنسا قبيل الحـرب العالمية الثانية بقليـل من منع البوليس لمنظر رقصات عارية فى الكازينو كانت تقوم بها انجليزية حسناء ، ورفع الكازينو الامر الى القضـاء ،

باعتبار أن هذا المنظر ، انما هو عرض فني لجمال الانسان الطبيعي . ومن حق الجمهور أن يستمتع برؤيته وأن يعجب بصنع الله في جمال خلقه . وقد أخذ القضاء بهذا الدفاع وقضى بوقف تدخل البوليس في رقصة الكازينو العارية . وأصبح الرقص العاري اليوم من المناظر المألوفة في باريس وغيرها من العواصم الاوربية . واذكر انني خلال عهد فرانكو الطويل في اسبانيا لم أر رقصة عارية بمدريد . وحتى الرقصات التي كان على الفتاة أن تبدو فيها بسيقان عارية ، كانت الفتاة ترتدي قلسونا بلون اللحم الطبيعي ، ولا أعرف ان كان هذا الحظر قد سقط في ظل النظم الجديدة الحرة .

بيد أنه يجب أن ننوه هنا بأن الفتاة الاسبانية مازالت من ناحية المعرفة والثقافة العامة والرياضة البدنية متخلفة عن زميلاتها الاوربيات في هذا الميدان .

ويجدر بنا أن نخص المرأة الاندلسية باشارة خاصة ، فالمرأة الاندلسية ، أعني في جنوب اسبانيا مشهورة بجمالها ، وهي تغلب عليها السمرة . ويبدو هذا الجمال بصفة خاصة في النساء الغرناطيات فهن أجمل نساء الاندلس . وهن يتميزن بسحنة تكاد تكون عربية . ويشتهرن بالتحفظ والحياة . ومن الواضح أنهن يحتفظن بكثير من آثار اسلافهن نساء الاندلس المسلمة وشمائلهن . وأنت اذا قرأت وصف ابن الخطيب في كتاب « الاحاطة » لنساء غرناطة ، فانك تجد هذا الوصف يكاد ينطبق على نساء غرناطة اليوم ، واليك ما يقوله ابن الخطيب عن نساء غرناطة في عصره (أواسط القرن الثامن الهجري) :

« وحريمهم حريم جميل ، موصـــوف بالســـحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ،خفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا أن الطول يندر فيهن » ثم ينعى على نســـاء عصره بقوله : « وقد بلغن من التفنن فى الزينة فى هذا العهد الى غاية نسأل الله أن يغضي عنهن فيها عين الدهر ، ولا يجعلها من قبيـــل الابتلاء والفتنة ، وأن يعـــامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه بعزمه وقدرته » .

وهذه سمات وصـــفات تـــكاد تتميز بها كلها المرأة الفرناطية اليوم ، وهذا أمر منطقى وطبيعى ، فقد حكم المسلمون هذه الانحاء زهاء ثمانمائة عام ، وتركوا فيها أعمق الآثار من سمات الجنس والعوائد والتقاليد التي يشهدها ويعجب بها كل عربى وكل مسلم يزور هذه الارض ، التى تغمرها الذكريات المجيدة المحزنة معا .

والشعب الاسبانى ، يفضل الحياة السـليمة الهادئة فى ظل نظام يتضمن العمل ولقمة العيش ، وهكذا كانت سمته في ظل نظام فرانكو الدكتاتورى ، الذى استمر زهاء أربعين عاما . وقد كانت الحياة في اسبانيا حتىأواخرالستينيات، رخيصة والرخاء يعم البلاد ، وأذكر أننى أعوام دراســاتى الاولى فى اسبانيا ، فى أواخر الخمسينيات ، كنت اعيش في بنسيون متوسط بما لا يزيد عن مائة بيزيتا فى اليوم ، للنوم والطعام الكامل ، وهو أمر يســتحيل وجوده اليوم . وكانت الفنادق الفخمــة من الدرجة الاولى ، لا تكلفك أكثر من مائة وخمسين أو مائتى بيزيتا للغرفة في اليوم ، وكانت وجبة الطعام تتراوح بين ثلاثين وخمســين بيزيتا . وكان

هذا المستوى الرخيص ، الذى لم يـــكن له أى نظير فى أى بلد أوربى آخر ، يعم سائر المدن الاسبانية ، وكان من أعظم العوامل المشجعة لقدوم السياح الى اسبانيا من سائر أنحـاء العالم • وكانت مدريد وســـائر المدن الأســـبانية تغص باستمرار بأفواج السياح من سائر الامم الاوربية وغيرها • وكان دخل السياحة الذى وصل فى اسبانيا الى ألف مليون دولار فى العام ، هو أهـم أبواب الدخل القــومى • ومن المحقق أن هذا التيار السياحى الهائل قد خبا اليوم الى حد كبير ، لما حدث من التغييرات الســياسية الاسبانية التى أدت أولا الى أقلاق الامن العام بسبب حـــوادث الارهابيين وكثرة الاضرابات ، وأدت ثانيا بما حدث من تخفيض قيمـة البيزيتا وغيره من العوامل ، الى ارتفاع الاســعار الى حدود غير معقولة • وهكذا انتهت الحياة الهـانئة الرخيصة التى لبثت اسبانيا تقـــدمها الى زوارها مدى أعـــوام طويلة ، وأصبحت من حيث مستوى الاسـعار ، لا تقل عن كثير من البـــلاد الاوربية الاخرى • وهذا الى ما تسرب الى أخلاق الشعب الاســـبانى ذاته من تغييرات ذهبت بالـــكثير من صفاته القديمة الطيبة ، فأصبح أكثر ميلا الى الشغب والطمع والاستغلال والغش ، وذهبت الوداعة القـــديمة ، وحلت محلها الخشونة فى المعاملة ، وربمــا كان ذلك من نتـــائج ما حدث من تغيير عميق فى نظم الشعب الاسبانى وأحواله الدستورية ، بعد عهد طويل من الكبت ، فأصـــبح شـعبا حدثا فى الحرية ومزاياها ، ومازال بعيدا عن أن يتجه اليها فى أفضل صورها ، التى تفيد الفرد فى حياته ، وترفع من مستواه المعنوى والاخلاقى •

ولا بأس أن نشير هنا الى نظام غريب وفريد معا من نظم

العصور الوسطى يطبق ليلا في العاصمة الاسبانية وهو قيام خفير الحى El Serreno باغلاق سائر العمارات والاماكن التى في حيه ليلا في الساعة العاشرة أيام الشتاء والحادية عشرة أيام الصيف ولا يستثنى من ذلك سوى المقاهى والمنتديات الليلية • ولا تستطيع أن تدخل العمارة أو المسكن الذى تقيم به بعد الاغلاق الا بواسطة هذا الخفير ، فانك تناديه حيث يوجد في أقرب مقهى أو أى مكان آخر لكى يفتح لك باب العمارة ثم باب البنسيون ان كان بها ، وتتحفه لقاء ذلك بما تيسر • ولا يفتح السرينو الاماكن الا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى • وان أردت الخروج قبل ذلك لعذر ما فعليك أن تدق الباب من الداخل حتى يسمعك السرينو ويفتح لك ، أو تكون قد نظمت الامر معه في المساء عند مقدمك • ويقول أهل مدريد في الدفاع عن هذا النظام انه يساعد فى حفظ الامن واعاقة اللصوص عن ارتكاب جرائمهم •

ولابد لنا أن نقول كلمة عن الصحافة الاسبانية • ان الصحافة تحتل في اسبانيا مكانة مرموقة ، وبالرغم من أنها كانت طوال عهد فرانكومن الاربعينيات الى بداية السبعينيات، عرضة للرقابة والاجراءات الادارية ، فانها مع ذلك كانت وما تزال قوة يحسب حسابها في حياة الشعب الاسبانى • وفى الصحافة الاسبانية ، صحف كبيرة قوية الذيوع مثل صحيفة فان جوارديا Vn Guardla التى تصدر في برشلونة ، وصحيفة ا • ب • ت • التى تصدر في مدريد • وتمثل هذه الصحيفة ، الفكر الارستقراطى والأدب الارستقراطى ، وتصدر في حجم المجلة الكبيرة في نحو ثمانين صفحة • ولها ملاحق أدبية وأسبوعية • وهى

جريدة الصفوة الارستقراطية في اسبانيا • وتصـــدر الى جانبها بمدريد عدة صحف شعبية أخرى مثل جريدة « يا » Ya وأنفورماثيونس Informaziones وجريدة بويبلو Pueblo، وجريدة Arriba التى تمثل بقايا حزب « الفلانكس » وتصدر يوم الاثنين الذى تعطل فيه الصحف بمدريد جريدة واحدة هى جريدة « الاثنين Hoja del Lunes وتصدر فى معظم المدن الكبرى ، مثل قرطبة ، واشبيلية ، ومالقة ، وغرناطة ، وبلباء وشنتاجو ، وليون ، وأوبييد وغيرها صـحف محلية يومية وأسبوعية • وكان للصـــحف الكبرى ، قبل عهد فرانكو الدكتـــاتورى ، دورها الـــكبير فى توجيه الرأى العـــام الاسبانى ، غير أن هذا النفوذ القديم ضعف فى عهد فرانكو الى حدود مؤسفة ، وهو يعود اليـــوم الى أهميته ، بعد أن استعادت الصحافة حريتها ومكانتها القديمة • والصـحافة الاسبانية بالرغم من أنها ليست من حيث القدم كالصحافة الانجليزية أو الفرنسية ، تعتبر من الصحافات الاوربية ذات المكانة الخاصة • وقد كنت طوال أيام وجـــودى بمدريد ، عاكفا على دراساتى الاندلسية ، أفضل دائما قراءة جريدة الـ A . B . C اليومية نظرا لاسلوبها الادبى العالى ، وما تتسم به بحوثها من الجد والترفع عن الصغائر • وكنت أشترك فيها لترسل الى بالقاهرة أيام وجودى فيها • ثم اقتصرت بعد ذلك على الاشتراك فى عددها الاسـبوعى الممتاز الذى يصدر يوم الاحد • ومازال عندى بمنزلى بالقاهرة مجموعة كبيرة • والى جانب هذه الصحف اليومية تصـــــدر فى اسبانيا مجلات أسبوعية وشهرية عديدة فى مختلف المجالات والفنون •

وتأتى بعد ذلك كلمة عن مدريد عاصمة اســبانيا ، ان مدريد من أجمل عواصم أوربا • وفى رأيى أنها أجمـــل من

باريس ذاتها كوحدة تخطيطية منسقة ، تحفـــل بكثير من الصروح والابنية التاريخية الفخمة · أجل ان باريس مدينة عظيمة شاسعة ، بها كثير من الشوارع الفسيحة العظيمة ، والميادين الهائلة · وبها من غير شـــك كثير من الاحيـاء الجميلة الفخمة ، ولكنها فى مجموعها ، لا تحمل ســمات مدريد المتناسقة · فلا أذكر أن بها مثلا شـــارع فى جمال الكستليانا ، وطوله ، وسعته ، وروعته ، وما يحفــل به من الصروح والنوافير التاريخية الســاحرة · ولا تشتـــمل باريس على ما تشـــتمل عليه مدريد من المقـــاهى الجميلة الفخمة فى الجـــران بيا (خوسى انطـــونيو) وغيره من الشوارع العظيمة ، مثل شارعى الكالا وسرانو وغيرهما · ولا يوجد فى باريس مثلا بستان عظيم مثل بستان الرتيرو، الذى يعتبر بحجمه وآثاره التاريخية وبحيراته أعظم وأجمل بستان فى أوربا كلها ، استثناء لبستان هايد بارك العظيم بلندن والشـــعب المدريدى يحب بلده مدريد حبا شديدا ويغار على سمعتهـــا وحسن روائها · وأذكر أيام أقامتى فى مدريد فى أواخر الخمسينيات ، كيف كانت تقطع المياه عن منازل المدينة وكل محالها من الساعة الثالثة الى الخامســة مساء ، وذلك لكى يتمكن رجال البلدية من غسل شوارعهـــا وتنظيفها ، وذلك بالرغم من أزمات المياه يومئذ · ومن ذلك العهد الى يومنا (٧٨) تعمل ســلطات مدريد بكل ما وسعت على تجميل المدينة ، وشق الانفـــاق فى أماكن كثيرة من شوارعها الكبرى لتسهيل المرور وتأمين المشاة ، وشق النفق الكبير تحت شارع الكستليانا وميدان ثبليس العظيم لكى يجرى فيه قطار المترو الآتى من ضاحية الاســـكوريال الى

محطة السكة الحديد الجديدة (شمرتين) وزيادة خطوط مترو مدريد المركزى ، وغير ذلك من المشـــاريع العمرانية الكثيرة ، التي ضـــاعفت من رواء العاصمة الاســـبانية ، وجعلتها الى جانب جمالها الطبيعي ، من أحدث العـــواصم الاوربية خططا .

وأما عن الذخائر الفنية ، فان مدريد تشتـــمل منها على أعظم مجموعة من الصور الفنية فى أوربا كلها يضمها متحف البرادو العظيم وهو يضم ابهـــاء باسرها من مجمـــوعات بلاسكيت وموريليو وجويا ، وغيرهم من العبـــاقرة ، وهو يفوق بلا ريب بضخامته ومحتوياته متحف « الاوفتسى » فى فلورنس وغيره من متاحف الصور الاوربية العظيمة . ولقد سبق أن أشرنا فيما تقدم الى ما وقع فى مدريد واسبانيا من تطور الاحوال الاقتصادية ، واشتداد الغـــلاء بعد الحياة الهنية الرخيصة القديمة . ولكننا نســـتطيع أن نقول مع ذلك ، أن مدريد بالرغم من ارتفاع الاسعار فى وقتنا الحالى ، فانها مازالت بلمسة من الاعتدال ، تدعو الرواد والســـياح الى زيارتها ، والتمتع بجمال الاقامة فيهـــا . واذكر اخرا اننى كنت خلال رحلاتى الدراسية ، أنفق فى مدريد ، وفى نواحي اسبانيا الاخرى ، أوقاتا طويلة تمتد دائما الى شهور عديدة فى كل رحلة ، حتي انه يمـــكن أن تتجـاوز أوقات اقاماتى فى اسبانيا مجتمعة بضعة أعوام كاملة .

ولقد كانت كلها بحمد الله اقامات مثمرة ممتعة رغدة ، حيا الله تلك الايام السعيدة المباركة ، التي أعددت فيهـــا مواد موسوعة الاندلس الكبرى .

القسم الثانى

تاملات عن احداث عهد ((الثورة)) ونظمه

بماذا يمكن أن يجيب المواطن المصرى ، اذا سئل عن نوع الدولة القائم بمصر فى ربع القرن الاخير ــ عهد الثورة ــ ممن يعنيه الامر .

ان الاجابة عن هذا السؤال تتضمن شقين ، الاول نوع الحكم القائم من الناحية السياسية ، والثانى نوع التشكيل الاجتماعى القائم .

فأما عن الشق الاول ، فهو ان مصر ، منذ سنة ١٩٥٤ ، بعد عامين من التريث والدراسة بعد الحدث الخطر الذى وقع فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، تخضع الى حكم دكتاتورية مطلقة ، ولا يمنع من صحة هذا الوصف ما ورد فى دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ من « ان جمهورية مصر العربية دولة نظامها ديمقراطى واشتراكى ، يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة » (المادة الاولى من الدستور)، وانه يوجد بمصر مجلس نيابى ، يقال انه يمثل هذا النظام الديمقراطى ، ففى سائر البلاد التى تخضع لحكم الدكتاتورية ، عسكرية كانت أو مذهبية ، تقوم برلمانات أو مجالس نيابية لكى تغطى هذا الوصف : روسيا السوفييتية ، تركيا ، يوجوسلافيا ، رومانيا ، بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا .. الخ .

ويكفى أن نذكر انه أيام عبد النـاصر ، كان يقوم المجلس النيـــابى باسم « مجلس الامة » وكانت تجرى الانتخابات النيابية ، بيد أنه يجب ان نبادر بالقول بأن هذه الدكتاتورية ، قد تطورت أساليبها واتجاهاتها منـذ سنة ١٩٧٣ على يد ما يسمى « بثورة التصحيح » وان كانت باقية على وضعها من الناحية النظرية والدستورية. ويمكننا أن نقول ان هذه الدكتاتورية ، تقع من الناحية الزمنية تحت عهد الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٤ ـ ١٩٧٠) .

وأما الفترة التالية ، فقد تمخضت بعد صراع عنيف بين مراكز القوى التى خلفهـــا عهد عبد الناصر ، وبين الرئيس السادات ، عما يسمى بالعهد الجديد ، عهـد التصحيح ، وهو العهد الذى اتجه فيه حكم الدكتاتورية، بالرغم من بقائه على أوضاعه النظرية والادارية ، الى نوع من سياسة الاصلاح ، التى تطبعهـــا مسحة من العـــدالة واللين والرفق ، والى بعض الاســـاليب الديمقراطية .

هذا عن الشق الاول ، واما الاجابة عن الشق الثانى ، فهو ان التشكيل الاجتماعى القائم بمصر ، يرتكز وفقا لـا نص عليه الدستور أولا ، فى المادة ٨٧ على « أن أعضاء مجلس الشعب المنتخبين ، وعددهم لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين عضوا ، يجب أن يكون نصفهم على الأقل من العمـــال والفلاحين » ، وما نص عليه ثانيا فى المادة ٢٦ من « أن تمثيل العمال فى مجالس ادارة وحدات القطاع العام يجب أن يكون فى حدود خمسين فى المائة من عدد أعضاء هذه المجالس ، وتعمل الدولة

على أن يكفل القانون لصغار الفلاحين وصغار الحرفيين ثمانين في المائة في عضـــوية مجالس ادارة الجمعيات التعاونية الزراعية والجمعيـــات التعاونية الصناعية (المادة ٢٦ فقرة ثانية) .

ونود أن نشير هنا الى بعض المقدمات الصغيرة التى تشير الى بعض ما كان يجول بخواطر أولئك الضباط ، الذين قدر لهم أن يبسطوا حكمهم على مصر ، ففى خلال الحرب العالمية الثانية ، حينما استطاع الالمان بقيادة روميل ، أن يصلوا فى زحفهم الى مقربة من العلمين كان ثمة بعض أولئك الضباط (ومنهم الملازم أنور السادات حسبما يقص علينا فى كتابه (يحاولون الاتصال بالالمان وبروميل لـكى ينظموا التعاون معهم لتسهيل مهمتهم ، وقد اختاروا لذلك مجاهدا قديما هو المرحوم عزيز باشا المصرى ، وقد حصلوا على طيارة زودوه بها ، ولـكنها سقطت به كما هو معروف ، وتعذر وصوله الى الالمان . وعزيز باشا المصرى ، كما هو معروف مجاهد ومغـامر قديم ، وقد تلقى دراسته العسـكرية بألمانيا وتركيا . وكانت الفكرة الذائعة فى ذلك ، انه بانتصـــار الالمان وهزيمة انجلترا تتحقق لمصر حريتها واستقلالها . وقد كانت هذه فكرة ساذجة ، بل فكرة غبية ، ممن لا يعرفون اتجاهات النازية وهول سلطانهـا . فلو انتصر الالمـان ودخلوا مصر ، لكان فى ذلك عبوديتها المطبقة ، والقضاء على كل مقوماتها . ولكن شاءت العناية الالهية ، أن تنجو مصر من غزو النازية المدمر ، وأن تحصل على حرياتها فيما بعد بوسائل أخرى .

وثمة واقعة أخرى تتصل بهذا الموضوع ، هى زيارة

السيدة لوسي ماريا روميل ، أرملة الفيلد مارشال ايروين روميل لمصر في شهر مايو سنة ١٩٥٤ ، وما لقيت خلال زيارتها من حفاوة بالغة . وقد وصلت الى القاهرة في يوم ١٧ مايو ، وقد سبقها عرض الفيلم الالماني « روميل ثعلب الصحراء » وكان قدومها بدعوة من الشركة التى قامت بتوزيع هذا الفيلم ، وكذلك بدعوة أخرى من رئيس الدولة يومئذ اللواء محمد نجيب حيث أرسل اليهـــا صورته ومعهـــا دعوة الى زيارة مصر ، وقامت فراو روميل بزيارة رئيس الدولة ، ووزير الارشـــاد السيد صلاح سالم ، وزيارة سائر اعضاء مجلس الثورة ، كما زارت محكمة الثورة ، وأبدت اعجابهـــا في تصريحات مختلفة نشرت بجـــريدة الاهرام وغيرها من الصحف والمجلات ، بما شهدته في مصر من النظم والمظاهر . وقام اللواء محمد نجيب وكثير من ضباط القوات المسلحة بمشاهدة فيلم روميل ، الذى وصف بأنه شريط حقيقى لمعارك الحرب الافريقيـــة و « الفيلق الافريقي » حتى (١٩٤١ ــ ١٩٤٣) ، وزارت فراو روميل بعـد ذلك منطقة العلمين ، برفقة مندوب الرحلة المعين لمصاحبتها ، القائمقام محمد عارف قـائد المنطقة الشمالية ووضعت أكاليل الزهر على النصب التذكارى الذى يتوسط قبور ضحايا الحـــرب من الالمان والايطاليين ، كما وضعت أكليلا آخر على قبر زوجهـــا الرمزى . وزارت متحف روميل وبه صورة خطة رسمها روميل للموقعة المرتقبة ، وصرحت أرملته بأنه كان موقنا بالنصر اذا نفذت هـذه الخطة ، ولكنه استبقى في برلين . وكان مما جاء في تصريحاتها قولهـا عن النظام النازى : « لقد جعل النظام

النــازى من الصعب على الانسان أن يؤمن ايمانا صادقا بشىء . ولكنى أثق بمستقبل الانســانية والديمقراطية والحرية » (١) .

وتلقى هذه التفاصيل المتعلقة بزيارة فراو روميل لمصر، وما لقيته خلالها من الحفاوة البالغة ، بعض الاضــواء على هذا العطف الذى كان يبدو من أولئك الضــباط ، الذين غدوا يومئذ أعضاء مجلس الثورة ، نحو النازية ومثلها ووسائلها ، ونحن نستطيع أن نقول ان نظم الحكم التى سار عليها عبد الناصر منذ سنة ١٩٥٤ ، كانت فى جوهرها نظما نازية .

وقد شهدت الاعوام التالية ، فى الواقع ، من حكمه للبلاد طائفة كبيرة من الاعمال والتصرفات والاعتداء على الانفس والاموال والحريات ، وقد دفع القضاء الجنائى فيما بعد ، عهده وحكمه بشدة بما أصدره من الاحكام فى عدة من قضايا التعذيب .

ونحن نقف عند امرين : الاول توقيع الحراسات على مئات من المواطنين الميسورين دون أية سند قــانونى ، ولشبهات عابرة ، أو مصطنعة ، ورفع يدهم غن التصرف فى أموالهم وأملاكهم ، والتضييق عليهم فى معيشتهم الى حدود محزنة مبكية ، وأخيرا بتبديد معظم أموالهم بمختلف الاعذار والوســـائل ، وكل ذلك باسم توقيع

---

(١) جريدة الاهــــرام عددا ١٧ و ١٨ مايو ســـنة ١٩٥٤ . ومجلة المصور عددا ٢٨ مايو و ٤ يونيه سنة ١٩٥٤ ، ويمكننا أن نرجع اثر هذا التصريح الى مالقيه الفلد مارشال روميل من قســوة الزعيم هتلر حينما اتهم بالاشتراك فى المؤامرة التى نظمت ضده فى أواخر الحــرب ، وأرغم روميل على الانتحــار تفاديا لفضيحة المحاكمة والاعدام .

الحراسة على من يسمون أعداء الثورة .

والامر الثاني هو ما وقع في حق القضاء المصرى وذلك باقالة العدد الجم من أقطابه ممن كان سلوكهم القضائي النزيه المستقل يسبب قلقا لذوى السلطان المطلق لانه لا ينضوى وفق اتجاهاتهم وأهوائهم . وقد شملت هذه الضربة التي عرفت فيما بعد بمذبحة القضاء مائة وعشرين من اكابر رجال القضاء ما بين مستشارين ورؤساء محاكم ونيابات ، ومحامين عموميين وغيرهم .

ونحن نكتفى بعد ذلك بأن نقدم هذا العرض الصريح الشامل بخواص حكم « الثورة » في عهد عبد الناصر ، الذى يقدمه لنا السادات في كتابه « البحث عن الذات » . وهو يغنينا عن الاطالة في تقييم ذلك العهد :

« ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلا من أن تبدأ بالثقة ، وتعطى الفرصة الى أن يثبت العكس، بدات بالشك في كل انسان الى ان يثبت العكس : وهو الثقة ، وهو نادرا ما يثبت ، ولذلك في الاربع سنوات الاولى ، وهو حكم مجلس قيادة الثورة ، كانت هناك اخطاء وانتهاكات في حق الانسان المصرى ، ولكنها كانت في دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . ففى سنة ٥٦ ، كان يجب على عهد عبد الناصر أن يواصل الانتصار ، بعد انتصاره في معركة القناة ، بأن يعطى للشعب بعد معركة ١٩٥٦ حرية كاملة . ولكنه لم يفعل ، وكانت النتيجة أن أصبح الانسان المصرى سلبيا ، مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب لانه يعرف في أعماقه جيدا أنه لم يشارك ، ولم يؤخذ رأيه في أمرها ... وعندما كان الشعب يتململ من هذا ،

كان تململه يفسر على أنه ثورة مضادة ، فتقع الحراسات والاعتقالات ، وكل هذا هو التطبيق الفعلى لانتهاك كرامة الانسان » .

« وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الانسان المصرى ، كان هو زرع الخوف ، فبـــدلا من أن نبنى الانسان ، أصبح كل همنا أن نخيفه . والخـــوف هو اخطر ما يهدد كيان الفرد أو الشعب . فلقد كان ارزاق الناس كلها ملكا للحاكم ، ان شاء منح ، وان شاء منع ، وكان المنع مصحوبا فى أغلب الاحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ، ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ اجراءات ضدهم .

وهكذا تحول الناس الى « مساخيط » ، وأصبحوا دمى فى أيدى حكامهم ، يفعلون بهم ما يشاءون . فلم يعد مسموحا للناس بالسفر ، أو أن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم ، والا اعتقلوا او صودروا فى ارزاقهم . ومن هنا ازداد الناس سلبية . فقد أصبح الامان لهم أن يسيروا الى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شىء مما يدور حـــولهم ، وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . من اجل ذلك قلت ، وما زلت اقول « انه بقـــدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى انجازاتها ، فانها كانت ايضا عملاقة فى اخطائها (لكن مع الزمن انتهت الانجازات أو أصبحت أمرا واقعا مجردا من الهالة ، ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة ، تشيع الحقد والخوف بين الناس ، ولكنهم لا يملكون منها فرارا » (١) .

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٨ و ٢٨٩

هذا وقد كان من نكد القدر أن يتجه عبد الناصر منذ عصر مبكر الى محالفة روسيا السوفيتية والارتماء في أحضانها ، كرد فعل لخصومته لامريكا ، لرفضها معاونة مصر في انشاء السد العالى ، وتقدم روسيا الى القيام بتلك المعاونة ، وامدادها لمصر ببيع السلاح اليها . وما ترتب على ذلك من بث روسيا لمثلها الشيوعية ، عبد لناصر والاشتراكية فى نفس عبد الناصر ، وما وقع في نفس الوقت من التقارب بين مصر ويوجوسلافيا الشيوعية ، وتأثير زعيمها الرئيس تيتو فى دفع عبد الناصر الى نفس الاتجاه (١) وان كانت مصر لا تنسى للرئيس تيتو مواقفه الودية العديدة نحو قضاياها . ومن الواضح أنه لم يكن فى برنامج « الثورة » منذ البداية ما يحمل على هذا الاتجاه أو التفكير فيه . وانما بدا هذا الاتجاه بادىء ذى بدء ، على اثر تحالف مصر مع روسيا الشيوعية ، ودفعت الصحافة والاذاعة الى تأييده بطريقة منظمة ، متواصلة ، وأنشىء بمصر ما يسمى « بالاتحاد الاشتراكي » كصورة مصغرة للحزب الشيوعى الروسى . ثم صدرت فى يولية سنة ١٩٦٠ «القوانين الاشتراكية»، وشمل التأميم سائر المنشآت والمشاريع التجارية والصناعية والثقافية (الصحافة ودور النشر) . وكانت حركة خاطفة ، قلبت سائر الاوضاع الاقتصادية الحرة ، وأحكمت الدولة قبضتها على سائر أوجه النشاط الاقتصادى ، وبدأ بمصر ما يسمى « بالاشتراكية أو النظام

---

(١) من الواضح أن المرحوم الاستاذ عبد الله عنان يردد هنا الاقاويل غير العلمية وغير الصحيحة التى كان ومازال يرددها خصوم عبد الناصر « من كتاب الهلال » .

الاشتراكى » واتسع نطاق الدعاية لتأييده ، وصدرت كتب ضخمة عن الاسلام والاشتراكية ، وكثر الحديث عن « اشتراكية الاسلام » ، ونسب الى الاشتراكية عدة اكابر الصحابة ، الى غير ذلك من الاقوال .

ان الاسلام لا يسمح للدولة أن تتدخل فى حرية الفرد الاقتصادية الا فى أضيق الحدود ، وبالقدر اللازم لحماية المجتمع ، وان الاسلام من هذه الناحية أكثر اتفاقا مع النظرية الديمقراطية فى الحرية الاقتصادية .

والاسلام فى نفس الوقت يحارب الاستغلال ، ويعمل على حماية حق الفقير والمعدم فى العول . بيد ان اتجاهات الاسلام فى ذلك هى اتجاهات انسانية قبل كل شىء ، وهى أكثر انسانية من الاشتراكية او غيرها من المذاهب الاقتصادية الحديثة لانها ترعى مقتضيات العدالة فى نفس الوقت ، الى جانب تحقيق غايات التكافل الاجتماعى ، ولا تسمح أن يكون انصاف طبقة أو طائفة مهيضة على حساب الاضرار بحقوق طبقة أو طائفة أخرى ، وهو ما حدث فى تطبيق الاشتراكية « الناصرية » ، حيث منح العمال أجورا وامتيازات كثيرة على حساب الطبقات الميسورة والمتوسطة ، وأضحت أجور العمال الجهلاء تزيد فى معدلها على مرتبات أكابر موظفى الدولة ، ذوى الثقافة العالية (١) .

ثم ان هذه الاشتراكية ذهبت فى التأميم الى حدود بعيدة ، وطبقته على أصغر الوحدات الانتاجية الخاصة . وهذا ما يخالف النظرية الاشتراكية السائدة ، فى أن هذا التوحيد أو التأميم ينصب على وسائل ملكية الانتاج والمرافق العامة كرءوس الاموال والمنشآت الانتاجية

الضخمة والمناجم ، والقوى المحركة والغابات ، ووسائل المواصلات والنقل ، ويعبر الاشتراكيون عن ذلك بقولهم « ماهو ضرورى من الوجهة الاجتماعية ، يجب أن يقع فى الملكية الاجتماعية الاشتراكية » ، أما ما وقع فى مصر تطبيقا للاشتراكية ، فهو أقرب منه الى الماركسية والنظام الشيوعى (١) ومما يدعم هذا الرأى ، ما نص عليه فى الدستور على قيام نوع من الاغلبية المقررة للعمال والفلاحين فى البرلمان وسائر الهيئات النيابية . وهى الماركسية بذاتها التى تنادى بسيادة الكتلة العاملة .

وبعد فماذا كانت آثار هذا النظام « الاشتراكى » ، بعد أن مرت على تطبيقه اكثر من خمسة عشر عاما ؟

كان من تأثير شديد فى تثبيط همم العمال ، والاغداق عليهم دون استحقاق ، وحمايتهم من كل جزاء أو تعريضهم للفصل الادارى ، حتى مع الاهمال وارتكاب الخطأ الجسيم . ومعظم منشآت القطاع العام لا تفى اليوم بانتاج نفقاتها ، ولا اجور عمالها المتكدسين بها دون عمل . وقد فقدت العمالة فى معظمها كل ضمير ، وكل شعور بالواجب والمسئولية ، واصبحت كلا على الدولة وعلى البلاد ، ولا يبدو اليوم أى أمل فى اصلاح هذه الحالة ، أو تغييرها الى حالة افضل لتمسك العمال بها والدفاع عنها ، لانها تهيىء لهم الحياة الرغدة فوق الكفاية ، دون بذل اية جهود صادقة منتجة .

وفوق ذلك ، فقد كان لهذا الرخاء العمالى أثره الواضح

---

(١) ليس فى دساتير الدول الاشتراكية نص على أن يكون للعمال والفلاحين نصف المقاعد فى المجلس النيابى ، وهذا يدل على أن ما حدث فى مصر لم يكن تقليدا لما حدث فى أى بلد آخر .. « كتاب الهلال » .

فى الانفجار السكانى . فقد عمد كثير من العمال الجهلاء الذين اثروا فجأة نتيجة للقوانين العمالية المتحيزة ، والاجور العالية ، الى اتخاذ الزوجات الثوانى والثوالث ، تدفعهم المتعة البهيمية قبل كل شىء ، وأكثروا من الانجاب ، حتى انك لتجد منهم الكثير ممن انجب عشرة أو أكثر من البنين والبنات من زوجين أو أكثر دون شعور بالمسئولية ، أو الاهتمام بمستقبل هذا العدد العديد من الاولاد ، فكان هذا عاملا جديدا ، فى ازدياد السكان زيادة غير طبيعية ، وعاملا فى لانفجار السكانى ، الذى يكاد يخنق البلاد(1) .

ان الامم لا ترتقى ، وتأخذ مكانتها المرموقة ، بسواعد العمال ، ولكنها ترتقى وتحرز مكانتها بين الامم الاخرى بعقول أبنائها المثقفين المفكرين . ويوم تضعف الطبقات المفكرة ، وتفقد عزائمها وهممها ، بفعل الظلم الاجتماعى الذى تعانيه ، فان الامة تنحدر الى طريق السقوط الادبى . والطبقات المثقفة فى مصر ، لم تتعاطف مع « الثورة » قط ، لانها رأت منها ، فوق ما ارتكبته من المظالم الفادحة ، والامور البشعة ، ضغطا على حرية الفكر ، ومطاردة الاحرار والعلماء والكتاب ، وامتهانا لانتاج العقول الراجحة ، والاقلام الحرة الشريفة .

ولسنا بحاجة لان ننوه بما وقع فى عهد « الثورة » من تدهور فى المستوى العلمى والثقافى ، وبالاخص من انهيار

---

(1) مازال الاستاذ عنان مستطردا فى تحامله على العمال ، مرددا الاقاويل والشائعات التى روجها خصوم ثورة ٢٣ يوليو « كتاب الهلال ».

لمستوى التعليم الجامعى ، حتى كاد أن يصبح تعليما مدرسيا خالصا ، فهذه مسألة تقر بها جميع الدوائر ، وما وقع من تطور مؤسف فى المستوى الاخلاقى للشباب المتعلم ، بسبب فتح الجامعات بلا حدود ولا شروط ، ولا اعتبار للبيئة والقيم الاخلاقية . وقد كان جديرا أن تخصص احدى الجامعات على الاقل للطلبة الذين يؤدون المصاريف الجامعية ، ويمتازون بمستواهم العائلى والاخلاقى ، على مثل ماهو واقع فى بعض الدول الاوربية ، مثل انجلترا فى كلية « ايتون » وغيرها .

المغامرات السياسية والعسكرية

كانت بداية المغامرات السياسية والعسكرية ، عقد الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير سنة ١٩٥٨ . وقد وقع هذا الحدث السياسى الخطير دون مقدمات ، ولا تفكير ، ووقع اثر قدوم وفد سورى الى القاهرة ، يتطلب عقد الوحدة بالحاف وشدة ، فكان قبول الرئيس المصرى لهذا المطلب دون بحث ولا دراسة ، ولا التجاء الى اخذ رأى الشعب المصرى . وان كان قد عمل استفتاء شكلى على ذلك بعد وقوعه وابرامه ، وكان من الواضح أن الشعب المصرى لم يكن ميالا الى هذا الاتجاه .

لقد كانت سوريا (الشام) ولاية مصرية ، خلال العصور الوسطى ، مدى ثمانية قرون ، منذ الدولة الطولونية ، حتى الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٧ ، وكانت لاهميتها تعتبر « نيابة للسلطة » ، وكانت مصر ، بالرغم مما كانت تبذله فى سبيل حماية الامة السورية ، ورخائها واسعادها ، تعانى الكثير من الدسائس ونكران الصنيعة ، والمؤامرات

التى تدبر من آن لاخر ضد حكومة السلاطين المصرية .
ومن ثم فقد كانت لدى الشعب المصرى ، دائمـا ، فكرة راسخة عما كان ينطوى عليه ذلك من عدم الولاء . وحتى العصر الاخير ، ايام الحكم التركى ، كان السوريون لا يرون فى مصر ، الا ملجأ يقصدونه تحقيقا للكسب والامان ، وقد كان واجبا ان يتدبر عبد الناصر واعوانه هـذه السمات والسوابق فى شعب ، لا يقصد من اية حركة سياسية أو اجتماعية ، الا تحقيق المغانم المادية .

ولكن عبد الناصر لم يكن يقف فى طموحه الى زعامة العروبة والامم العربية عند اية وسيلة وكان يظن ان الوحدة بين مصر وسوريا هى فاتحة هـذه الزعامة . وقد ملقه القوتلى رئيس سوريا يومئذ فى خطابه الذى القاه من شرفة رياسة الوزارة بالقاهرة ، حيث تمنى له أن يكون صلاح الدين العصر ، فى تحقيق الوحدة بين سوريا ومصر ، وهو ملق زائف بجانب حقائق التاريخ ، لان مافعله صلاح الدين يومئذ لم يكن تحقيق اية وحدة بين مصر وسوريا ، ولكنه كان اعادة سوريا ، الولاية المصرية الفاطمية الى أمهـا مصر ، التى كان سلطانها يشمل يومئذ فلسطين (الرملة) ، وسوريا (الشام) وولاية حماه وما فى جنوبها (لبنان) .
ولم يك ثمة يومئذ مايسمى بالعروبة أو الوحدة العربية ، مما يوجه حركات صلاح الدين وانما كان ثمة جبهة اسلامية موحدة ضد الجبهة الصليبية .

وقد كانت هذه الاعوام الاربعة ، التى استمرت فيهـا هذه الوحدة الاندماجية ، والتى اشترك فيها السوريون والمصريون فى تبادل الوظائف الكبرى والسفارات وغيرها ، بين الدولتين ، من أشد ما آلم نفوس كثير من المصريين ذوى

الكرامة والاباء . وأقسم انني خلال رحلاتي المتعددة الى أوربا خلال هذه الفترة ، لم أدخل قط سفارة مصرية كان يتولاها سوري مهما كان الداعي الى ذلك ، وقد كان هذا بالاخص موقفي من سفارة مدريد ، التي كانت تربطني بها مصالح واتصالات كثيرة ، تتعلق بدراساتي في أسبانيا .

ولقد بذلت مصر خلال هذه الفترة ، جهودا واموالا طائلة لمعاونة سوريا وانعاشها ، وبعثت أسطولها الى المياه السورية ، ردا على تحرك القوات التركية . ثم انتهت هذه المغامرة بكارثة ، وتم الانفصال ، والحمد لله ، في سبتمبر سنة ١٩٦١ ، بطرق مهينة لمصر وأبنائها ، وأدرك عبد الناصر ، مبلغ تصرفه في عقد مثل هذه الوحدة مع أمة لم تتعود على الشعور بالولاء وشكران الصنيعة (١) .

ولن ننسى أن نسجل هنا تلك الجريمة الشائنة التي ارتكبت في حق مصر الخالدة ، وذلك بأن قرر بهذه المناسبة ، وأد اسمها التاريخي العزيز الخالد على كر القرون ، وسميت « بالجمهورية العربية المتحدة » . وقد كان لذلك آلم وقع في نفوس أبنائها البررة . وكنا نرفض طول الوقت هذه التسمية المفروضة ، ولا نسجل في اية أوراق رسمية تقدم لنا في الخارج سوى اسم مصر العزيز .

وكانت المغامرة الثانية في سنة ١٩٦٢ ، وهي مغامرة حرب اليمن ، التي لم تعلم بها البلاد الا بعد مسير القوات المصرية اليها بأيام . وقد فسر لنا الرئيس السادات باعثها

---

(١) من العجيب ان يكون هذا هو راى مؤرخ عربى كبير بكى على الاندلس ، ثم هو في كلماته هنا يتهم سوريا بانها لم تتعود الشعور بالولاء وشكران الصنيعة الخ ... « كتاب الهلال » .

الاصلى وهو مهاجمة هذا القطر الملاصق لحدود المملكة السعودية الجنوبية الغربية ، للقضاء على حكومة الامام الرجعية البشعة ، وتهديد جناح السعودية بذلك ، لانها هى التى قامت بتمويل عملية انفصال سوريا من الوحدة . ومهما كانت بواعث هذه الحرب ، التى استطالت زهاء خمسة أعوام ، والتى انقلبت غير بعيد ، وفقا لقول الرئيس السادات الى سوق تجارية ، فقد كان واضحا ، أنه لم تكن لمصر فيها أية مصلحة قومية حقيقية ، تستدعى بذل مئات الملايين من الاموال ، والتضحية بأرواح آلاف مؤلفة من الشباب المصرى ، ولم تجن منها مصر اية نتيجة أو منفعة ايجابية مادية أو أدبية .

النكبة الكبرى

فى ظهر يوم ١٧ مايو سنة ١٩٦٧ ، كنت جالسا بمقهى الميوزيوم بمدينة فيينا ، اطالع الصحف النمسوية ، واذا بى أقرأ من أخبار مصر ، أن القوات المسلحة المصرية ، تتقدم فى قلب سيناء ، فانزعجت لهذا الخبر ، ولم أفهم سر هذا التحرك العسكرى ، وبادرت بالعودة الى القاهرة، فوصلت اليها فى العشرين من مايو .

والفت الرأى العام بمصر متوترا ، والمواطنين فى حيرة ، لا يدركون من الامر شيئا واضحا ، وينتظرون وقوع الصدام العاجل بين مصر واسرائيل ، وكان الشائع يومئذ ان تحرك مصر كان لانجاد سوريا ، التى حشدت اسرائيل قوات ضخمة على حدودها ، وهددت باحتلال دمشق .

ونحن نكتفى هنا بأن ننقل تعليق الرئيس السادات على

تصرفات عبد الناصر : « وقد وضع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع ، فى حين كان السوفييت لا يكفون عن التنبيه ، بأن توقيت الاحداث أسرع مما يجب . ولكن عبد الناصر كان مصرا على اندفاعه ، وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفى الذى عقده على مستوى عالمى ، وكان قمة فى التحدى والعنف »(١) .

ووقعت النكبة يوم الاثنين الخامس من يونية ، وبدأت اسرائيل بضرب سلاح الطيران المصرى ، ودمرت سائر طائراته فى سائر المطارات ، وهى جاثمة على الارض ، وفقدت مصر فى لحظة جناحها الدفاعى الاول . واصدرت القيادة العامة ، وكانت يومئذ بيد عبد الحكيم عامر ، امرها بانسحاب الجيش . ووقع الارتباك والتناقض المذهل فى تنفيذ أمر الانسحاب . وكانت نكبة حقيقية مروعة ، نزلت بجيشنا الضخم الباسل ، دون قتال ولا استحقاق ، وكان ضحية مؤلمة لقيادة عاجزة ، وارتدت فلوله فى مناظر مثيرة مبكية ، تاركا للعدو سائر عتاده ومعداته ، التى تقدر بمئات الملايين . ولم تمض أيام حتى احتل اليهود سائر سيناء ، ووصلوا الى ضفة القنال الشرقية ، ولم يكن أمامهم للمقاومة ، جندى مصرى واحد .

وكانت جماهير المواطنين أثناء ذلك كله ، فى منتهى الحيرة واليأس ، وكان بعضهم يتساءل فى سذاجة ، لماذا لم نتقدم لاحتلال تل أبيب .

ثم يقص علينا موقف الجماهير الساذجة ، التى اجتمعت حشودا كثيفة ، فى شوارع القاهرة تطالب باستمرار زعامة عبد الناصر فى الرياسة ، وهو أمر لا يكاد يصدق ، ولا

---

(١) البحث عن الذات ، ص ٢٢٥

يمكن أن يحدث من جماهير امة واعية مستنيرة ، لها راى وعزيمة ، وقد كان المفروض أن يقع العكس تماما ، وهو أن تطالب الامة بمحاكمة المسئولين عن وقوع هذه النكبة الفامرة المروعة ، وانزال العقاب الصارم العادل بهم .

على أن الرئيس السادات يقدم الينا أبلغ وأصدق وصف لموقف عبد الناصر ، وحالته النفسية بعد النكبة فيقول : « ومن يعرف عبد الناصر ، لابد أن يدرك انه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ ، بل مات يوم ٥ يونية سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . هكذا كان يبدو ، بل وظل يبدو لفترة طويلة ... الميت الحى .. صفرة الموت تغطى وجهه ويديه ، رغم انه كان يسير ويتحرك ، وينصت ويتكلم »(١) .

***

هذا ، وقد شـــاء ربك أن ينتصف الجيش المصرى لكرامته ، وأن يمحى آثار الهزيمة الظالمة الذى انزلت به ، وذلك فى حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ والسادس من اكتوبر ١٩٧٣ م ، وهى التى وضع خطتها الموفقة الرئيس انور السادات ، فقام بعبوره الخاطف لقناة السويس ، وتدميره لخط بارليف الذى زعم اليهود مناعته ، وهزيمته للقوات الاسرائيلية البرية والجوية فى عدة معارك طاحنة ، وتوغله داخل سيناء الى مسافة كبيرة ، وقضائه بذلك على اسطورة المنعة التى كانت تزعمها اسرائيل عن جيشـها الذى لا يقهر . ولم ينقذها من الهزيمة الساحقة الا تدخل

---

(١) البحث عن الذات ص ٢٣٣ .

الدولتين العظيمتين امريكا وروسيا ، وصدور قرار وقف اطلاق النار ، وقد كان لانتصار مصر فى حرب أكتوبر أعظم صدى فى العالم كله ، وفى العالم العربى بوجه خاص ، حيث شعرت سائر الامم العربية ، انها قد استردت كرامتها وثقتها بنفسها . وقد محت حرب أكتوبر بالاخص آثار الجريمة العظمى التى ارتكبت فى يونية سنة ١٩٦٧ ، دون ترو ولا درس ولا تمحيص ، وأسدلت مدى أعوام ستارا مؤلما على كرامة الامة ، وسمعتها ، واعتزازها بجيشها .

***

والان فان الشعب المصرى ، بعد هذا الكفاح المرير ، والنصر المحقق ، يحق له أن يجنى ثمار كفاحه ، ونتائج نصره ، وأن يخرج من هذه الغمار القاتمة التى احاطت بحياته أعواما طويلة ، وأن يتاح له أن يرفع عن كتفه هذا الكابوس ، الذى يثقل كاهله ، خلال هذا العهد الطويل ، الذى تراكمت فيه الازمات ، والذى أخفقت فيه السلطة القائمة فى أن تعالج مشاكله المريرة المؤلمة ، ان الشعب المصرى يحيى اليوم حياة تعسة فى سائر المجالات ، ما فى ذلك من شك ، وقد أصبح شعبا لا هم له الا تحصيل لقمة العيش بشق الانفس ، ينفق فى سبيلها كل وقته ، ويمضى ساعات وساعات فى طوابير الجمعيات التعاونية ، والمخابز ، لكى يحصل على اتفه مطالب العيش ووسائل الحياة الاليمة الذى لا يستطيع تغييرها ، أو يحاول الوصول الى عمله ثم الى بيته بوسائل المواصلات التعسة التى لا معدى له عن ركوبها . وقد نسى خلال هذا الشقاء الذى طال به العهد ، أن يفكر فى شىء آخر من متاع

الرفاهية والمثل المعنوية أو العقليـــة . اذ كيف ومتى يستطيع ان يقوم بمثل هذا التفكير ، وهو يشغل بهموم العيش النكد الذى يلازم حياته ليل نهار . انا نرجو ونحن نستقبل هذا العهد أن يلقى شعبنا مصيرا أفضل ، وعناية اوفر لمعالجة مشاكله وتخفيف ويلاته ، وتحسين وسائل عيشه ، فى التموين ، وفى الاسكان وفى المواصلات والغلاء ، وغيرها ، ما تراكمت مصائبه خلال أعوام طويلة لم يظفر فيها من حكامه باية محاولة ، أو جهد منقذ ، أو علاج ناجع . وانا لندعو الله أخيرا ان يمد حكامنا وولاة الامر فينا ، بعونه وتوجيهه لكي يحاولوا اخيرا . وبعد هــذا الجهد الطويل ، أن يعملوا شيئا لمعالجة مشاكل الشعب المتراكمة ، وان يساعدوه على الخروج من هــذه المحن الغامرة التي يتردى فيها ، والله يحقق هــذه الامال المعقودة ، انه هو القوى المعين(١) .

اوضاع الحياة السياسية والاجتماعية قبل سنة ١٩٥٢

انهم يقولون الآن لجيل الشباب الناشىء ، المسكين الحائر ، اننا نجوز فى ظل العهد الجديد ، عصرا أفضل ، وحياة أفضل ، وان عهــد ما قبل « الثورة » كان عهد اقطاع ، يتحكم فيه الاقطاع وأصحاب الاموال فى مصاير الناس ، ويحتكرون السلطان والاموال والمنافع ، وانه كان عهدا مليئا بالفساد والفوضى ، وان البـــلاد كانت تحت سيطرة الانجليز من ناحية ، وســيطرة القصر والاحزاب من ناحية أخرى . اما اليوم فان الشعب يحيا فى ظل الحرية « والديمقراطية » ، وتكافؤ الفرص ، وقد زالت عنه ســيطرة الانجليز ، وسيطرة القصر ،

---

(١) كتب المرحوم عبد الله عنان هذا الفصل سنة ١٩٧٩ .

وسيطرة راس المال والاقطـــــاع ، وتحققت العـدالة الاجتماعية ، الى غير ذلك من الاقوال ، والشـــعارات الخلابة ، التى تطالعنا بها صحافة هذا العهد ، ويرددها اصحاب السلطان فى خطبهم واقوالهم كل يوم .

هذا هو ملخص الصورة القاتمة التى يصمون بها عهد ما قبل « الثورة » والصورة البراقة التى يحاولون أن يسموا بها العهد الجديد ، عهد « الثورة » .

ونود « نحن وقد عشنا في العهدين ، وبلونا ما أقسم به كل منهما من الصفات والخواص ، أن نقول أولا ، أن الاوضاع السياسية قبل سنة ١٩٥٢ ، كانت فعلا تتجاذبها مختلف التيارات ، وانه كان عهدا يتميز بالصراع المستمر بين الوطنية المصرية والســيطرة الانجليزية . هذه هي الناحية الاولى . وان السلطة لم تــكن بالفعل خالصة للمصريين ، وان الحكومات المصرية المختلفة ، كانت تعانى من ضغط المحتل احيانا ، ومن ضغط القصر احيانا أخرى . ولكنا نود أن نقول الى جانب ذلك ، ان حكم الاحزاب ــ وقد كان يتجاذب النفوذ السياسى يومئذ حزبان اصليان ، أولهما حزب الوفد المصرى ، وهو حزب الاغلبية الشعبية ، وحزب الاحرار الدستوريين (وهو حزب الاقلية الارستقراطية الفكرية والراسمالية الزراعية . ثم انشطر حزب الوفد فيما بعد الى ثلاث شعب متنافسة متخاصمة ــ نقول ان حكم الاحزاب كان يتسم فى هذا العهد بمقدرة فى الحكم ، ومعالجة الازمات القومية ، وان الحياة البرلمانية فى هذا العهــد ، بالرغم مما كان يشوبها من الصراع الحــــزبى كانت حياة ديمقراطية صحيحة ، وانهـــا كانت من حيث مستوى التكوين

والكفاية ، أرقى بكثير مما تشهده اليوم فى الحيـــاة البرلمانية . أجل كان ثمة نواب وشيوخ من طراز ممتاز ، لا نرى لهم اليوم أحدا من النظائر ، وان الحـــريات الدستورية والديمقراطية ، كانت أمرا قائمـــا بالفعل ، وكانت مكفولة بالقوانين وأحكام القضاء ، وانه لم يقع فى هذا العهد شىء من ضروب الاســـتعباد المطبق للشعب المصرى .

ثم يقولون ، ان حكم الاحزاب فيما قبل « الثورة » كان مشوبا بالفساد والفوضى . ونحن نقول أجل ، كان ثمة فساد يشوب حكم الاحزاب . ولكن ما يشوب الحكم فى عهد « الثورة » من الفساد والفوضى ، يزيد أضعافا مضاعفة عما وقع من قبل . ويكفى أن الرشوة أصبحت فى عهد الحكم الحالى تقليدا ثابتـــا ، لا يمكن أن تقضى بدونها فى الادارات الحكومية المختلفة ، أى حق أو مصلحة لاى مواطن . هذا الى ما يقع بين يوم وآخر من الاختلاسات الهائلة لاموال الدولة . والحرائق المستمرة المتعمدة لاخفاء السرقات والاختلاسات .

ثم يكفى الى جانب ذلك ما ظهر من العجز عن معالجة اية مشكلة من المشاكل القومية ، أمثال مشاكل الاسكان والمواصلات والتموين والهجرة الريفية وغيرها ، وهى مشاكل تتفـاقم كل يوم مع مرور الزمن ، ولا تحـاول الحكومة أن تبذل أية محاولة ناجعة لمعالجتها .

وأما عن الغاء الاقطاع وتحقيق العدالة الاجتماعية ، فيكفى أن نقول انه ما كان ثمة ، ولا سيادة رأسمالية ؛ وانما كان ثمة بيوت كبيرة ، وعصبيات عائلية ، تحتكم على مساحات كبيرة من الاراضى ، بحكم الزمن والتوازن ،

ونظام المجتمع المصرى منذ عصور ، وكان يمكن أن تعالج هذه الحالة ، بتحديد الملكيات الـكبيرة على مستوى معقول ، وليس بروح الانتقام . وليس من العـدالة الاجتماعية فى شيء ، ان يحصل كثير من العمال في ظل النظام الحالي ، في مختلف منشآت القطاع العام المؤممة باسم وظائف المديرين لكذا وكذا ، على مرتبات تفـوق مرتبات رؤساء محـاكم الاستئناف العليا ، ورؤساء سائر المحاكم الابتدائية واساتذة الجامعات ذوى الكراسي، وأن يحصل صغار العمال الذين يقومون بأعمال تافهة مثل النظافة وغيرها ، على اجور تفـوق مرتبات خريجى الجامعات في الدرجات الخامسة والرابعة . ليس هذا من العدالة الاجتماعية أو تكافؤ الفرص فى شيء ، وانما هو تجاوز مقصود ، واخلال بنظام المجتمع الامثل ، ومثل للكفايات المحترمة ، والقوى المعنـوية ، وهدم لمجتمع الاخلاق والفضائل . وسوف نعـود الى مناقشة ذلك فى مكان آخر .

هذا ولا ريب أن الضربة التى انزلها النظام الحاضر بالقطاع الخاص ، وتاميم سائر منشآته ودوائر نشاطه مهما صغرت ، كانت تصرفا يتسم بالخطأ الفادح ، وقصر النظر ، اذ عـدمت معه سـائر الهمم الخاصة والقرائح المنتجة . واليوم تحاول الدولة عبثا أن تعيد اليه روح النشاط القديم ، بعد أن عدمت لديه الثقة والطمانينة ، وخصوصا لما تصر عليه الحكومة من التسوية فى تطبيق المزايا المرهقة فى الاجور والاجازات والتامينات وغيرها على عمال القطاع الخاص ، وقد كانت اهم مزايا القطاع الخاص ، هو حرية التعامل والتفاهم بين صاحب العمل

وعماله ، وكان هذا التفاهم الحر هو دعامة الانتاج الناجح، الذى يختفى اليوم تحت وطأة التدخل الحكومى . ومن ثم فاننـــا لا نلحظ ميلا من رءوس الاموال الخاصـــة الى توظيف نشاطها من جديد فى المشاريع الخاصة ، حتى لا تعانى ما يعانيه القطاع العام من الفوضى والانهيار المادى والمعنوى .

القاهرة تحتضر وشعبها يتردى فى الحضيض

كنت كلما عدت من رحلة من رحلاتى الدراسية ، بعد أشهر من التجوال والدرس ، الى مدينة القـاهرة ، يطالعنى ما تجوزه المدينة العظيمة من التغيير ، والعفاء ، الذى يخيم تدريجيا على معاهـدها ومرافقها ، وصـور الحياة بها . بيد انى لم أكن أتصور ، انها سوف تتردى مع مرور الوقت الى هذا الحضيض الذى تتردى فيه اليوم ، بعد ربع قرن من عهد الثورة » .

نحن الآن فى سـنة ١٩٧٩ ، وقـد طرأ على مدينة القاهرة خلال هذا الربع من القرن الذى عشناه فى ظل هذا العهد الجديد ، انقلاب عظيم ، استحالت فيه من مدينة مشرقة ، الى مدينة قاتمة بائسة ، أقل ما توصف به أنها مدينة تحتضر ، وقد خفقت أعلام الخراب فى سائر جنباتها ومرافقها ، وساد البؤس والوجوم على أهلها ، وأضحت أحياؤها وطرقها ومنتدياتها ومتاجرها، تقدم الينا مناظر رثة تنطوى على مأساة من أفظع ماشهدته فى تاريخها الطويل الحافل .

وهذا التحول الاليم المحزن ، الذى طرأ على مدينة

القاهرة ، يذكرنا نحن الذين عشنا فى هذه القـــاهرة العظيمة ، قبل العهد الحاضر ، بما كانت عليه عاصمة مصر ، وعاصمة الاســـلام والعروبة الـكبرى قبل سنة ١٩٥٢ . كانت القاهرة يومئذ مدينة فخمة ، تتخللها الشوارع والطرق العامرة ، النظيفة اللامعــة ، وتغص بالمنتديات الانيقة ، من مقاهي وفنادق ومطاعم ، ومن المتاجر الضخمة الفنية ، التى تزدان واجهاتهــا المليئة بمختلف السلع والازياء المختـــارة . ولم يك ثمة شك فى أنه كان للنشاط الاجنبى ، وراس المال الاجنبى ، دوره فى تجميل القـــاهرة ، وتزويدها بكثير من المنتديات والمنشآت الاجتماعية الفاخرة ، من المطـــاعم والمقاهى والفنادق والنوادى . ولكن حدث فى بداية هذا العهـــد الجديد ، عهد « الثورة » ، ان وقعت مطاردة الاجانب ، وراس المال الأجنبى ، بعنف وبصفة عامة ، وبلا تمييز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، فقضى على كثير من المنشآت الاجتماعية والاقتصادية النـــافعة ، ولم نستطع نحن أن نقوم بانشاء نظائرها ، لاننا لم نكن قد مارسناها ، بل ولم نمارس حتى اليوم صـــناعة هذه المنشآت وادارتها . ويكفى أنك اليوم لا تجد فى القاهرة كلها ، مقهى أو مطعما أنيقا ، تستطيع أن تجتمع فيه مع ضيف أو صديق سوى منتديات الفنادق الكبرى الملحقة بها ، وهى باهظة التكاليف . ولا يوجد بالقاهرة اليوم سوى المقاهي والمطـــاعم الشعبية . والمتاجر السوقية الرديئة الفثة ، ومما يدعو الى السخرية والرثاء ان سائر الملابس القطنية المصرية الفـــاخرة ، تحجب عن البيع للمصريين ، وتصدر كلها الى الخـــارج استجلابا للعملة

الصعبة ، ويضن بها على المصريين مثل كثير من الفواكه والاصناف الفـــاخرة ، التى أصبحت اليوم عزيزة على المصريين .

بيد أنه يجب احقاقا للحق ، أن نقول ان مطاردة عهد الثورة لاوضاع الاجانب لم يكن كله شرا . أجل كانت ثمة نواح مثمرة عديدة من النشاط الاجنبى ، ولا سيما فى الميدان الاقتصادى ، طوردت وقضى عليها باسم التأميم او غيره ، دون درس ولا تمييز ، وما زلنا حتى اليوم نلمس الاضرار التى أصابت الاقتصــاد المصرى بسبب هذه السياسة التى قضت على سائر نواحى التعـــاون المثمرة والشريفة من النشاط الاجنبى ، الذى نسعى اليوم الى اجتذابه بكل الوسائل ، دون اســتجابته الينا . بيد أنه كانت ثمة نواح أخرى من النشــــاط الاجنبى لا يمكن السكوت عليهــا ، ولا سيما من بعض العناصر ، التى استغلت سياسة التسلح المصرية أشنع استغلال . وان أحوال هذا الفريق من الاجانب ومجتمعهم قبل « الثورة » ، ليستحق كلمة من رجل وقف على هذه الاحوال فى القاهرة والاقاليم قبل عهد الثورة يربى على نصف مليون . وكانت الجــالية اليونانية هى أكبر الجاليات الاجنبية ، واكثرها انتشارا فى طول البلاد وعرضها ، وكان أولئك « الاروام » فضلا عن انتشارهم فى القاهرة والاسكندرية ، يتغلغلون بالاخص فى الاقاليم . وقد عشت ، حسبما ذكرت فيمــا تقدم ، أوقاتا فى ميت غمر والمنصورة ، وهما من ازهر الحواضر ، التى كان يحتشد فيها الاروام ، سواء فى الحواضر أو فى القرى . وقد كانت معظم القرى يحتلهـــا دائما محل

« بقالة » يملكه رومى ، ويعـــــرف لدى أهل القرية « بالخمارة » لانه كان دائمـــا يحتوى على المشروبات الروحية الرخيصة ، التى يدمنهـــا بعض السفلة من الاهالى . وكانوا فى مراكز المديرية ــ مديرية الدقهلية ــ مثل ميت غمر وأجا والسنبلاوين ــ يحتـــكرون انشاء معظم المقاهى ، والمطـاعم والفنادق والبقالات ، وبعض المهن والحرف ، هذا عدا بندر المنصورة ، التى كانت لهم فيها جالية كبيرة مزدهرة ». وكانوا يزاولون مهنة الطب، فى وقت كانت فيه معظم المراكز خالية من الاطبـــاء المصريين . وانا أتحــــدث هنا من الناحية الزمنية من العشرينيات . وقد كانت بميت غمر التى كنت أزاول فيها مهنتى ــ المحاماة ــ فى بداية حياتى العملية ، جالية رومية قوية ، تحتل نواحى الحركة التجارية من مختلف المتاجر ، ولا سيما المقـــاهى والمطاعم والفنادق . وكان معظم سماسرة القطن فى معظم انحـاء البنادر والمراكز والقرى من اليونانيين وكان كثير من هؤلاء يشـــتغل بالاقراض بالربا الفاحش ، ويملك الـــكثير منهم أملاكا عقارية كبيرة من العمارات والمنازل والضـياع . وكان من النادر أن تخلو قرية من وجود متجر رومى ، أو رومى محترف أو رومية تشتغل بالحياكة ، وكانوا على العموم يؤلفون وحدة استعمارية قوية فى الريف المصرى ، اذ كان معظم البنادر والمراكز ، يحتل فيها الاروام مثل هذه المكانة فى الاعمال التجارية والمهنية .

وأما فى القاهرة فقد كان نشاط الاروام يشغل الكثير من جوانب الحركة التجارة والمهنية ، وبالاخص جوانب الحركة الاجتماعية من انشاء المقاهى والبارات والمطاعم

والفنادق ومحال الحلوى ، ويملكون كثيرا من العمارات الكبيرة ومختلف المنشآت العقارية . هذا الى احتكار تجارة البقالة العالية فى مختلف انحاء العاصمة والاشتغال بكثير من المهن والحرف ، كالطب والمحاماة ، ومحال الترزية ، والمحال الكهربائية والميكانيكية ، وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر . وقد استمر هذا النشاط الذى كان يزاوله الاروام بمختلف انحاء القطر المصرى زمنا طويلا ، وكان من أزهر الانشطة الاجنبية فى البلاد . بيد أنه لم يكن أرقاها ولا انظفها ، وقد كان ممعنا فى الاستغلال ، وتخير مختلف وسائل الكسب ، ومنها وسائل كثيرة غير محترمة ولا شريفة ، ومع ذلك فقد كان ثمة كثير من أبواب هذا النشاط التجارية والاجتماعية المشكورة ، والتى كانت تساعد فى تزيين العاصمة ، وتزويدها بمختلف المنشآت والمحال العمرانية ، ولا سيما المقاهى والمطاعم والفنادق والبقالات ، ومحال الحلوى الراقية . وقد استمرت هذه الحالة حتى بداية عهد الثورة . ثم كانت حركة مطاردة الاجانب ، والقضاء على مختلف انشطتهم ومشاريعهم الاستغلالية . وانه لمن الحق أن نقول ان هذه الحركة كانت ضرورية للقضاء على كثير من أبواب هذا الاستعمار الاجنبى لمرافق البلاد ، ولكن من الحق أيضا أن نقول انها قضت كذلك على أبواب من هذا النشاط وجهوده الاجتماعية الطيبة ، التى كانت تزدان بها العاصمة ، وتساعد فى تنظيم حياتها الاجتماعية ، وفى ترويج الحركة السياحية باقامة المنشآت والمنتديات الجذابة ، ومن ثم فقد قضت مطاردة الاجانب ، على كثير من الخير والشر معا ، ولم تقع فى ذلك دراسة

ولا تمييز بين ما يجب أن يكون وما لا يكون .

***

هذا ، وبالرغم انه لم تكن بالقاهرة يومئذ من وسائل المواصلات ، سوى الترام والتاكسى ، والعربة الحنتور ، وقليل من خطوط الاوتوبيس ، فقد كان التجوال بها سهلا مريحا ، ولم تكن العين تقع على مثل تلك المناظر المزرية، التى تبدو اليوم فى كل جانب من جنباتها . أجل لم تكن القاهرة يومئذ قد ازدحمت بهذه الملايين العديدة ، التى تشقى بها اليوم ، ولم يكن سكانها يزيدون على مليونين أو مليونين ونصف . ولكن المسئولية ، فى هـذه الزيادة المروعة فى سكان المدينة العظيمـة ، لا ترجع فقط الى النمو السكانى المعتاد ، ولكنها ترجع بالاخص الى سوء التخطيط ، والى انشاء المصانع المرتجلة فى مشارفها ، وفى داخلها ، والى الهجرة الريفية الزاخرة ، التى ترك خبلها على القارب ، حتى تجاوزت الملايين من أهل الوجه البحرى والصعيد ، ولم توضع لها حتى اليوم أية قواعد أو حدود . ثم ان هذه الفوضى الشاملة فى حياة المدينة العظيمة ، ترجع من جهة أخرى الى العجز الشائن فى تنظيم مرافقهـا ، وتزويدها بالخدمات العامة ، على مستوى يناسب هذه الزيادة الضخمة فى عدد سكانها . وانه لمن المؤلم ان نقول ان ما نراه اليوم فى عاصمة الاسلام والعروبة الكبرى من ضروب الخـراب فى شوارعها وطرقاتها وافاريزها ، وما نتعثر فيه من الحجارة والاتربة فى أهم وأرقى شوارعها . وما نراه فى كل جنباتها من المناظر المهينة المزرية فى حالة المواصـلات والتموين ، واحتشاد الصفوف الطويلة المحتاجة الجائعة على أبواب

الجمعيات التعاونية ، وعلى المخابز والاسواق ، لا يرى الآن في اي بلد من بلدان العالم المتمدن ، وان ما يشعر به الان كل مصري من مرير الحاجة ، والفقر ، والعجز عن استيفاء مطالب العيش الضرورية ، ومشقات الحياة المجردة ، مما لم يقع ولم يسمع به منذ احقاب طويلة . اضف الى ذلك أزمة الاسكان الفظيعة ، التى ترتبت قبل كل شيء على سلسلة عشواء من القوانين التى اتخذت ضد ملاك العقارات ، وضد تقدير الايجارات العادلة للأبنية المنشأة ، ومحاربة رأس المال المشروع ، وتبثيط الهمم في توظيف الاموال في أنشاء العقارات والمساكن . كل ذلك ادى الى تفاقم ضروب البؤس والخراب بين سكان المدينة العظيمة . يزاد على ذلك كله ما وقع من تفاقم الغـــلاء الذى لم تحاول السلطات ان تتخذ في شأنه اية اجراءات ناجعة .

وقد سبق أن اشرنا من قبل الى مسئولية النظام ، في وقوع هذا الانفجـــار السكانى المروع الذى تئن منه البلاد ، وتئن منه القاهرة الكبرى بنوع خاص ، اذ يبلغ سكانها اليوم نحو عشرة ملايين من الانفس ، وهو مستوى لا تبلغه في العالم سوى نحو عشر مدن . ولقد أوضحنا أن ما اتجه اليه النظام من نزع أملاك الافندية وصغار الملاك الزراعيين باسم الاصلاح الزراعى ، وتسليم أطيانهم بطريق التأجير المؤبد الى الفـــلاحين ، ونزع ملكيتهم الحقيقية بذلك وجعلهم ملاك رقبة فقط ، وتقاضيهم الايجارات التافهة مما لا يبلغ خمس ما تنتجه اراضيهم بينما يتقاضى الفلاح الزراع الباقى ، وما اتجه اليه النظام الحاضر كذلك من الاغداق في الاجور على عمال منشآت

القطاع العام بصورة غير معقولة ، وما ترتب على ذلك من اتجاه كثير من جهلاء الفلاحين والعمال الى تعدد الزوجات ـ أشرنا الى انه كان لذلك أسوأ الاثر في وقوع الانفجار السكاني ، الذى يكاد يقضي على أية جهود تبذل لتحقيق الاصلاح او الرخاء .

ولقد احتفلنا في سنة ١٩٦٩ بعيد القـــاهرة الالفي وأشدنا ، وأشاد زملاؤنا العلماء الاجانب المدعوين الى هذا الاحتفال الدولي العظيم ـ اشدنا وأشادوا بماضي القاهرة الزاهر ، وتاريخها وكنوزها الاثرية العظيمة ، ولم تكن القاهرة قد انحدرت الى هــــذا المنحدر المؤسي ، الذى انحدرت اليه اليوم ، وكنا نؤمل أن يكون هذا الاحتفال التاريخي العظيم نذير انتفاضة من ذوى الســـلطان ، وبداية جهود من الاصلاح وتدارك المدينة المتحضرة ، وبها بقية من الارماق ، ولكن الذى حدث ، مع شديد الاسف ، هو أن تيار العفاء والخراب ، مايزال يزحف على المدينة الكبرى ، أمام نظر السلطات وتحت سمعها ، والله وحده يعلم الى متى ينتهي هذا الانهيار المادي والمعنوى ، الذى تعانيه المدينة التعسة ويعانيه شعبها البائس المحطم .

***

هذا ، واذا شئت اشارة الى حالة المعيشة ومســتوى الاسعار ، في هذه القاهرة العامرة المشرقة ، قاهرة ما قبل العهد الحالى بقليل ، فانك تسمع ما يدهشك ويذهلك ، لقد كان ثمـــة رخاء حيققى بالرغم من كل الازمات الاقتصادية العادية . وكانت المكاسب والمرتبات والاجور الصغيرة تكفى للعيش المرضى الممتع . واولاً فقد كانت أجور المساكن المحترمة تختلف من ثلاثة الى عشرة جنيهات

(لشقق من ثلاث الى خمس غرف) . وكانت المساكن الخالية توجد فى كل حى ، وعلى كل مستوى . ولافتات الايجار تراها معلقة فى كل شارع وكل زقاق . وكانت تكفى جولة قصيرة لكى تعثر بالمسكن المطلوب والايجار الموافق ، ولم يكن يسمع عندئذ عن خلو أو غيره من فضائح الاسكان ومآسيه فى العصر الذى نعيش فيه اليوم . وكانت نفقات المعيشة فى غاية الاعتدال . فاللحم الذى نشترى منه الكيلو اليوم بجنيهين(١) كان الرطل (نحو نصف الكيلو) الضأن منه يساوى ١٢ قرشا ، والعجالى ثمانية قروش (وهذا حتى سنة ١٩٥٢) . وكان زوج الدجاج البلدى الحى لا يتجاوز خمسة عشر قرشا ، وزوج الحمام ثلاثة الى خمسة قروش ، والبيضة بنصف قرش والاقة (نحو كيلو وربع) من السمك تتراوح بين سبعة وخمسة عشر قرشا ، والزبد بخمسة قروش الرطل ، واللبن بستة مليمات الرطل . وكانت الفواكه فى متناول كل انسان ، العنب والتين ، الاقة بثلاثة قروش ، والبلح الرملى الاصلى بخمسة قروش ، والزغلول بخمسة أو ستة قروش والموز بستة قروش ، والبرتقال كل خمسة الى ثمانية بقرش حسب الحجم ، والبطيخ الصلحاوى من أربعة الى عشرة قروش حسب الحجم . وكانت الخضروات تباع بأسعار مدهشة ، لا تتجاوز قرشا لرطل أو عدد من الارطال ، الطماطم ، الخيار ، الفول الاخضر ... الخ ، وثلاثة الى اربعة قروش لاقة من الاصناف الممتازة (البطاطس ، اللوبيا ، البسلة ، والبقول ، لا تتجاوز نصف قرش :

---

(١) كان هذا سعر اللحم سنة ١٩٧٩ .

الخس الجرجير وأمثالها . وقد كانت هذه الاسعار هي الغالبة في الاربعينيات ، وفي أيام الحرب العالمية الثانية ، حتى قبيل عهد « الثورة » بقليل . فأين هـذا الرخاء المدهش ، المشبع للبطون ، الدانية قطوفه من مقدرة كل مواطن ، مهما كان كسبه ، مما انتهينا اليه اليوم ، بعد ربع قرن من عهد « الثورة » ، مما لا يطيقه الا أصحاب الدخول العالية ، ومما تئن منه أصحاب الدخول المتوسطة والدنيا ، ومما لم تحاول ، او تنجح السلطات المعنية ، ان تتخذ فى شأنه أى اجراء ناجح ، يخفف من ضغطه وويلاته المرهقة . ثم الى أين ينتهى بنا هذا التيار المروع الجارف ؟ اللهم انا نلتجىء الى غوثك وواسع رحمتك . فارحمنا يارب العالمين .

الاصلاح الزراعى وتحديد الملكية

كان في مقدمة أعمـال الحكومة الجديدة بعد يوليو ١٩٥٢ ، اصدار قانونين ، أساسيين ، لعبا أكبر دور فى تغيير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، هما قانون تحديد الملكية الزراعية ، وقانون الاصلاح الزراعى .

فأما قانون تحديد الملكية ، بحد أقصى للفرد الواحد ، قدره مائتا فدان ، فلم يثر يومئذ كبير صدى ، الا فى بعض الدوائر القليلة التى تأثرت بتطبيقه بطريق مباشر .

والواقع أن فكرة تحديد الملكية الزراعية ، كانت قائمة وذائعة بالفعل قبل سنة ١٩٥٢ ، وقد نوقشت غير مرة فى برلمانات هذا الوقت ، وعرضت فى شأنها بعض المشاريع ، ولكن لم يتح لها حظ من التنفيذ .

بل لقد طالب كبار الملاك أنفسهم فى أوائل عهـد

« الثورة » بتحديد الملكية فى مذكرة رسمية كتبوها بذلك ، ورفعوها الى ممثل السلطة الثورية يومئذ اللواء محمد نجيب ، والى رئيس الوزارة على ماهر باشا ، وطالبوا فيها بتحديد الملكيـــات الكبيرة بألف فدان ، وبينوا أن التحديد الضيق يقضى على الزراعات الكبيرة ويؤدى الى خفض الانتاج .

بيد أن هذا القانون الاول لتحديد الملكية ، عدل فيما بعد ذلك ببضعة أعوام ، وكان موضع اخذ ورد ، وموضع خلافات ومتناقضات متوالية ، وانتهى الامر بأن انقص حد الملكية من مائتى فدان الى مائة فدان للفرد الواحد ، سواء من البالغين أو القصر المشمولين بالوصاية فى العائلة الواحدة . وقد أحدث هذا التغيير مرحلة جديدة من الاضطرابات فى أوضاع الملكية ، وأوضـــاع العائلات المالكة . وكان كارثة بالنسبة لكثير من الافراد والعائلات . علما بأن هذه المرحلة الجديدة من مصادرة الاملاك الزراعية لتحديد الملكية ، كانت تجرى دون تعويض للملاك ، حسبما وقع فى البداية من اعطاء سندات على الخزينة مقـــابل الاملاك المصادرة .

اجل ، كانت ثمة تجمعات كبيرة من الاراضى ، لدى بعض العائلات الكبيرة ، وكانت ثمة عائلات تملك زمامات قرى بأسرها ، وكان من المعقول أن يوضـــع حد لهذا التجمع وهذا الاحتكار . فجاء قانون تحديد الملكيـــة ، ليقضى على هـــذا الاحتكار وليقضى فى نفس الوقت على العائلات والعصبيات الكبيرة التالدة . لكن تبين فيمـــا بعد ، انه قد ترتبت على تطبيق القانون على هـــذا النحو أيضا ، آثار مخـــربة لم تكن فى حســـبان المتشرعين ، فقد

عجز واضعو اليد الجدد عن فلح هذه الاراضى الخصبة ، الواسعة ، وقصرت مواردهم وجهودهم عن تعهـــدها وخدمتها ، ولحق بها الجدب والخراب . أما تلك التفاتيش والمساحات الواسعة العديدة ، التى كانت تديرها السلطات المختصة ، والتى كانت قبل نزع ملكيتها جنات خضراء منتجة ، فقد عرضت لنهب المختلســـين من المكلفين بالاشراف عليها ، واجدبت ، واضحت عاجزة عن الوفاء بنفقاتها . وهكذا اجدبت وخربت اراضى ومســـاحات شاسعة من الرقعة الزراعية المخصبة المنتجة ، وكان ذلك نتيجة مباشرة لتحديد الملكية على النحو الفاشـم الذى تم تطبيقه .

أما قانون الاصلاح الزراعى ، فقد كان المفروض انه وضع لخدمة الفلاح الذى يزرع الارض ، ومعـــاونته وحمايته من تعسف بعض الملاك الذين كانوا يتفننون فى استغلاله وهضم حقوقه ، وقد جرت الحكومة فى البداية على تقرير تجديد الايجار لواضعى اليد كل ســـنة ، ثم ثلاث سنوات ، ثم جعلت وضع يد المستأجر بعد ذلك اجباريا ومستمرا مؤبدا ، وحيل بين المالك وبين استرداد ارضه مهما كانت الاتفاقات المعقودة ، وبعبارة أخرى أصبح الامر الواقع أن ارض المالك ، قد نزعت منه بصـــورة نهائية ، واضحى مالكا للرقبة ، لا يحق له سوى تقاضى الايجار الذى حدده القانون بسبعة أمثال ضريبة الاطيان المؤجرة ، وذلك وفقا لتقدير سنة ١٩٤٩ . وقد كانت هذه ضربة لكثير من العائلات المالكة التى كانت قبل تؤجـــر أرضها بأضعاف هذه القيمة ، لان ضريبة الاطيان لم تكن لتعبر مطلقا عن حقيقة معدن الأرض وقيمتها الايجارية .

والانكى من ذلك أنه لما تجدد تقدير ضريبة الاطيان فى سنة ١٩٥٩ ، وزيد منسوب الضريبة ، وأمل الملاك أن يتقاضوا ايجارا متحسنا نوعا ، أعلن أن قلم قضايا الاصلاح الزراعي افتى بأن منسوب الايجار يجب أن يستمر وفقا للضريبة القديمة ، والمستأجر يدفع فقط للمالك فرق الضريبة ، وهو مما يخالف القانون نفسه . ولكن الحكومة كانت تجرى على محاباة الفلاح واضع اليد بكل الوسائل ، وكانت تسمح له بالاقتراض على محصول الاطيان دون اذن المالك ، وكان الفلاح بهذه الطريقة يجنى ايرادا من الفدان الواحد ، اربعة أو خمسة أمثال مايدفعه من الايجار . وكانت الحكومة ، شعورا من الدوائر بهذا الغبن الفظيع الواقع على المالك ، قد أصدرت بعد الاصلاح ببضعة أعوام قانون التجنيب الذى يبيح للمالك ان يسترد نصف الزمام المؤجر من تحت يد المستأجر ، ويترك له النصف الثانى . ولكن ما كاد يمضى على صدوره ثلاثة أشهر ، وقبل ان يفيق الملاك الى تنظيم مصالحهم ، حتى سحبته الحكومة بحجة انه استعمال للضغط على المستأجرين . وهكذا أيقن المستأجر أن الحكومة فى صفه على طول الخط ، وأنه اصبح هو المالك الحقيقى للارض ، وما عليه الا ان يؤدى الايجار التافه الذى تحدده فئة الضريبة ، أجل صدر منذ بضعة اعوام قانون بزيادة ايجار الفدان الى عشرة أمثال الضريبة . ولكنها كانت زيادة تافهة لا تجبر الغبن الكبير الواقع على ملاك الاراضى ، ولم يكن ذلك الا علاجا مسكنا .

ماذا كانت النتيجة ؟ لقد ترتب على هذه الاوضاع ، وعلى نزع ملكية الاطيان من مالكيها ، ووضعها بطريق التأبيد تحت يد المستأجر ، أن تضاعفت مكاسب الزارع

من الارض ، وأصبح قادرا على أن يشترى أطيانا جديدة.
بل واكثر من ذلك ، اصبح يساوم المالك الذى يرغب فى
استرداد أرضه أو جزء منها ، مساومة الشريك المالك ،
ويطالب بخلو يبلغ نحو نصف ثمن الارض المرغوب
استردادها ، وأصبح اليوم هذا السعر حقيقة قائمه
راسخة ، يؤديه كل مالك ، يريد لضرورة ما ان يسترد
ارضه أو جزءا منها . وقد اضطر كاتب هذه السطور نفسه
أن يخضع لهذا الوضع المجحف ، وأن يدفع هذا الخلو
الباهظ حينما باع ضيعته الصغيرة ، وأصر المشترى على
استلام الاطيان خالية من المستأجرين ليزرعها بنفسه .

***

ماذا كان تأثير هذا فى أوضاع القرية وتشكيلها
الاجتماعى ؟ لقد أصاب الخلل هيكل القرية الاجتماعى ،
فخيم الفقر والعوز على كثير من العائلات التى بليت بتأجير
اراضيها قسرا ، وفقا لقانون « الاصلاح » ، وكانت قبل
تعتبر من العائلات المستورة ، وبرزت عائلات أخرى من
الفلاحين ، الذين اثروا على حساب الملاك القدامى ،
وتسرب البغض الى نفوس الطائفتين ، الطائفة القديمة
ذات الحسب القديم ، والطائفة المحدثة المعارية عن
الحسب ، والمستأثرة بوضع اليد ، واستغلال الارض ،
ونهب المكاسب . فالبغض يسود اليوم بين الطائفتين فى
القرية ، وقد زالت آثار المودة القديمة بين الطرفين .
ولا يكاد أحد من الملاك القدامى الذين سلبت أراضيهم ،
يفتح بابه ، لأحد من الفلاحين المتكسبين ، الا من دعت
الحاجة الى خدمة أو معونة . ولقد كانت القرية من قبل
نموذجا جميلا للتآخى والمودة ، لا فرق بين كبير أو صغير ،

أو غني أو فقير . وكانت دور (دواوير) الخير تنشىء بكثير من القرى على يد الميسورين من أبنائها ، وتفتح لعابر السبيل وكل معوز تطأ قدمه أرض القرية . وقد شهدت الكثير من ذلك فى شبابى ، ولا سيما بقريتى التى ولدت بها (بشلا) ، فقد كان بها دوار عظيم للخيرات أنشأه آل وحش ، كبراء أعيان القرية ، وأقفوا عليه قدرا كبيرا من الاطيان ، وكان يقصده أبناء القرية ، وكل قادم اليها ، ليجد الطعام ، والاكرام والمأوى . وشهدت مثل ذلك فى قرى كثيرة أخرى . أما اليوم وقد جنى قانون تحديد الملكية وقرينه قانون الاصلاح الزراعى ، على مقدرة الخيرين ، فقد اختفت معظم آثار الخير ، وأغلقت دوره ، التى كانت تعتز بها الاسر الكبيرة الميسورة ، وغاضت آثار التعاطف والتعاون والجود ، التى كانت تسودها من قبل .

هذا ، وفوق ذلك كله ، فانه لا يخفى حسبما أشرنا اليه من قبل ، ما كان لذلك الاغداق المتعمد على الفلاحين، واثرائهم بما نهب لجانبهم من أموال وأراضى الافندية وكبار الملاك ، باسم الاصلاح الزراعى لا يخفى ما كان لذلك من أثر بارز فى عملية الانفجار السكانى . فنحن نعرف أنه من العوايد الذائعة بين كثير من طبقات الفلاحين ، انه متى توفرت لديه المكاسب ، وان أول مايفكر فيه الزواج من ثانية وثالثة ... الخ . وقد زادت نسبة الزيجات زيادة هائلة ، بين كثير من هذه الطبقات ، التى أثرت حديثا ، فتزوجوا مثنى وثلاث ورباع ، وكثر النسل بينهم كثرة هائلة ، وكان لذلك أثره الواضح فى ازدياد السكان ، والانفجار السكانى المدمر .

الوقت الضائع

وبهذه المناسبة ، فلا بأس من أن أروى قصة وقتى الضائع ، فى حوزة الاملاك الزراعية والاشراف عليها . ففى سنة ١٩٤٠ ، حينما كانت أثمان الاراضى الزراعية رخيصة مشجعة اشتريت من بنك الاراضى بالاسكندرية ، عزبة صغيرة مساحتها أربعة وثلاثون فدانا ، وتقع بزمام شبارة الميمونة ، مركز ميت غمر ، بجوار قرية أبى نجاح التى ولدت بها أمى . وفرحت يومئذ باقتناء هذه الارض ، اذ كانت تساورنى أمنية قديمة فى أن أعوض ما فقده والداى من أرضهما الزراعية المملوكة لهما بسبب ضغط الظروف الاقتصادية ، وللانفاق على تعليمى . وكنت أحب الاشجار، ولا سيما أشجار التوت المورقة ، وأشجار الجازورينا المستقيمة الباسقة . وكانت الحرب العالمية الثانية تضطرم يومئذ ، وقد وضعت الحكومة نظما عديدة لتوزيع الاسمدة والبذور على الملاك ، وتوريد الملاك للقمح والقطن ومحاصيل اخرى ، ولم اكن يومئذ قد بدات بالاضطلاع بدراساتى الاندلسية العميقة ، وكان لدى فسحة من الوقت ، فكنت اسافر كل اسبوع الى عزبتى الجديدة ، واقضى بها يومى الخميس والجمعة ، واصطحب بعض أولادى معى ، وكانوا يومئذ صغارا اكبرهم ولدى الدكتور محمود، وقد كان يومئذ فى الثامنة من عمره . وشغفت يومئذ برعاية مصالح الارض ، وكان الايجار يومئذ زهيدا ،

لا يتجاوز اثنى عشر جنيه للفدان ، ولكنه كان مجزيا لرخص الاسعار الى حدود مدهشة . فكنـا نشترى رطل الزبد بثلاثة قروش ، والبيض كل ثلاثة بقرش ، والعسل النحل بخمسة قروش للرطل ، واللحم كذلك بخمسة أو ستة قروش للرطل ، وهلم جرا . وكنا كل أسبوع نحمل معنا من خيرات القرية ما تيسر الى منزلنا بالقاهرة . وشغفت مدى حين بعمليات اصلاح الارض ، وزراعة أشجار الجازورينا بها ، وخدمة المستأجرين ، ومساعدتهم على تحقيق مطالبهم وحل مشـاكلهم ، وتزويدهم بالسماد بأسعاره الرسمية وغير ذلك ، ثم صرت بالتدريج انفق أوقاتا أوسع بالعزبة ، واقضى بها فى بعض الاحيان الاجازات الكبيرة . كل ذلك وانا لا أشعر بقيمة هذا الوقت الضائع فى هـذه التفاهات ، وما كنت اتكبده من المتاعب فى زيارتها وادارتها ، وما كنت اقاسيه من لؤم المكلفين بالاشراف عليها وحراستها ومن خبثهم وجشعهم وخياناتهم ، وهى صفات شعرت انها من خصائص الفلاح الصغير ، كما شعرت أن هذا الفلاح الصغير ، لا يكاد يشعر قط بأى شكر للصـنيعة ، أو تقدير للجميل . فعندئذ قررت بيع العزبة ، وبعتهـا بالفعل . ولكن فكرت فى نفس الوقت ، فى أن اشترى عزبة أخرى تكون أقرب بالقاهرة ، ولا تكلفنى مشقات السفر الطويل . ووقعت بعد طول البحث الى شراء عزبة صغيرة جميلة بزمام بلدة قها ، تقع تجاه محطة السكة الحديدية ، وبها منزل جميل انيق به الماء والكهرباء ، وحديقة موالح . ومساحتها الكلية ٢٣ فدانا . منهـا ثلاثة افدنة مستقلة بها المنزل وحديقة صغيرة متنوعة . وكان ذلك فى سنة ١٩٤٨ . واستمرت هذه العزبة فى

حوزتى زهاء عشرين عاما ، ولعبت دورا كبيرا فى الترويح عن عائلتى واولادى ، وقد كبروا ، وهم محمود وسعاد وحسين ، وكانوا يقضون بها مع والدتهم أياما كثيرة ، ويدعون أصدقاءهم وزملاءهم لقضاء بعض الوقت معهم فى التريض او المذاكرة .

وكانت حديقة الموالح قديمة ، وقد شاخت وجف معظم اشجارها ، ولم تكن تحمل الينا ايرادا مجزيا ، فقررت قلعها ، وقمت بتأجير ارضها مع باقى أرض العزبة ، وكان الايجار مجزيا يومئذ ، وقد يصل احيانا الى نحو الاربعين جنيها للفدان ثم صدر قانون الاصلاح الزراعى ، واخذ ضغطه يشتد على الملاك تباعا ، وكانت الارض مؤجرة عند صدوره ، وكنت اقضى معظم الوقت فى الخارج فى دراستى الاندلسية . واستمر الامر على ذلك ، وايراد العزبة يتناقص تباعا ، ومتاعبها تزيد ، والنهب الذى يسبغه الاصلاح الزراعى على المستأجرين من بخس الايجار ، وتأييد وضع اليد ، يزيد فى جشعهم ، وسوء معاملتهم . ولم يكن ايجار الفدان وفقا للقانون يزيد عن اربعة وعشرين جنيها ، يخصم منهـــا المال والدفاع . ثم كان هناك الخفير الوغد اللص ، الذى يحميه وامثاله قانون العمل ، وسرقاته المستمرة للاشجار وفواكه الحديقة ، وســكناه مع زوجته واولاده ، ثم صهره زوج ابنته فى المبانى الملحقة داخل الحديقة ، حتى صارت كالمستعمرة لهم . وكنت ازور العزبة كل يوم جمعة ثم لما توالت أسفارى الى الخارج ، كانت العزبة تترك معظم الوقت للخفير اللص واسرته . وتزورها السيدة حرمى او ولدى حسين فى فرص قلائل . ولم

يك ثمة حد لخيانات الخفير وسرقاته للاشجار وفروعها الكبيرة ، وقد كانت كثيرة داخل الحديقة ، وعلى طول الاطيان . ثم امتدت سرقاته الى عروش المبانى ، وعروق الاسقف التى تضاعفت اثمانها ، وسرقاته المنظمة لاعواد البامبو الجميلة كل اسبوع ، وعندئذ اضطررت بعد ما قاسيته من ضغط قانون النهب الزراعى ، واحكامه الغاشمة ، أن أفكر فى بيع العزبة ، آسفا أشد الاسف على ما أضعته فى شئونها من نفيس الوقت ، وما قاسيته من المتاعب والخسائر . ولم يكن بيعها يومئذ سهلا ، لان الارض كانت تحت يد المســــــتأجرين . ولما جاء المشترى ، وابدى رغبته فى الشراء ، واشترط ان يستلم الارض خالية حرة ، دون المستأجرين ، فاضطررت أن ادفع لهم مقابل الخلو ، نحو نصف الثمن عن كل فدان . وتكبدت فى ذلك عدة آلاف من الجنيهات خسارة من أصل الثمن . وتقاضيت الثمن البخيس ، وقاسيت ما أقاسيه فى اخراج الخفير اللص نزولا على شرط المشترى . وهكذا احتملت مظالم قانون النهب الزراعى كاملة شاملة . ولم يكن أسفى على خسارة المال ، بقدر ما كان على الوقت الضــائع ، والظلم الفادح ، الذى أوقعه التشريع على صغار الملاك من طبقتى ، واعتبارهم من الاقطاعيين . وقد خرجت من هذه المحنة ، وفى قلبى من البغض للارض وملكيتها ، اضعاف ما كان يحبونى نحوها من المحبـــة والسحر . والحمد لله على كل حال .

جيل الثورة

لا يمكن لمتحدث عن عهد « الثورة » أن يغفل الكلام عن ذلك الجيل الذى نشأ فى أحضان هذا العهد ، وعن ظروفه وأحـــواله ، فهو ذلك الجيـــل المتدهور الحائر ، الذى فقد الكثير من فضائل الاجيال السابقة ، ومن فضائل بلاده المأثورة ، ونشأ فى ظلال دعوات وتعاليم ومبادىء وشعارات وعوائد لم تألفها الاجيال السابقة ، وكانت تعتبر الكثير منها خارجة عن نطاق المبـــادىء والخلال القومية السليمة ، انه ذلك الجيل الذى فتحت له أبواب التعليم حرة دون قيود ولا تكاليف عملا بمبدأ تكافؤ الفرص والمساواة المطلقة ، ذلك الجيل الخليط من مختلف البيئات والطوائف ، ومنهم أبناء وبنات الكناس والخفير والفسالة الى جانب أبناء وبنات البيوتات العريقة والطبقات الوسطى ذات الاصول العائلية والتقـــاليد والاخلاق المحترمة(١) هؤلاء جميعا يهرعون الى الجامعات والمعاهد المفتحة الابواب على مصاريعها ، وترتب على ذلك ان اصبح التعليم سلعة رخيصة ، يحوزها الشباب فى كل ضرب وفن دون أية كفايات محترمة أو صـــفات محمودة أو جهود جادة . وشجعت الدولة هـــذا الغزو بما جرت عليه من تعيين خريجى الجامعات والمعـــاهد

---

(١) هذه هى كلمات الاستاذ عنان ننشرها حفاظا على اصـــل مذكراته وان كنا لانقره على هـــذه الكلمات « كتاب الهلال » .

ومختلف دور التعليم فى وظائف الحكومة ، وبعثتهم اكداسا مكدسة الى مختلف المصالح الحكومية دون مراعاة لمطالب العمل ولا مصلحته ، حتى ان المئات والالاف منهم لا يؤدون أى عمل فى المصالح التى بعثوا اليها ، بل لا يجدون بها مقعداً يجلسون عليه . وتنحصر علاقة هذا الموظف الملقى به القاء فى قبض المرتب الحكومى دون أداء اية خدمات جادة ، حتى أصبحت دواوين الحكومة تعج بهذا الغزو الوظيفى ، وتزيد أعباء الدولة باستمرار دون الحصول على اية نتائج عملية من الجانب الاخر . هذا من جانب الشباب المتعلم . وأما الشق الاخر من الشباب فهو يملأ منشآت القطاع العام ، ولا يتسم بأى قدر مشكور من الجد والاخلاص فى العمل ، بل بالعكس يتسم بالكسل وضآلة الانتاج والتحرر من كل حماسة . ومن الضمير اليقظ والشعور بالمسئولية ، أو اخلاص للعمل ، ومن ثم كانت منشآت القطاع العام معظمها عبء على ميزانية تلك المنشآت ، حتى ان معظمها يخرج دائما بخسائر ، ولا ينعم بأية ارباح سنوية . ويرجع قدر كبير من المسئولية ، فى ذلك الى قوانين العمل القائمة وما تتسم به من المنح الغامرة للعمال وتحريرهم من كل مسئولية ، وحمايتهم من الفصل الادارى مهما كانت الاخطاء ، والمسئولية ، ومنحهم من الحقوق والاجازات ما لا يعهد به فى أى قانون أوربى للعمالة ، وقد وضعت هذه القوانين المانحة المانعة فى ظروف سياسية معينة ، ولاغراض ترتبت على هذه الظروف ، ولم تجرأ بعد أية حكومة على تغييرها ، وأية محاولة للاصلاح والتعديل يجاوبها العمال بالعنف والهتاف « نحن نحافظ بالمكاسب الاشتراكية » وما اليها .

هذا المزيج من الشـــــباب المتعلم ذوى الاخلاط الاجتماعية المتباينة ، ومن عمالة القطاع العام غير الجادة وغير المنتجة ، الى جانب بقية الطـــوائف الاخرى من أصحاب مختلف المهن والحرف : هــذا المزيج هو قوام الجيل الذى نشأ فى عهد « الثورة » ، وهو الجيل الذى يحمل على اكتافه مستقبل مصر ، وهو جيل لا يتصف مع شديد الاسف بالصفات المطمئنة التى يحتاجهـــا الحفاظ على مصاير البلاد ، وتغلب عليه السطحية فى معظم صفاته ، وتنقصه أولا المزايا الاخلاقية التى يجب أن تتصف بها الاجيال المنتجة العاملة ، وينقصه تحرى الاهداف القومية الجـــادة ، وهو جيل حائر لا يتعرف طرقه ، قليل الكفايات ، معدوم النبوغ ، كل همه فى الحياة أن يعيش بأفضل ما يمكنه ، دون الالتفاف الى اية أهداف عامة أو غايات قومية تقتضى التضحية ، او التعاون القومى . ويمكن أن أقول ، وقد شاركت الحياة الى اليوم مع أجيال ثلاثة ، أن جيلنا الحاضر ، هو أضعف هذه الاجيال التى شـــهدتها ، وأقلهـــا فى المزايا والفضائل .

وأما عن الحركة الفكرية ، فانه من المجمع عليه انهـا تتسم لدى جيلنا الحاضر بمنتهى الضعف ، وانعـدام النبوغ ، وما زالت بقيايا الحركة الادبية ما قبل الثورة ، وقوامها « بقية قليلة من الشيوخ ، هى التى تشرف انتاج مصر الثقافى ، ولم يتميز جيل « الثورة » بأى نبوغ أو انتاج ثقافى ممتاز ، ولم تكسف الحركة الثقافية من جيل الشباب أى جديد تعتز به . هذا كله الى ما صاحب هذا الكساد الفـــكرى والادبى ، من انهيار مستوى التعليم

الجامعي الى حدود يرثى لهـا ، حتى غدا تعليما مدرسيا آليا ، لا يمتاز بسمات البحوث العلمية الجامعية الممتازة، ولا بالانتاج العلمي الرصين .

ولا شك ان المسئولية الاولى في ذلك التدهور الفكرى، ترجع الى « النظـــام » نفسـه ، حيث لجأ الى سلطان التوجيه ، وحاول اخضاع الحركة الفكرية والادبية لهذا التوجيه بكل الوسائل ، ومنها انشـــاء الهيئات العلمية والادبية تحت أسماء مختلفة ، وقوامها لجان العمل تحت سلطان هذا التوجيه بشكل واضح ، فهى لسان النظـام القائم ، والمعربة عن رغباته وغاياته ، والمعتـــــذرة عن سقطاته ، واخطائه . ونحن نعرف أن الحركات الفكرية الادبية لا يمكن بطبيعتها أن تزدهر الا فى الاجواء الحرة الطليقة ، البعيدة عن كل ايحاء ومؤثر ، وانه لا يمكنها مطلقا أن تتفتح وتزدهر فى ظل الآفاق الموجهة الواقعة تحت سلطان النظام القائم ، أيا كان هذا النظام .

المشاكل الصعبة

لقد نشأت خلال عهد « الثورة » طائفة من الازمات والمشكلات الصعبة التى جعلت من حياة المواطن المصرى شقاء مستمرا ، وهي مشكلات لا تخف وطأتها ، بل تزداد على مر الايام خطورة وتعقيـــــدا . وقد طال أمد هذه المشكلات دون أن تتعرض لهـا الحكومة بأية محاولات جدية للعلاج أو الحل ، وتركتها تتفاقم سنة بعد اخرى والشعب يتخبط في معركتها ، وقد يئس من العمل على حلها . وأهم هذه المشكلات هى مشكلات الاســـكان ،

والمواصلات ، والهجرة ، ثم الغلاء المتصاعد ، الى جانب طائفة أخرى من مشـــكلات أقل أهمية ، وقد تركت الحكومات المتعـــاقبة أمر هذه المشكلات تتفاقم وصراخ الشعب المكدود يتضاعف من حولها ، حتى بدأت اخيرا ، وبعد انتهاء الحرب الطويلة ، التى تخوضها مصر منـذ أعوام ، قد بدأت الحـكومة بعلاج اخطر هـذه المشاكل واكثرها حدة ومساسا بحياة الفـرد ، الا وهى مشكلة الاسكان . وقد كانت الحكومة تحاول يائسة أن تتعرض لها من آن لآخر باتخاذ بعض الاجـراءات الثانوية كالعمـل على توفير مواد البناء واعفاء الملاك من رسوم العوايد على المبانى الجديدة لمدة معينة ، وتشجيع الحركات التعاونية وأمثال ذلك . ولكن هذه الاجراءات لم تجد شيئا فى كسر حدة الازمة ، التى لبثت تتفاقم حتى خلو الشقق المؤجرة الى الاف مؤلفة ، هذا فضـــلا عن مضـــاعفة ايجارها . وتركت الحكومة ملاك العمارات الجديدة يجرون على بيع الشقق لا تأجيرها ، ولم تحاول أن تصدر فى ذلك قانونا مانعا أو معدلا ، وتركت الحكومة كذلك سائر الحرفيين من عمال البناء يهاجرون الى البـــلاد المختلفة للعمل فيها ، ولم يبق سوى القليل منهم حتى وصل اجر عامل البناء الى ثمانية وعشرة جنيهات فى اليوم الواحد. وتحاول الحكومة أن تصل بالتفاوض مع عدة من الدول الاوربية الى حملها على أن تشترك فى مساعدة مصر على حل هذه الازمة باصدارها قروضا طويلة الاجل تخصص لمشاريع البناء ، وقد استطاعت بالفعل أن تقنع عددا من الدول الاوربية الصديقة أن تشارك فى هذه المحاولة ، والمقدر أن تنفيذ هذه الخطة التعاونية يقتضى على الاقل خمس سنوات ينشىء فيهـــــا عدد كبير من المساكن

الجديدة ، التى تسنـــاعد على حل أزمة الاسكان . ولم تفطن الحكومة خلال هذا الاتجاه الى المعاونة الخارجية ، الى الناحية الداخلية من الازمة ، والى متابعة الاسباب المحلية فى تفاقمها . وفى رأينا ان معالجة المشكلة من الناحية الداخلية هو أجدى من تلك المعاونة البعيدة المدى . وذلك أن أسباب أزمة الاسكان ترجع من الناحية الداخلية أولا الى عدم ملاءمة التشريع القائم الخـاص بهذه المسألة ، أعنى قانون الايجار والمساكن وترجع بنوع أخص الى ما سلكته الحكومة منذ البداية من سياسة مطاردة رأس المال الخاص ، ووضع القيود على حرية التأجير ، مما زهد رأس المال الخاص فى المشاركة فى أعمال البناء ضنا بما يترتب على ذلك من التعرض لمفاجآت الحكومة ، من تخيفض الايجارات فجأة ودون مبرر ، ووضع القيود المســتمرة على حرية تصرفات المالك .
ونحن نعرف أن سياسة الحـكومة تجاه استثمار رأس المال الخاص والمشاريع الخاصة ، كان من أسباب احجامه أولا عن وضع ثقته فى الحكومة واتجـــاهاتها ، وثانيا حرصه على عدم التعرض لمفاجآت تسبب له الخسارة او الضياع . والحكومة ما تزال عاجزة عن كسب ثقة القطاع الخاص بسبب تصرفاتها السابقة التى تتسم كلها بمطاردة رأس المال ، وحرمانه من ضمان الحصـول على أرباحه المشروعة فعلى الحكومة أولا أن تعدل قانون الايجارات بما يتفق مع المبادىء . العـــادلة ، من اطلاق حرية الاستثمار فى التأجير ، والغاء لجان تحديد الايجارات ، والبعد عن سياسة مطاردة رأس المال الخاص ، ما دام يتصرف فى حدود حقوقه وأرباحه المشروعة ، ولو وفقت

الحكومة أخيرا الى وضع سياسة جديدة لاستثمار راس المال الخاص ، لهرول أصحاب الاموال الخاصة الى اقامة المساكن في كل الانحاء ، كما كان الامر من قبل، خصوصا متى ضمنت لهم حرية التصرف والتأجير ، فى الحدود المشروعة ، ولكان ذلك أكبر العوامل فى حل ازمة الاسكان وأسرعها ، وليس معاونة الدول الصديقة بقروضها وعلى الحكومة أن تعمل فى ذلك الى توفير الحرفيين من عمال البناء وغيرهم بمنعهم من السفر الى الخارج الا فى حدود ضيقة ولأزمنة محدودة .

اما عن مشكلة المواصلات فقد بذلت الحكومة فى ذلك بعض الجهود ، وذلك باستيراد السيارات الكبيرة ، وتزويد الخطوط المختلفة بهذه السيارات ، وانشاء خطوط جديدة طويلة ، فى سائر الاتجاهات . ومع ذلك فان هذه الجهود ليست كافية لحل المشكلة ، التى مازالت تبدو بنواحيها البشعة فى أحياء وقطاعات عديدة . ويكفى أن نذكر فقط مترو حلوان الكهربائى ، وما يبدو من فظاعة زحامه المكتظ باستمرار ، وعرباته المهلهلة ، وحوادثه الخطرة العديدة (١) .

وكذلك فان الحكومة لم تفعل شيئا لوضع حد للهجرة الريفية التى ما زالت تغزو العاصمة باستمرار ، وتزيد فى عدد سكانها الضخم ، وتنافس سكان المدينة الكبرى فى كل المرافق . وعلى الحكومة أن تتخذ فى ذلك بعض

---

(١) سبق أن نبهنا الى أن الاستاذ عنان فرغ من تاليف هذا الكتاب سنة ١٩٧٩ وقبل عمل مترو الانفاق «كتاب الهلال» .

الاجراءات التي تحول دون وفود العناصر الفضولية ، والخطرة على الامن العام ، وحماية العاصمة الكبيرة منها ..

وأما قضية الغلاء والتضخم ، فأنا نستطيع أن نقول بمنتهى الصراحة ان الحكومة لم تبد أى اهتمام ولا شعور بهذه القضية ، وانها تترك الامور تجرى في مجاريها ، وتترك قيمة الجنيه المصرى تنحط باستمرار ، وأثمان السلع ترتفع باستمرار دون أن تحرك ازاء ذلك ساكنا ، أو تتخذ فى هذا السبيل أية اجراءات مالية أو ادارية جادة تحدث اثرها في وقف هذا التيار الجارف أو تهدئته . وهذا ما تفعله الآن سائر الدول لمعالجة مشاكلها الاقتصادية .

المستقبل

ان مصر الخالدة لابد أن تنهض باذن الله وعونه من عثرتها ، ولابد أن تجد فى آخر الامر من بين أبنائها من يقودها ويرشدها الى مصايرها العظمى ، ويكشف عنها آثار كل المحن التى توالت عليها ، وردتها الى الوراء ، وجعلتها تقاسى الحياة الكدرة فى سائر المجالات ، وحرمت ابناءها الذين شغلهم تحصيل لقمة العيش عن التفكير فى مصاير بلادهم ، وفيما تصبو اليه من المثل العليا أن أبناء مصر ، مهما كان الانهيار المادى والمعنوى الذى شمل كثرتهم الغالبة ، يجب أن يثقوا فى مصاير بلادهم الخالدة ، التى استطاعت ، خلال تاريخها الطويل أن تغالب كل محنة ، وأن تخرج من كل سقطة ، وأن تسترد دائما ثباتها ومنعتها ، وأن تفوق من كبوتها . ان مصر تجوز اليوم عصر محنة وانحطاط ، مادى ومعنوى ، ولكنها لن تلبث أن تجوز هذه الحقبة المظلمة من تاريخها، الى حقبة منيرة مزدهرة ، هذا ما يعلمنا اياه تاريخ بلادنا، التى لم تستحق المحن ، مهما عظمت حيويتها الاصلية ، وعزائمها الراسخة ، بل كانت دائما تصابر الغمار ، ولن تلبث حتى تخرج منها ، وتبدأ حياة جديدة ، ومصر الآن فى عهد تصابر فيه الغمار ، ولن تلبث أن تتغلب عليها ، وأن تخرج منها رافعة الرأس ، مستشرة

القلوب . ان العناية الالهية التى حمت مصر ورعتها طوال هذه القرون العديدة ، وانتشلتها من كبواتها مرة بعد أخرى ، لخليقة بأن ترعاها فى محنها الحاضرة ، وأن تمد اليها يد الانقاذ كما فعلت دائما . على أن ذلك كله يتوقف على قدر كبير مما تقوم به مصر نفسها ، ولابد للجيل الحاضر مهما كانت بوادر عجزه وتخلفه أن يبتز فى النهاية لعملية الانقاذ التى تتطلبها بلاده ، وأن يفعل المستحيل حتى يتاح له الفوز فى أدائها .

هذا ما يشعر به كاتب هذه السطور ، وانه لشعور لابد أن يخالج كل مصرى أصيل يؤمن بحق بلاده ومصيرها .

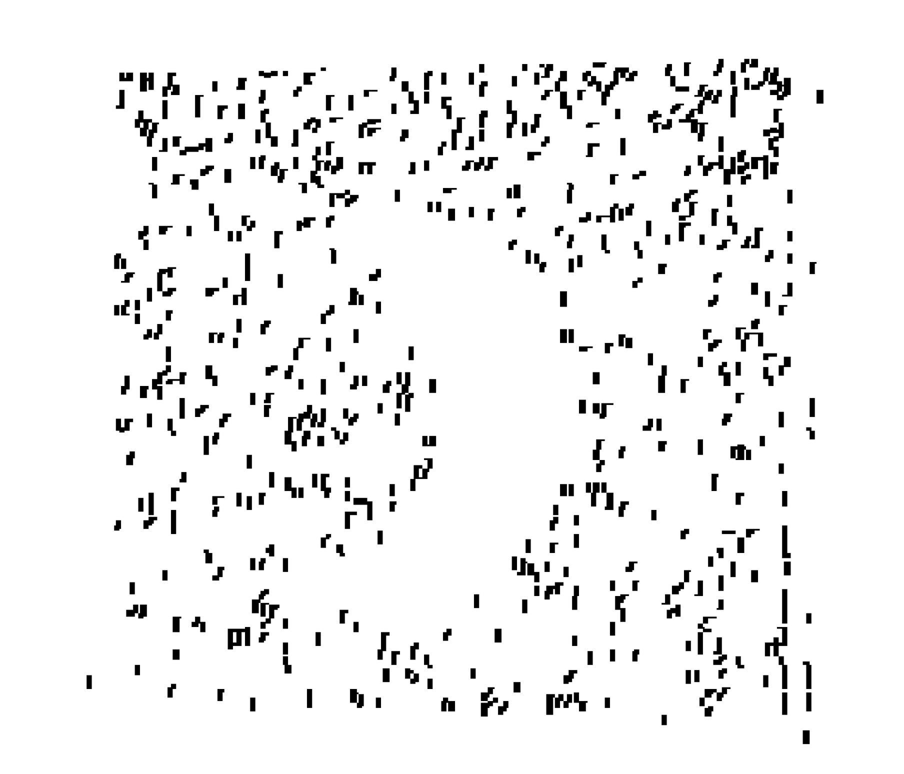
ومن الواضح أنه لابد أن تمضى فترة معقولة ، تستغرقها معالجة المشاكل والهموم المعيشية ، ثم يستطيع الشعب بعد ذلك ، أن يعنى بعد المهام الفرعية بالمهام الرئيسية التى يقتضيها التنظيم والبناء . وقد يقتضى ذلك جيلا آخر ، ولكن الجيل فى حياة الامم لا يعد حقبة كبيرة ، متى شغلت مراحلها بالتجديد والتنظيم ، والسعى وراء كل ما يجلب الرخاء الى البلاد . ومتى حل اليسر والرخاء ، أصبحت عملية التنظيم والتجديد ممكنة وسهلة ، ومرغوب فى اقتحامها وتحمل أعبائها . والعمل فى ذلك يقوم على الاغلب على جهود الجيل القادم ، وليس على أيدى جيلنا ، الذى ثبت عقمه فى كل مجهود ، وكل محاولة ، واكتفى بالعيش الرتيب فى عسر ومشقة لا يجد بديلا عنهما فى ظروفه المقرونة بالشقاء والمعاناة .

ومتى انفتح باب العمل والتنظيم لهذا الجيل الجديد المنقذ ، فان مصر تعود فتبدأ مرحلة جديدة من النهوض

والازدهار ، وتستطيع أن تنفض عن أكتافها عثرات الجيل السابق ومتاعبه . ولقد شهدنا مثل هذا التطور عقب الثورة العرابية وخراب البلاد فى بداية عهد الاحتلال ، ثم شهدنا عقب ثورة ١٩١٩ ، ولابد أن نشـــــهد مثيله بعد زوال مشاكلنا فى العهد الحاضر ، وبزوغ فجر الجيل الجديد المنقذ . .

والله جلت قدرته يحفظ بلادنا ، ويمدها بروح من عنده ، ويشملها بجميل عونه .

رقم الايداع : ٨٧/٨٩٣٨
الترقيم الدولى : ٢ - ٣٣٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN



سيرة ذاتية للكاتب الكبير الإستاذ محمد عبد الله عنان . الذى اثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات . وهو من اعظم حملة الاقلام العرب فى القرن العشرين .

ولم ينقطع خلال حياته الحافلة عن الكتابة فى المجلات الثقافية ، ولعل ابرز مقالاته تلك التى حذر فيها من المخططات الصهيونية والكل غافل عن تلك المخططات والتى نشرها فى مجلة الرسالة فى عددها الصادر يوم ١٦ مارس عام ١٩٣٦ . وقد شارك بالكتابة فى مجلة الهلال منذ العقد الثانى من هذا القرن ..

وعاش الكاتب الكبير حياته مستقل الفكر ينزع الى الحرية بعد ان مال فى شبابه الى الاشتراكية . بعدها انصرف الى التأليف ، وفى كل مواقفه كان تعبيرا صادقا عن فكر الصفوة التى كثيرا ما تنظر الى العامة من برجها العاجى . مما جعل له موقفا خاصا من ثورة ٢٣ يوليو ويشتد فى الحديث عنها . ولايرى - فى عزلته - الضرورات الاجتماعية والسياسية التى حددت مسارها . ومن المؤسف حقا ان نصيبه من التقدير فى مصر لايساوى مابذله من جهد ، وما اضافه للمكتبة العربية من ذخائر الكتب .

إن نشر هذه المذكرات حدث ثقافى هام . ورؤية كاملة لأحداث حافلة خلال ثلثى قرن من الزمان .

